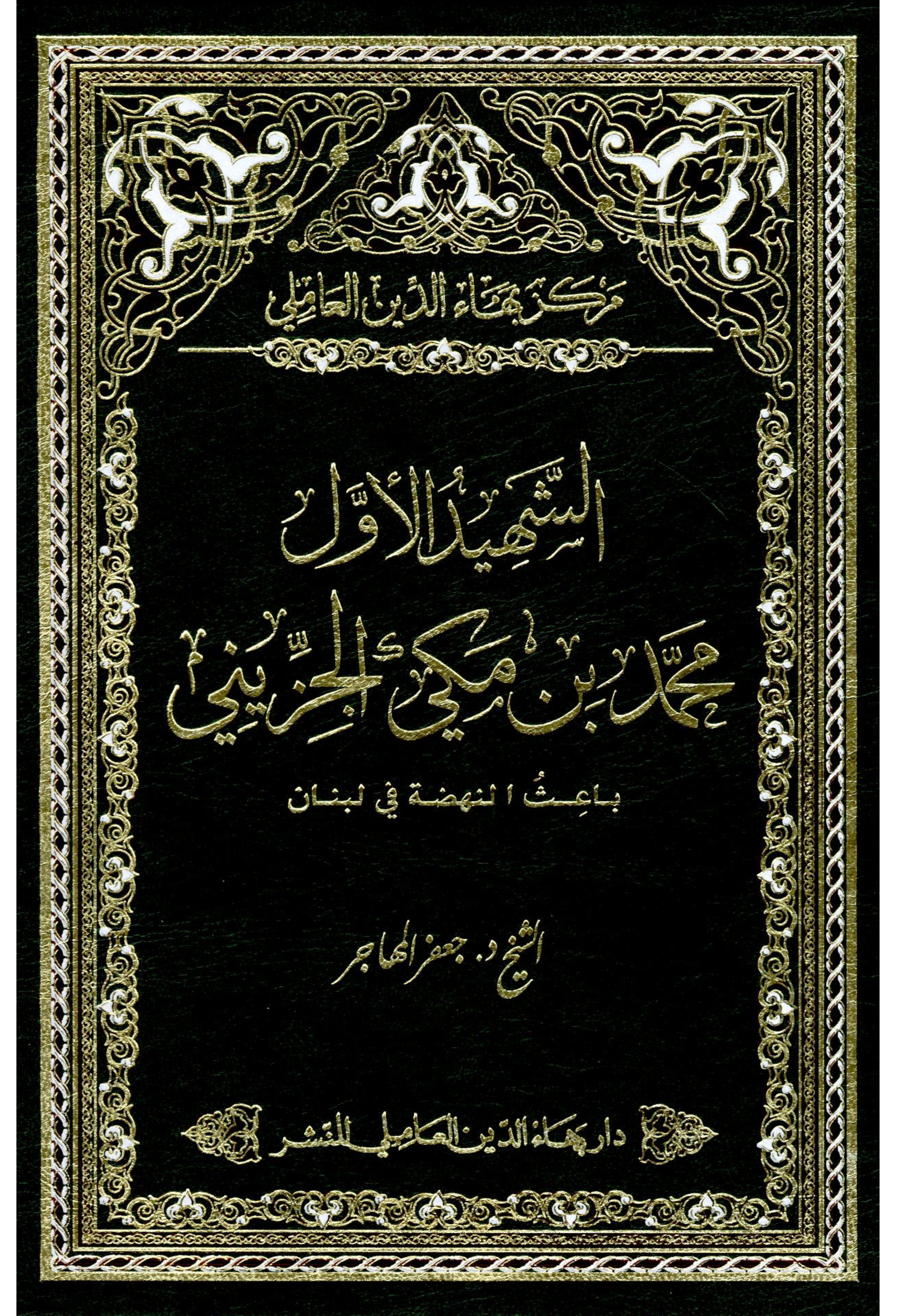

مركز بهاء الدين العاملي
الشهيد الأول
محمد بن مكي الجزيني
باعث النهضة في لبنان
الشيخ د. جعفر المهاجر
دار بهاء الدين العاملي للنشر

الشـهيد الأول

محمد بن مكّي ا لجزّيـني

عصره . سيرته . أعماله وما مكث منـها.



الكتاب : الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني
عصره ، سيرته ، أعماله وما مكث منها

المؤلف : الشيخ د. جعفر المهاجـر

إعداد مركز بهاء الدين العاملي للأبحاث
والدراسات والتدريب (مبدع) .

الناشر : دار بهاء الدين العاملي للنشـر
بعلبك هاتف 9618377756+

تاريخ النشر 1435هـ/ 2014 م

الشـهيد الأول

محمد بن مكّي ا لجزّيني

(ق : 768هـ / 1384 م)

باعِثُ ا لنهضة في لبنان

عصرُه ، سيرتُه ، أعمالُه وما مكثَ منها

الشيخ د. جعفر المهاجر

صفحة الناشر

فهرست الموضوعات

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(1)

عِمارةُ السّيرة من أهمّ فنون الكتابة التاريخيّة . بل هي عندي أهمُّها على الإطلاق . بالنظر لأنها أبعدُها عن التأثير المُدمّر للمؤرّخ السُلطوي . ذلك أن كتابة السّيرة هي ثمرة علاقةٍ إنسانيّةٍ طبيعيّةٍ بين الكاتب وموضوع عمله ، حتى وإن كانت غير مباشِرة . أمّا الكتابة التاريخيّة الحَدَثيّة فهي غالباً جِداً خاضعة لأفكارٍ مُسبَقَة ، تكيّف الأحداث بما يتناسَبُ مع أغراض وحوافز وأفكار وعلاقات كاتبها .

سببٌ آخَر لأهميّة عِمارة السّيرة ، ينبعُ من أهميّة صاحبها . هاهنا علاقة طرديّة بين الاثنين . كلّما كان صاحب السّيرة أكبر حضوراً وأعمق تأثيراً ، كلما كان الداعي إلى عِمارةِ سيرته أقوى وأعود . ذلك لأننا من خلال السّيرة قد نستشرف ما نعجز عن رؤيته في التاريخ الرسميّ الحَدَثي . إذن ، فنحن هنا أمام مطلبين : كتابةُ السّيرة بذاتها ، وعَبْرَها كتابةُ تاريخٍ أصدق وأكثر إنسانيّة .

عِمارة سيرة الشهيد الأول محمد بن مكّي الجزيني أنموذجٌ كبيرٌ على ما قلناه . على الرغم من أنها تحَدٍّ عسير لمن يُحاولها . وليس هذا بالأمر العُجّاب . فدائماً كانت سِيَرُ الكبار الكبار أكبرَ منهم.على الأقلّ لأن إنجازاتِهم تعيشُ وتنمو من بعد أن يموتوا . إنهم يبدأون تفاعلاً يمضي مُتسلسلاً من بعدهم كأنّما بقوّةٍ كامنةٍ فيه . يُنتجُ ويُغيّرُ ويُبدّلُ في مقادير البشر، دون أن يُلقي بالاً لموت مَن أنجبه . ولكن سيرة الشهيد ، بالإضافة إلى ذلك ، تواجهنا بتحدّيات من صنف مُختلف . إنه كبيرٌ نبتَ في الغُمار . أكثر الكبار نبتوا في الغُمار، ولكن هذا الكبير نبت في غُمار تام مُطبِق ليس فيه بصيص نور. ولم يلتفت حتى تلاميذه إلى الحاجة إلى تسجيل ما عرفوه من سيرته إلا بعد أن نال الشهادة . وحتى أكثر ماسجّلوه ضاع في الغُمار نفسه . ولم ينجُ منه إلا ما خرج من حالة بلده

مع خروج أحد أبرز تلاميذه ، المقداد بن عبدالله السّيّوري ، الذي سجّل لنفسه فيما يبدو ، ما عرفه من قصّة شهادته فقط، دون مابقي من سيرة شيخِه ، وهو الأهمّ ، وحملها معه إلى "العراق" . ومن هناك انتشرت وتناقلتها المصادر . نعم ، كتب أكثر من تلميذ سيرةً له يبدو أنها شاملة ، ولكن هذه كلها بقيت في " جبل عامل " ، فكان مصيرها الضياع . ولم ينجُ منها ويصِل إلينا إلا مُختصَرٌ عن أحدها ، وأصله سيرة يبدو أنها شاملة للشهيد . علّقها أحد تلاميذه غير المعروفين ، هو محمد بن علي بن الوحيد البتدّيني سمّاها (نسيم السّحَر) . ثم تناولها حفيدٌ بعيد للشهيد هو محمد مكّي بن محمد بن شمس الدين بن الحسن بن زين الدين (ح : 1169 هـ / 1755 م) ، الذي كان يعيش في " إيران " ، . فاختصرها على نحو لا نعرف حظّه من الدّقّة . وكلُّ الذي وصلنا منها تسع أوراق مكتوبة بخط اليد . يبدو أنها نسخة الأصل . قدّم لي صورة عن أصلها المحفوظ في مكتبة السيد البروجردي في "النجف الأشرف" ، برقم 8 / 399 ، أثناء إحدى زياراتي لـ " قم " المُقدّسة ، الصديق العزيز البحاثة الشيخ رضا المختاري . على عادته الحميدة في إتحاف زملائه بما يقع تحت يده من نفائس . والحقيقة أنني لم ألتفت لأول وهلة إلى قيمتها . ولكنني عندما انفردتُ بها وبدأت قراءتها تكشّفت أمامي أهميّتُها ونقائصُها معاً. وسننقدها إن شاء الله في النشرة التي اعتنينا بها ، يجدها القارئ في الوثائق المُلحقة بالكتاب .

هوذا كلّ ما لدينا في المصادر الشيعيّة عن الشهيد . ولا ننسَ أننا نسوق كلّ هذا الكلام في سبيل بيان التحدّي الذي يواجهه الباحث الذي يُحاول كتابة سيرته .

أمّا ما في المصادر غير الشيعيّة فهو الأكثر، سواءٌ من حيث عدد المصادر ، أم من حيث سِعة المادّة . وهذه ظاهرة غير عاديّة . نظن أن سببها أمران :

ـ الأول : سِعة شبكة علاقات الشهيد ، التي شرع ينسجها منذ أن غادر "الحلّة" . وذلك بدءً من رحلته العلميّة الواسعة ، التي زار أثناءها كافة مراكز العلم المعروفة في المنطقة ، حيث أخذَ وسمعَ من شيوخها وفقهائها . ثم تابعها بدقّـةٍ ودأبٍ

بعد أن استقرّ به المقام في "جزّين" . ممّا جعل منه شخصيّة ذات حضور قوي . وغني عن البيان ، أن أرباب المعاجم يترجمون لمَن يعرفون ، ويصدفون عمّن يجهلون .

ـ الثاني : قتلته الفاجعة ، بوصفها حَدَثاً غير عادي بكلّ المقاييس ينطوي على عدوان واستفزاز على ولكلّ القيَم الدينية والأخلاقيّة . لِما للشهيد من مكانة عالية بوصفه فقيهاً كبيراً . ولذلك فإنها أثارت رنّةَ من الحزن لدى عارفي فضله ، حتى خارجَ مذهبه . ممّا ترك آثارَه المكتومة والصريحة فيما كتبه أكثرهم . ناهيك بالفجيعة الكبيرة لدى قومه والمُتأثّرين بمشروعه النهضوي وكافّة مُقدّري أعماله ومراميه . الأمر الذي أوجب تخطيطَ واستنفار وحشْدِ السُلطة لامتصاص مشاعر النقمة . وانعكس ذلك حضوراً في تلك المصادر .

من هنا ، فإن كلّ ما كتبه عليها المؤرخون هو حصراً من وجهة نظر السُلطة . إمّا لالتزام الكاتب بها وبمصلحتها التزاماً شخصيّاً ومُباشراً ، وإمّا لأنه مُلتزم بفكرها ونمطها . وعلى كلّ حال فالغرض دائماً واحدٌ ليس غير . هو تبريرُ جريمة قتله . ومن هنا فهي عِبءٌ على البحث والباحث . ليس له أن يستفيد منها، لأنها لا تعكس الحقيقة ، وإنما هي مُجرّد وُجهات نظرٍ تبريريّة . بل له أن يكتشف خبيئها في سياق معالجة بعض الإشكاليّات التي تطرحها السّيرة .

(2)

بُغيتي في هذا الكتاب أن أكتبَ سيرةً وافيةً للشهيد . وإن كنتُ أعرف سلفاً أنني لن أصِلَ إلى بُغيتي بأكملها . ذلك لأن سيرته الحافلة تطرح إشكاليّاتٍ أكثر بكثير ممّا بين أيدينا من معلومات تصلُحُ موادّ لعِمارتها . وقد أمضيتُ السطور السابقة من المقدمة في بيان المأزق الذي يقع فيه الكاتب ، بمُجرّد أن يحاولَ ما أحاولُهُ هنا . كي لايعتبر القارئ عنوان الكتاب وعداً مُلزِماً يُطالبني بكلّ ما يقتضيه . يكفي أن نتقدّم خطوةً إلى الأمام ، بالقياس إلى تطوّر البحث في موضوع الكتاب . وأن نطرحَ الأسئلة التي تنبثُ من ثنايا التأمّل المنهجي طرْحاً دقيقاً . ومعلومٌ أن طـرْح الأسـئلة المنهجيّـة

الصحيحة هو نصفُ الطريق إلى الجواب . بالنظر لأنها تُحدّد المنظورَ للباحث وهو يُنقّبُ ويتأمّل . تاركين للمعالجات الآتية الأملَ بأن تُكملَ الطريق . وهذا أملٌ له ما يُسوّغه ، ممّا سنقِفُ عليه بعد قليل إن شاء الله .

(3)

الكتابُ من سبعة فصول . كل فصل يُعالج إشكاليّةً من الإشكاليّات التي يطرحُها موضوعُه . وقد قدّمنا لكل فصل بتمهيد . كما ذيّلناه بمُلخّصٍ لمادته . ابتغاء أن نُساعد القارئَ على أن ينتقل انتقالاً مُريحاً من طورٍ من البحث إلى الطور التالي .

سنُخصّصُ الفصلَ الأولَ لـ (**أرضيّة تاريخيّةٍ**) عامّة . لأن كلّ سيرةٍ شخصيّةٍ هي ثمرةُ تفاعلٍ خَصْبٍ بين الظرف العام بكامل عناصره ، وبين الذات / الشخص . ولن يكون في الوسع فهمُ أعماله إلا بالنظر لموقعها . فلنقُل أن الظرفَ العام هو الفعل ، وأن الأداءَ هو الاستجابة أو الارتكاس عليه . وعليه فقد رسمنا في هذا الفصل خريطةً بشريّةً للتحوّلات السُكاّنيّة للشيعة النازلين غرب البحر المتوسّط ، أي ما يُعرف اليوم بـ "لبنان" السياسي . بادئين بانتشارهم في المنطقة ، وصولاً إلى البلاء الصليبي . الذي كان بمثابة البادئ لسلسلة من الحركات السُكّانيّة القسريّة ، الآخذ البعضُ منها برقاب بعض . أهمُّها على الإطلاق إخراجُ الشيعة من مواطنهم التاريخيّة في "جبل لبنان" . فإسكان جماعات من التركمان فيها . فهبوط هؤلاء إلى السواحل واجتياحها سُكّانياً ، اجتياحاً مدعوماً من قِبَل السُلطة . الأمر الذي انتهى إلى خريطة بشريّة جديدة للمنطقة ، مع ما ترتّبَ على ذلك من آثار سياسيّة . كان الشيعة ضحيّتَها الوحيدة . وهذه هي القاعدة التي تستقرّ عليها سيرة الشهيد وأعماله .

في الفصل الثاني ، ("**جزين**" **ماضي الأيام الآتية**) ، سنقتربُ خطوة كبيرة من غايتنا. وذلك بالتعرّف على البيئة الثقافية التي نبت فيها بطل هذه السيرة ومكوّناتها . من ناحية تاريخها العام ، ومن ناحية تاريخها الثقافي الخاص . والعلاقة بين الشخص ومنبته ليس في حاجة إلى تذكير بأكثر من هذه الإشارة .

في الفصل الثالث ، (**في السيرة**) ، سندخل مباشرةً في سيرة الشهيد . حيث سنستعرضُ استعراضاً نقديّاً ما في مختلف المصادر مراحل حياته الستّ التي عنونّا بها أقسامه الستة . بدءاً من المولد حتى الشهادة .

في الفصل الرابع ، (**في خضمّ المُعترَك**) ، سنقوم بما أستحسنُ أن نُسمّيه تجوُّزاً : توأمَة ، نضرب فيها النتائجَ التي وصلنا إليها في الفصول الثلاثة السابقة بعضها ببعض. خصوصاً بين الفصلين الأول والثالث . لنقِفَ على الجانب العملاني من سيرة الشهيد . حيث سنتحدّث في بواعثه وحوافزه على العمل والنهج أو الخِطّة التي عمل عليها ، وصولاً إلى الثمار التي آتَت من أعماله . مع إشارة ضروريّة إلى أن الحديث في البواعث والحوافز سيستوجب العودة إلى الظرف التاريخي الذي عمل فيه . هذا أشبه بضبط العدسة قبل أخذ الصورة .

في الفصل الخامس ، (**عالَم الشهيد**) ، سنبقى في نطاق السّيرة . لكننا هذه المرّة سنُرجِعُ البصرَ فيها من خلال شبكة العلاقات الواسعة التي بناها في سياق عمله ، إعداداً أو تنفيذاً . وهو بحثٌ غير مسبوق . أملاه علينا ضرورة أن جزءاً كبيراً وأساسيّاً من سيرته ، لا سبيل للإحاطة به إلا من هذا المنظور.

في الفصل السادس سنطرح السؤال الكبير: (**لماذا قُتل الشهيد ؟**) . إن حجم السؤال يتأتّى من حجم الجريمة وغرابتها أولاً ، ثم من حجم حضورها في المصادر الكثيرة . وكلا الأمرين له معناه ومغزاه ، الذي من وظيفة الباحث أن يكتشفه .

في الفصل السابع سنصِل إلى ذروة البحث ، فنطرح سؤالاً ثانياً هو: (**ماذا مكث من أعمال الشهيد ؟**) . السؤال في غنى عن التبرير. لكن هاهنا ما يجب الإشارة إليه . فمع أن هذا البحث غير مسبوق أيضاً ، فإننا فيما نعالجه في السؤال غير سابقين . أريد أن أقول : إننا في هذا نلحقُ بالجمهور. نطلب تفسيراً للحضور الكبير والمُميّز للشهيد في وُجدانه . ذلك الحضور الذي لم يكُن ليحصل لولا ما مكثَ من أعماله . إذن ، الحضور الكبير في الوجدان الشعبي هو وجهٌ آخرَ للباقيات الصالحات

التي استولدَها . وسيكون علينا في هذا الفصل أن نكتشفها ، على المستوى المحلّي في وطنه ، وعلى المستوى الأوسع في عالَم التشيّع .

وأخيراً ، سنختم الكتاب بالخاتمة التقليديّة التي تقضي بها الكتابة الفنّيّة . فنُلخّص أهم النتائج التي وصل إليها البحث في فصوله السبعة .

(4)

بالنسبة لمصادر الكتاب الأساسيّة ، فإن علينا أن نُكرّر ما سبق أن أشرنا إليه من نُدرة المصادر الشيعيّة في هذا النطاق ، للسبب الذي ذكرناه في مطلع المقدّمة . والحقيقة أن ليس في اليد من هذه إلا مصدرين اثنين :

ــ أولهما : رواية المقداد بن عبد الله السيّوري . وهو فقيهٌ عراقيٌّ بارز . تتلمذ للشهيد في "الحلّة" . ثم التحق به بعد أن استقرّ به المقام في "جزّين" . حيث غدا أكبرَ معاونيه . ثم تركها عائداً إلى وطنه بعد مقتل شيخه . حيث قضى ما بقي له من العمر مع أحزانه . وقد سجّلها تلميذه عز الدين حمزة بن مُحسن الحسيني كما وجدها بخط شيخه . ثم وجدها محمد باقر المجلسي " في بعض المواضع " فأنزلها في كتابه الشهير (بحار الأنوار) . وعنه نُقلت في مصادر كثيرة .

الرواية من هذه الوُجهة موثوقة . ولكنها، من وُجهة أخرى، محصورةٌ في قصّة الشهادة ، كما وعاها صاحبها ، أو كما وصلتهُ أصداؤها . نُشير بهذا إلى أنها من مستويين : هي روايةُ شاهد عيان فيما يتصل بما اضطرب فيه الشهيد من أحداث جرت في "جبل عامل" ، ومهّدت أو كانت السبب المُعلَن للمحاكمة التي انتهت بقتله . ولكنها أصداءٌ بعيدةٌ عمّا وصل إلى "جزين" من "دمشق" من أحداث المحاكمة والقتل .

ــ ثانيهما : رسالة (مُختصر نسيم السّحَر) لمحمد مكّي بن محمد بن شمس الدين بن الحسن بن زين الدين ، من سُلالة الشهيد الأول . الذي كان يعيش في "إيران" . وكان حيّاً سنة 1169 هـ / 1755 م .

الرسالة غير مطبوعة . ولدينا نسخة مُصوّرة عن أصلها المحفوظ في مكتبة السيّد البروجردي في " النجف الأشرف " برقم 8 / 399 . قدّمها لي مشكوراً الصديق العزيز البحّاثة الشيخ رضا المختاري . أثبتنا نصّها مع مقدمة مناسبة في الوثائق المُلحقَة بالكتاب .

لهذه الرسالة قصّة تستحقّ أن تُروى .

أصلها،(نسيم السّحَر)، لا ذكر له في كافة المصادر، بقدر ما بحثنا ونقّبنا . حتى أن آغا بُزُرك لم يذكره في كتابه الضخم (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) ، وهو الذي قضى شطراً كبيراً من عُمره يبحثُ ويُنقّبُ في المكتبات العامّة والخاصّة في "إيران" و"العراق" ، باحثاً عن مادّة كتابه . ممّا يتركنا على شِبه اليقين بأنه من كنوزنا الضائعة. ولكن ما من ريب في أن نسخة منه كانت لدى محمد مكّي ، هي التي اختصر مادتها . ثم أن عمله هذا يدلّ دلالة ظنيّة على أن الأصل كان من حجم كبير، وبالتالي غنياً بالتفصيلات، وإلا لماذا صرف جهده إلى اختصاره. ممّا يزيد من حسرتنا على ضياعه .

الوحيد الذي ذكره هو صديقنا ونسيبنا المرحوم الشيخ محمد رضا شمس الدين ، في كتابه الرائد(حياة الإمام الشهيد الأول) ، الذي صنّفه سنة 1376 هـ / 1957 م ، حيث قال : " **نسيم السّحَر في حياة الشهيد الأول، من حين مولده حتى قُتل، للفاضل المُحقق ـ هكذا رأيت ـ الشيخ أحمد بن الوجيه[صحّحْ : الوحيد] العاملي، من قرية زبدين** " [1]. ولكنه لم يقل لنا أين "رأى" . كما أنه لم يُسنِد أقواله . وإن يكن لا ريب في أنه أخذها

---

(1) محمد رضا شمس الدين : حياة الإمام الشهيد الأول/ 395. طُ . ضمن مجموع باسم : (بهجة الراغبين في مؤلفات الشيخ محمد رضا شمس الدين) . ط . بيروت ، دار المحجّة البيضاء 1424 هـ / 2003 م .

(2) نفسه / 409 .

من مصدرٍ ما . ثم أنه يذكرُ كتاباً عنده ، يبدو أنه في سيرة الشهيد "**بخط الشيخ مكّي بن محمد**" الذي يصفه بأنه "**من ذريّة الشهيد ومن علماء القرن الثاني عشر . وكان له مكتبة كبيرة** "[2] . وبعض هذه الصفات تنطبق على محمد مكّي ، صاحب هذا المُختصر . وعلى كلّ حال ، فإن كلّ ما قاله في هذا السياق يبدو أنه مُستند إلى سماعيّات ، ليس منها ما هو ثابت . ومع ذلك فإن مُجرّد ذكره لـ (نسيم السّحَر) أمرٌ يستحق التنويه .

نقول كلّ هذا على (نسيم السّحَر) على سبيل الإلفات إلى قيمته الاستثنائيّة ، وضمناً على سبيل التعلّق بالأمل في أن تكون نسخةٌ منه خبيئةٌ في إحدى المكتبات .

أمّا بالنسبة لمُختصره الذي بين أيدينا ، فقد عرّفنا به وراجعناه مُراجعة نقدية في المقدمة التي وضعناها لنشرتنا له في الوثائق المُلحقَة بالكتاب . فليُرجَع إليها هناك .

هذا فيما يرجع للمصدرَين الشيعييَن .

أمّا بالنسبة لغيرهما ، فإننا سنذكرها مُرتّبةً بالتسلسل حسب تاريخها :

ـ الأول : غاية النهاية في طبقات القُرّاء ، لشمس الدين محمد بن محمد الجزري (ت : 833 هـ / 1429 م) . وهو فقيه دمشقي مولداً ونشأةً . عرف الشهيد معرفةً وثيقة لمدّة طويلة . والظاهرُ أنه كان من رُوّاد مجلسه في المدينة . وقد علّق له في كتابه هذا ترجمةً من تسعة أسطر فقط ، ومع ذلك فهي غنيّة بالمعلومات . أكثر مادتها مُستفاد من الشهيد فيما يبدو. ولكنه أثناء المُحاكمة كان في "مصر". ولو انه كان في "دمشق" لربما كان من جملة العلماء الذين حشدتهم السُلطة في مجلس الحكم ليكونوا شهداء على ما يجري فيها. ولترك لنا معلومات شاهد عيان غير مُتحيّز على الأقل .

ـ الثاني: صُبح الأعشى في صناعة الإنشا، لأحمد بن علي القلقشندي (ت:821 هـ / 1418 م) . وهو كاتب مُتقدّم في ديوان الإنشاء بـ "القاهرة " . من عمله تدبيجُ الرسائل والتوقيعات وما إليها للسلطان . وقد صنّف كتابه هذا ليكون مُرشداً لمَن يبتغي العمل في هذه الوظيفة . وهو لم يعرف الشهيد . كما أنه لم يكُن معنيّاً بشأن

أمثاله من الرجال . ومع ذلك فإنه ، ويا لحُسن حظنا ، أنزل في كتابه نصاً أميناً للتوقيع الذي نشرته السُلطة في غرب "الشام" ، على أثرحركة الشيعة الاعتراضيّة على ما أدّت إليه سياستها في المنطقة . دون أن يقصدَ مضمونَه. وإنما فقط ليكون أنموذجاً يُحتَذى من قِبَل كُتّاب الدواوين في هذا النمط من التوقيعات . وبذلك ، ودون أن يقصد ، ترك لنا أهمّ وثيقة ، بيّنت لنا ما سكتت عنه كلّ المصادر، على أعمال الشهيد وثمارها في النطاق السياسي الاجتماعي .

على أننا في هذا التقديم للتوقيع ، أرى أنه ينبغي لنا الوقوف عند أمر عليه تتوقّفُ استفادتنا منه :

ذلك أن نص التوقيع ، كما ورد في مصدره ، يؤرخ لصدوره " **في خامس عشرين جمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين وسبعمائة** " [3]. لكنني شككتُ في صحّة هذا التاريخ، لافتقاره إلى التناسب مع السياق التاريخي الذي يصِفه أو يُشير إليه . خصوصاً وأن النشرة الوحيدة للكتاب غير مُحققة تحقيقاً علمياً . وبالتنقيب وقفتُ على نصٍّ في (تاريخ بيروت) لصالح بن يحيى ، يقول فيه : إن والده الأمير يحيى بن زين الدين صالح ، أمير غرب بيروت الدّرزي ، جَرَت عليه "**حركةٌ رديّةٌ**" من والي "الشام" بيدمُر الخوارزمي . وذلك "**لمّا تحرّكت الشيعة في بيروت وأظهروا القيام بالسُنّة**" [4] . وهي المناسبةُ التي أصدرَ فيها الوالي نفسُه التوقيع . والأمير يحيى المذكور صدرَ منشورُ إقطاعه ، أي صار أميراً مسؤولاً تجاه السُلطة الإقليميّة في " دمشق " ، في السنة 774 هـ / 1372 م . ومن هنا قوي عندنا الظن بأن التأريخ المذكور لصدور التوقيع قد ناله تصحيف. ونُرجّح أن يكون التاريخ الصحيح سنة أربع وثمانين وسبعمائة . ومع ذلك

---

(3) القلقشندي : صُبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ط . القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، لا ت . : 13 / 13 .

(4) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ط . بيروت 1990 م / 195 .

فإننا لن نُرتّب أثراً على هذه النتيجة ، وإن تكُن قويّة . وذلك لأسباب منهجيّة واضحة . وإنما أردنا تسجيل شكّنا استناداً لسياقٍ تاريخي . ولعلّ صدور نسخة مُحققة من الكتاب يحسم الأمر .

ــ الثالث: تاريخ ابن قاضي شُهبة ، لأبي بكر بن أحمد بن قاضي شُهبة الأسدي (ت : 851 هـ / 1447 م) . وهو ما ذيّل به على مُصنّفات مَن سبقوه من تاريخ ابن كثير وذيله المفقود المعروف عند المؤرخين بـ (تاريخ ابن حِجّي) . والظاهرُ أن ما كتبه ابن حِجّي على واقعة محاكمة الشهيد وقتله وما سبقهما غني وهامّ . ولكنه ، من أسف ، ضاع مع ضياع تاريخه . إذن ، فقيمة نصّ ابن قاضي شُهبة ، أنه سدّ جزءاً من النقص الذي حصل بضياع نصّ ابن حِجّي .

ــ الرابع : إنباء الغَمْر بأنباء العُمُر، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت : 852 هـ / 1448 م) . وهو وُلِد ونشأ وعاش في " مصر" . فهو، إذن، أبعدُ من سابقه عن بيئة البحث . وربما يُفسّر هذا اضطرابَ نصّه . ذلك أنه ترجم للشهيد مرتين . الأولى في وفيات سنة 781 هـ / 1379 م . والثانية سنة 786 هـ / 1384 م . وهذا اضطراب بعيدٌ عن الفهم . ومع ذلك فإن نصّه على قدر من الأهميّة ، للأسباب نفسها التي قلناها على نصّ ابن قاضي شُهبة .

ــ الخامس : شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب ، لعبد الحي بن العماد الحنبلي (ت : 1089 هـ / 1678 م) . وهو أقلّ الخمسة أهميّة . خصوصاً وأنه يكاد أن يكون منسوخاً عن كتاب سابقه ، مع بعض الإضافات التوضيحيّة .

في هذا السّياق ، علينا أن نقِفَ وقفةً خاصّة عند نصوص الإجازات التي مُنحِت للشهيد أو صدرت عنه . فهذه النصوص هي دائماً مصادرُ مُمتازة . إنها شئ مُختلف تماماً عمّا نقرأه في نصوص المؤرخين ومَن إليهم . هاهنا أناس من النُخبة عرفوا وخبروا بعضهم بعضاً ، غالباً لمدّة طويلة . يكتبون عن فعلهم هم أو سيرتهم الذاتيّة ، ثم أنّهم

يُحَلّون ما يكتبون بذكر المكان والزمان . إنها وثائق لا تُضاهى بكل المعاني . وغني عن البيان، أن قيمتها الكبرى والأساسيّة هي في التاريخ الشخصي ، خصوصاً العلمي ، للشهيد . ومن هنا اكتسبت أهميتها الفائقة في بحثنا .

(4)

اعتمدنا في كلّ الكتاب التقويمَ الهجري ، لأنه الأصل في كافّة المصادر . وحرصنا على مُزاوجته بالتقويم الميلادي. وذلك تيسيراً على القُرّاء الذين يألفون،أو هم أكثر أُنساً به. من الضروري أن نقول أن الميلادي مُستنبَط من التوفيق مع الهجري. وذلك باعتماد الجدول المُقارَن الذي ذيّل به المُستعرب زامباور كتابه (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة) . وهو يحتمل هامش خطأ زائد/ناقص بمقدار سنة واحدة .

والحمد لله رب العالمين

بعلبك يوم الأضحى المبارك 1434هـ.
15 تشرين الأول / أُكتوبر 2013م

الرموز الواردة في الكتاب ومعانيها

هـ :	هجري
هـ . ش :	هجري شمسي
م :	ميلادي
ح :	حـي
ت :	توفي
و :	وُلِد
ق :	قتِل
هـ :	هامش
لا ت :	لا تاريخ
حو :	حوالي
ط :	طُبِع
ص :	صفحة
ج :	جزء

الفصل الأول

أرضيّة تاريخيّة

الخريطة البشريّة للتحوّلات السُّكانيّة للشيعة غرب البحر الأبيض المتوسط ، أي " لبنان" السياسي اليوم .

1. انتشار التشيّع في المنطقة الشاميّة والبلاء الصليبي .
2 . تحت وطأة السياسة المملوكيّة .
3 . نكبة " كسروان " وأعمال ابن تيميّة .
أ . في تاريخ رسالته للسلطان .
بـ . غرضه منها . مراجعة نقديّة .
4 . تداعيات النكبة .

خلاصة الفصل

الفصل الأول

أرضيّة تاريخيّة

من الضروري قبل أي كلام على سيرة الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني ، أن يكون القارئ على اطلاعٍ كافٍ على المعطيات التي تعاملَ معها وعمل عليها . بدون ذلك لن يكون بوسعه أن يفهمَ وأن يُقيّمَ إنجازاته . وبالتالي لن يكون قادراً على فهم الموقع العريض الذي احتلّه في الذّاكرة الشيعيّة عموماً ، وفي وطنه خصوصاً ، حتى اليوم . إن الذّاكرة الجَمْعيّة ، خلافاً للتاريخ الرسمي ، لا يمكن تزويرها أو العبث بها . ولذلك فهي حينما تُمجّد أو تتجاهل ، فإنها تُعبّر تعبيراً أميناً صادقاً عن تفاعلٍ تاريخي ناجح أو فاشل. ربما أصبح نِسياً مَنسياً ، ولكن آثاره ما تزالُ حيّة في الوجدان . هنا تأتي وظيفة الباحث ، الذي عليه أن يُعيد تركيب ذلك التفاعل وأن يبيّن مُكوّناته على مستوى البحث ، بشكل أقرب ما يكون إلى عناصره الفعليّة يوم حصل .

نرمي في هذه التهيئة إلى وصف تحوّلات الحركة السُكانيّة في وطن الشهيد . تحولاً داخلياً على مستوى الفكر والثقافة ، ومادياً على مستوى التركيبة السكانيّة ، وصولاً إلى الظروف التي تعامل هو معها . بكلمات أخرى : إننا في هذا نرمي إلى تتبّع الإنسان في علاقته مع الأرض والثقافة . علاقةً محكومةً لمنطقٍ ما ، لسنا نعرفه على نحو اليقين . ولكننا نعلم أنه موجود . كما نعلم أن البحث فيه ليس دائماً من وظيفة المؤرّخ . وإنما هو قضيّة أقرب إلى فلسفة الأشياء وليس وصفها .

(1) انتشار التشيّع في المنطقة الشاميّة والبلاء الصليبي . إن بحث انتشار التشيّع نحو المنطقة الشّاميّة ينبغي أن يبدأ دائماً من خارجها ، تحديداً من "الكوفة" . وذلك لسببين متكاملين :

ــ الأول : ما هو معلوم وثابت ، من أن هذه المنطقة كانت عاجزة بما فيها من طاقة ذاتيّة عن إنجاز كهذا . ذلك أنها منذ معاوية قد بُنيت وجدانياً لتكون بقعةً غير

قابلة لكل ما يتصل بأهل البيت عليهم السلام . وقد تابع أخلافه هذا النهج بأمانة حتى نهاية حكم الأسرةِ الأمويّة في السنة 130 هـ / 747م تقريباً .

ـ أثناء تلك المدّة كانت "الكوفة" مركزَ التجمّع الصافي الوحيد للشيعة في العالَم الإسلامي . أي أنه من غير المتصوّر حصولُ أي حركة سكانيّة ذات أثر في انتشار التشيّع إلا أن تكون صادرة عنها .

إن تاريخنا الرسمي البليد والمُتحيّز لا يُشير، حتى ولا من طَرْف ، إلى هجرةٍ خرجت من "الكوفة " باتجاه "الشام ". ولكن كُتُب البلدان ورجال الحديث تتحدّث، بطريقة أو بأخرى، عن جاليات كبيرة تُقيم في بلاد "الشام" ترجع بأصولها المعروفة إلى"الكوفة ". ليس على الباحث إلا أن يلمّ شتاتها ليخرج بتصوّر في غاية الوضوح يُفسّر لُغزَ انتشار التشيّع المتنامي في تلك المنطقة ، بحيث أنه ابتداءً من أوائل القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد ، كان المذهبَ الغالبَ على أهله . من ذلك الهجرة الهمدانيّة الكبرى ، التي نزلت "حمص" و بعض قرى "الغوطة" المُطيفة بـ "دمشق"و"جبال الظنيين" في شمال"لبنان" وأطراف "بعلبك "و"اللاذقية" وبعض قراها . وهي الهجرة التي يبدو أنها حصلت بعد ما يُسمّى بعام الجماعة سنة 41 هـ / 661 م .[1] . والهجرة الأشعريّة ، التي نزلت "طبريّة " ، وكانوا على حدّ قول المؤرّخ اليعقوبي(ح : 192 هـ / 807 م) "**هم الغالبون على أهلها**" [2]وما من شك في أن هؤلاء هم أساس وجود التشيع الكثيف في "وادي الأردن" وجواره بحيث قال البلداني المقدسي (ح : 375 هـ / 985 م) : " **وأهل طبريّة ونصف نابلس وقَدَس وعمّان شيعة** " [3]. وهجرة بني ربيعة، التي نزلت أنحاء مختلفة

---

(1) للتفصيل والتوثيق نرجو الرجوع إلى كتابنا " التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية " ط. بيروت ، دار الملاك ، 1413 هـ/ 1992 م / 95 وما بعدها .

(2) أحمد بن واضح اليعقوبي : " البلدان " ط. بيروت ، 1408 هـ / 1988 م / 88 .

(3) محمد بن أحمد المقدسي : " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " ط. ليدن ، مطبعة بريل/161.

من "الشام" [4]. وكان لهم وجود مذكور في "عِرقة" ، شمال "لبنان" [5] . ومعلوم أن قبيلتي همدان وربيعة كانتا عماد عسكر علي عليه السلام في "صفين" . هذا ، إلى جانب هجرات كثيرة أصغر حجماً ، لا بد أنها حصلت في ظل التدفّق على"الشام" ، خصوصاً في ظل الوضع المضطرب الذي ساد "العراق" طوال مدّة الحكم الأموي المرواني [6] ، ممّا قدّم حوافز أخرى للهجرة ، تُضاف إلى الحافز التاريخي المعروف . هكذا يمكننا أن نخرج بتصوّر على الأقلّ لسبب امتلاء الساحل الغربي للبحر المتوسّط بسكان من الشيعة ، من "طرابلس" في الشمال ، حتى "صور" في الجنوب . فضلاً عن جيوبٍ كبيرة في الداخل ، أهمّها "عِرْقة " [7] و"جبال الظنين" في الشمال ، التي تُعرف اليوم باسم مُحرّف هو "الضنّيّة" ، وفي أطراف "بعلبك" سهلاً وجبلاً . وفي "طرابلس" قامت إمارة بني عمّار الثريّة. التي قدّمت أنموذجاً نهضوياً فريداً، بغناها الفكري والأدبي ، ونظامها السياسي المتطوّر بالقياس إلى كل ما عرفه تطوّر أنظمة الحكم في الإسلام ،وبتجربتها التنمويّة الرائدة والمُتقدّمة ، التي قامت على استغلال زراعة قصب السكّر في صناعة الورق والسُّكّر[8]. بموازاة تجربة رصيفتها الكبرى "حلب"، التي قامت على زراعة القطن .

---

(4) ابن ماكولا (ت : 475 هـ / 1082 م) : "الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب " ط. حيدر آباد ، لات. : 4 / 150 .

(5) صالح أحمد العلي : " امتداد العرب في صدر الإسلام " ط. بيروت مؤسسة الرسالة 1403 هـ / 1983 م / 96 .

(6) أشرنا إلى بعضها في كتابنا " التأسيس ..... " / 195 . ولا شك في أنّ دراسةً منهجية لكتب الفتوحات يمكن أن تصل بالباحث إلى نتائج كبيرة في هذا النطاق .

(7) هي اليوم خرائب قرية صغيرة في قضاء " عكّار" ، غير بعيدة عن ساحل البحر .

(8) للتفصيل والإسناد نرجو الرجوع إلى الفصل المُخصص لـ " طرابلس " في كتابنا " التأسيس لتاريخ الشيعة .... " / 123 - 148 .

حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس للهجرة / الثاني عشر للميلاد ، عاش الشيعة فيما يُعرف اليوم بـ "لبنان" السياسي بسلام حياةً آمنة مطمئنة ، لا يُكدّر صفوها خوفٌ ولا ألَم . ثم نزل بهم البلاء الصليبي ، الذي كان بذاته ضربة قاصمة ، ثم أنـه كان بمثابة البادئ لسلسلة من النكبات المتتالية .

بتاريخ 11 ذي الحجة 503 هـ / 12 تموز / يوليو 1109 م سقطت "طرابلس" بيد الغُزاة الصليبيين القادمين من "أُوروبة" . ثم بتاريخ 23 جمادى الأولى 518 هـ / 7 تموز / يوليو 1124م سقطت "صور" . بعد أن صمدتا للأعداء ربع قرن . وقبلهما سقطت "طبريّة " ، عاصمة التشيّع في جنوب "الشام" . وطبعاً كان سقوط كلٍّ من هذه سقوطاً لأرباضها وما يُطيف بها من قُرىً ومزارع . وهكذا أُصيب التشيّعُ الشامي في ثلاثة من مقاتله دفعةً واحدة . وغدت المدن الثلاثة العظيمة إمارات صليبيّة ، يقطنها غرباءُ الوجه واللسان [9].

من النتائج المباشرة لتلك الأحداث المُروّعة ، البعثرة السكانيّة الهائلة التي نالت سُكّان ثلاث مدن كبرى ، فضلاً عن سكّان المئات من القرى والمزارع . الذين لجأوا إلى أقرب الجبال . منهم : أهل "طبريّة " و"صور" وما والاهما الذين اتجهوا إلى "جبل عامل" . وأهل "طرابلس" ومنطقتها الذين لجأوا إلى "جبل لبنان" ، وبالتحديد إلى "كسروان" و"جُبيل" و"المتن". ولم ينجُ من آثارها من المناطق الشيعيّة إلا سكّان "بعلبك " ومنطقتها. هكذا، فإننا، استناداً إلى مُسلسل الأحداث الذي وصفناه حتى الآن، يمكننا أن نرسُم صورة واضحة للتوزيع السُكاني للشيعة فيما يُعرف اليوم بـ " لبنان" السياسي ، على النحوالتالي :

ـ "جبل عامل" ، من " قَـدَس" في الجنوب ، حتى "جـزّين" في الشـمال . ومـن

---

(9) لمن يرغب في تفصيل هذا الموجز الرجوع إلى كتابنا " جبل عامل تحت الإحتلال الصليبي " ، ط. بيروت ، دار الحق ، 1421هـ / 2001 م .

البحر حتى ممرّ نهر "الليطاني" ، الفاصل بين سلسلتي "جبل لبنان" الشرقيّة والغربيّة .

ـ "جبل لبنان"، من الطريق الرئيسيّة المعروفة حتى اليوم باسم "طريق الشام" جنوباً ، حتى الأعالي الشماليّة . حيث قامت منطقة تماسّ شيعيّة ـ مارونيّة . ومن الساحل حتى الأعالي الشرقيّة المُشرفة على "سهل البقاع" .

ـ شرق "سهل البقاع" ، أي "البقاع البعلبكي" .الذي يفصله عن الشّطر الغربي من السهل ، المعروف بـ "البقاع العزيزي" ، الطريق الرئيسيّة ،التي هي استمرا رٌ لـ "طريق الشام" . هذا فضلاً عن جيوبٍ مُتعدّدةٍ في الساحل والجبل (منطقة الشوف) .

وقد استمرّت هذه الصورة السكّانيّة قائمة زهاء قرنين . أي حتى أوائل القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد . أي ، ما دمنا قد رسمناها تمهيداً لفهم الظروف السياسيّة والاجتماعيّة التي عاش وعمل فيها الشهيد ، إلى أوائل القرن الذي عاش فيه .

(2) تحت وطأة السياسة المملوكيّة . في السنة 688 هـ / 1289 م ، حرّر السلطانُ المملوكي قلاوون الألفي مدينة "طرابلس" من الاحتلال الصليبي . بعد أسرٍ طال مائة وخمس وثمانين سنة . لكنه على الأثر اتخذ أغرب قرار يمكن تصوّره في هذه المناسبة البهيجة ، قضى بهدم المدينة العظيمة . فهُدمت وسُويّت أسوارها وأبنيتها بالأرض[10] . وفي السنة 690 هـ / 1291 م حُررت "صور" وكان مصيرها مصير "طرابلس" . والحُجّة التي تُقال في تسويغ هذا العمل المُستهجَن ، أنهما هُدمتا خشية عودة الصليبيين إلى الاستيلاء عليهما والتحصّن بهما [11]. لكن هذه الحُجّة الباردة تطرح

---

(10) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ط . بيروت ، دار الكتب العلميّة 1418 هـ / 1988 م : 2 / 212 . وسعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ط. القاهرة 1963 : 2 / 1175 .

(11) انظر : القلقشندي: صُبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ط. مصر ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، لات . حيث يقول واصفاً " صور" بقوله : " وكانت من أحصن الحصون التي على ساحل البحر . فلمّا فتحها المسلمون في سنة تسعين وتسعماية مع عكا خرّبوها خوفاً من أن يتحصّن بها العدو " .

سؤالاً كبيراً هو: لماذا لم يُتخذ قرارٌ كهذا بالنسبة لـ "بيروت" و"عكّا" وهما مَدينتان على الساحل نفسه ، حُررتا في زمنين متقاربين جداً من تحرير"طرابلس" و "صور" ؟ أضِفْ إلى ذلك أنه لو ان السلطة المملوكيّة كانت حقاً قلقة من احتمال عودة الصليبيين إلى محاولة استعادة المدينة ، لكان عليها أن تعمدَ إلى تحصينها وتزويدها بالسلاح والمقاتلين والأقوات ، كما تقضي أبسط تكتيكات الدفاع في ذلك الأوان . إن النتيجة المباشرة ، من وجهة نظرٍ تكتيكيّة ، لهدمها هو حرمان المنطقة كلها من مركز دفاعي أثبت فاعليته منذ ما قبل الفتح الإسلامي [12] . وإلا فلماذا يبني المدافعون الحصونَ والقلاع ويرفعون الأسوار؟!

أغلبُ الظن أن السبب الحقيقي لهدم المدينتين لم يكن الخشية من عودة الصليبيين إلى احتلالها ، فالحقيقة التي يعرفها المؤرخون أن الحركة الصليبيّة كانت في ذلك الأوان قد أصبحت جزءاً من الماضي . ولم يعُدْ من المتوقع أن تكون قادرةً على أخذ مبادرات بحجم انتزاع مدينتين بأهميّة "طرابلس" و "صور" من القوّة المملوكيّة التي كانت آنذاك في عزّ سطوتها. من هنا فإننا نُرجّح بقوّةٍ أن الغرض الحقيقي كان منع عودة سكانهما الأصليين إليهما . وهم الذين عرفنا ممّا فات قبل قليل أنهم بعد أن هُجّروا منها قد لجأوا إلى الجبال المجاورة . وكانوا لا يزالون حتى تاريخ تحريرها يُقيمون فيها . وسيكون من المتوقّع جداً أن هؤلاء عندما يرون مدينتهما السليبتين قد تحرّرتا ، وفرغتا من سكانهما الغرباء ، أن يسارعوا إلى العودة إليهما . وحتى مع فرض أن ذاكرة هؤلاء لم تعد متعلّقة بوطنهم القديم . فإن مجرّد الفراغ السكاني للمدينتين سيكون بنفسه حافزاً كافياً لهم للانتقال إليها . خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أنهم كانوا أكبر التجمّعات السكانيّة بجوارهما . وأن منازلهم الحاليّة كانت مناطق جبليّة وعرة شحيحة ، لا تُقاس بـ "طرابلس" و" صور" بريفهما المعروف بخصوبته . لكل ذلك فإننا نذهب إلى القول ،

---

(12) أنظر المصدر السابق حيث يقول : " وكان عرض سورها يمرّ عليه ثلاثة فرسان بالخيل " .

إن هدم المدينتين يندرج في سياسة معمول بها لدى السلطة المملوكيّة ، تقضي بالحيلولة بين الشيعة وبين أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من انتشار فاعل في المنطقة قبل الغزوات الصليبيّة . خصوصاً في الأماكن ذات القيمة الاستراتيجيّة . ومنها مدينتا "طرابلس" و"صور" . وسنرى تواً أنها قد تابعت هذه السياسة بأمانة . وسيكون ملعبُها التالي منطقة غير بعيدة .

(3) نكبة كسروان وأعمال ابن تيميّة . في السنة 691 هـ / 1291 م ، أي بعد أربع سنوات من تحرير "طرابلس" وسنة واحدة من تحرير "صور" وهدمهما ، حصل أولُ تحرّش من السلطة المملوكيّة بأهل "كسروان" . فـ "**خرج الأمير بدر الدين بيدرا، نائب السلطنة بديار مصر ، ومعه معظم العسكر إلى جبال كسروان ، من جهة الساحل . فلقيهم أهل الجبال . وعاد بيدرا شبه المهزوم . واضطرب العسكرُ اضطراباً عظيماً**"[13]. والمصادر لا تقول شيئاً على علّة وسبب هذا العمل العسكري الكبير . ممّا سنرى صنائع السلطة وألسنتها تتفنّن فيه بعد قليل ، أعني بعد سقوط "كسروان" في الحملة التالية ، ابتغاء تبرير ما ارتكبوه فيها من فظائع . مع أنه ينطوي على تحوّل أساسي في العقيدة العسكريّة للماليك . فهؤلاء منذ مؤسّس دولتهم بيبرس البندقداري (حكم : 658 . 676 هـ / 1259 . 1277 م) قدّموا أنفسهم عمليّاً بوصفهم مدافعين عن حوبة الإسلام ، في وجه الغزو المغولي بانتصارهم الباهر في معركة "عين جالوت" ، ثم في وجه الاحتلال الصليبي بما حرّروه من أراضٍ ومُدُن . حيث لم يفعل غيرهم غير الفشل والخذلان والهوان . وبذلك نجحوا في الارتقاء بأنفسهم من مماليك أرقّاء إلى سلاطين وأمراء . وغدوا طبقة عسكريّة تقبض على كل مفاصل السلطة والثروة . أمّا الآن فهاهم يوجّهون "**معظم العسكر**" إلى بقعة من "دارالإسلام" عُمّارها مُسلمون . ومع ذلك فإنه ما من أحد كلّف نفسه عناء تقديم أي تبرير لهـذا . ليس لدينا أي أوهام حول طبائع الحكم

---

(13) نفسه : 2 / 234 .

المملوكي بحيث نطالبه بالشفافيّة وتقديم الحساب للناس عمّا يفعل وما لا يفعل . فنحن نعرف جيداً أنه حكم عسكريين مُحترفين ، قام على السيف والسطوة والغلَبَة . لكننا نُجري ضمناً مُقارنةً ذهنيّة بالضجيج الكبير الذي سنسمعه بعد قليل، ابتغاء تقديم التبريرات ، التي لا دليل عليها إلا من فم قائلها ، للاجتياح الوحشي للمنطقة . ومن المقارنة نخرج بسؤال خلاصته : لماذا سكتوا عن تبرير المحاولة الأولى الفاشلة ، في حين حشدوا كل ما عندهم من حُجج في المحاولة التالية التي انتهت بالاجتياح ، مع أن موضوعهما في الحالتين واحد ؟

نعتقد أن السرّ يكمن في الأعمال البالغة الوحشيّة التي ارتكبها التحالف العسكري الذي تولّى (فتح) "كسروان" . وبعضها ممّا لا يحلّ حتى في دار الحرب . ممّا أدّى إلى استنكار رأس السلطة في "القاهرة "، أي السلطان . وسنقف على ذلك فيما سيأتي إن شاء الله . وعلينا الآن أن نصِف الأعمال العسكريّة التي جرت بين التحالف الغازي وبين أهل الجبل .

تألّف التحالف الغازي من ثلاث مجموعات :

ــ الأولى : جيش السّلطة ، أي العسكر المملوكي . بقيادة والي " الشام " بنفسه جمال الدين أقوش الأفرم الجركسي ، الذي "**كتب إلى نوّاب طرابلس وصفد وغيرهما فجمعوا العساكر وأحاطوا بالجبل من كل ناحية إلى أن كسرهم** " [14] .

ــ الثانية : جمع بني بُحتُر ، أمراء الغرب ، أي غرب "بيروت" . يقودهم الأمير ناصر الدين الحسين . " **وفي أيام ناصر الدين ، في أوائل المحرم سنة خمس وسبعمائة كان فتوح كسروان . فقصد الجبل ومعه أقاربه وجمعه . فقُتل منهم الأمير نجم الدين محمد وأخوه شهاب الدين أحمد ، ولدا الأمير جمال الدين حجّي ، في نهار الخميس خامس شهر محرم بقرية نيبيّة من كسروان . وقُتل معهم من أهل الغرب ثلاثة وعشرون نفراً** " [15].

---

(14) العسقلاني : الدرر الكامنة ، ط. مصر ، دار الكتب الحديثة ، لات : 1 / 425 .

ـ الثالثة : جموعٌ غير معروفة العدد من الناس ، الذين نجح ابن تيميّة في حشدهم تحت مختلف الذرائع . وسنُحلّل رسالته إلى السلطان المملوكي إن شاء الله . ولكننا نُشير الآن إلى أنه كانت له راية خاصة به حملها أحد أصحابه . ممّا يُفهم منه أن تلك الجموع لم تكن قليلة العدد . وأنها كانت طليعة مَن توجهوا إلى القتال [16] .

من هذا نعرف أن الحشد الهائل الذي اتجه إلى المعركة كان حشداً غير مسبوق في نزاع داخلي ، أي ضد فريق من السكّان المحليين . ولنُضِف إلى هذه الملاحظة أن تلك الجموع تُمثّلُ مجموعةَ إراداتٍ وحوافز ، التقت وتقاطعت عند نقطة واحدة ، هي القضاء نهائياً على الوجود الشيعي في " كسروان " وما والاها . وهي :

ـ السُلطة، التي أشرنا قبل قليل إلى سياستها القاضية بمنع الشيعة من الاستفادة من إنهاء الإمارات الصليبيّة، والعودة إلى ما كانوا عليه قبل الغزوات الصليبيّة . وبقاؤهم في تلك المنطقة المُشرفة على قطاعٍ واسع من الساحل ، يؤهّلهم لانتشار واسع يصعُبُ

---

(15) صالح بن يحي : تاريخ بيروت ، ط . دار الفكر الحديث 1990 م / 57 ـ 58 .

وقد تجاهل صديقنا الأستاذ نايل أبو شقرا ، وهو يكافح من أجل (إثبات) (!) أن سكان " كسروان " كانوا آنذاك من قومه الدروز ، كلَّ ما يتصل بهذا السياق من كتاب ابن يحي ، لأنه ، فيما يبدو ، يعني ، بالنسبة إلى ما ذهب إليه ، أن الدروز قاتلوا أبناء جِلدتهم .

انظر كتابه : تاريخ لبنان أزمة نص ومصطلَح وهُوية ، ط . بيروت 2004 / 113 ـ 199 .

(16) محمد بن أحمد بن عبد الهادي : العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة ، ط. القاهرة ، مطبعة حجازي 1356 هـ / 1938 م / 181 ـ 82 . قال : " وكان توجّه الشيخ تقي الدين رضي الله عنه إلى الكسروانيين في مستهل ذي الحجة من سنة أربع وسبعمائة وصحبته الأمير قراقوش . وتوجّه نائب السلطنة الأمير جمال الدين الأفرم [.....] في ثاني شهر المحرم من سنة خمس وسبعمائة " .

إيقافه . هذا فضلاً عن رغبتها في الثأر لهزيمتها السابقة في " كسروان " قبل خمس عشرة سنة .

ــ بنو بُحتُر، أمراء غرب "بيروت" ، الذين كانوا بوصفهم إقطاعيين يتناولون إقطاعاتهم من السُلطة ، مُلزمين بتقديم خدمات قتاليّة إليها عند الحاجة . ولكن من المصادر ما يُشير إلى أنهم كانوا أيضاً لديهم حافز ذاتي ، هو نزاعهم السياسي مع الكسروانيين [17] .

ــ ابن تيميّة ، وهو الفقيه الذي عُرف بعنفه البالغ . بحيث صرف أكثر جهده إلى إغاظة الشيعة خصوصاً ، إلى حدّ تكفير الإمام علي عليه السلام إذ قال: " **أبو بكر أسلم شيخاً يدري ما يقول . وعلي أسلم صبيّاً . والصبي لا يصحّ إسلامه** " [18] دون أن يلتفت إلى أنه بكلامه هذا كان يخطّئ النبي صلوات الله عليه وآله إذ قَبِلَ إسلامه . وفي هذا ومثله ما دعا المؤرخ وكاتب السيرة المُعاصر له صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي إلى القول : " **ضيّع الزمان في ردّه على الرافضة** [19]. وإذا نحن اتخذنا من رسالته إلى السُلطان أنموذجاً في "**ردّه على الرافضة**" ، فإننا سنرى أن الرجل كان يردّ على أوهامه واختلاقاته هو . المهم الآن أنه وجد في مُجمل أحداث وقعت ابتداءً من محاولة السلطة الأولى الفاشلة اجتياح "كسروان" فرصته التاريخيّة للتعبير عملياً تعبيراً موازياً . فسار فيه حتى النهاية .

مهما يكن ، فإن تلك الجموع الكبيرة أحاطت بالجبل من كل ناحية ، وبدأت الصعود إليه من جهة الساحل الذي سُمّي فيما بعد "الفتوح" ، قرب بلدة "طبرجا" اليوم . في حين أن عسكر نائب "طرابلس" بدأ الصعود من محل آخر لم تُعيّنه المصادر . ولكن الخطّة

---

(17) تاريخ لبنان أزمة نص ومصطلح وهويّة / 162 .

(18) أحمد بن حجر العسقلاني:الدرر الكامنة ، ط. مصر ، دار الكتب الحديثة ، لات : 1 / 195 .

(19) خليل بن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر ، تحقيق علي أبو زيد وآخرون ، ط. دار الفكر 1418 هـ / 1998 م : 1 / 236 .

كانت ، فيما يبدو ، وَضْعَ المدافعين عن الجبل بين فكّي كمّاشة .

لسنا نملك معلومات كافية عن سير القتال . ولكن المؤرخ أحمد بن علي المقريزي يقول إن عدد المقاتلين من أهل الجبل في الحملة الأولى بلغ "**نحو اثني عشر ألف رامٍ** " [20]. ونفهم من ذلك أن المُدافعين اعتمدوا سلاح السّهام . وهو سلاحٌ يناسب الطبيعة الجبليّة ، بما فيها من مكامن طبيعيّة ، والكثرة الطاغية للمهاجمين . ومن المُرجّح والمفهوم أن يتّبعوا التكتيك الدفاعي نفسه في هذه الحملة ، مادام قد أثبت فاعليّته في تلك . وقد دارت المعارك لمدّة خمسة عشر يوما ، بين 2 و17 مُحرّم [21] . كان المُدافعون يتراجعون أثناءها من موقع إلى موقع . وكانت المعركة الأخيرة في قرية "نيبيّة" [22]. وهي قرية في "المتن " الشمالي ماتزال معروفة بالاسم نفسه [23]، حيث لجأ المُدافعون المُنهَكون إلى مغارة كبيرة [24] . والنقولات الشفويّة المُتداولَة حتى اليوم تقول، أن المهاجمين لجأوا ، بمن معهم من النساء والأطفال ، إلى مغارة . فما كان من المهاجمين، الذين يبدو أنهم كانوا يتهيّبون دخولها ، خشية التعرّض لسهام المدافعين وكمائنهم ، إلا أن عمدوا إلى تقطيع كميّة كبيرة من الزروع والأشجار ، أشعلوها عند فم المغارة. فقضى كل مَن فيها اختناقاً بالدخان . والظاهر أنه بسبب هذا العمل الهمجي وصف ابن يحي هذه الوقعة بأنها كانت "**وقعة رديّة**" [25]. وسنرى بعد قليل ابن تيميّة

---

(20) السلوك : 2 / 331 .

(21) العقود الدريّة / 182 .

(22) ابن يحي : تاريخ بيروت / 58 . هنا : " نبيه " .

(23) انظر : طوني مفرج : قرى ومدن لبنان ، ضمن " الموسوعة اللبنانيّة " ، ط . نوبيليس 2002 / 38 / 182 . 83 .

(24) يصِف المصدر أعلاه مغارة كبيرة جـداً بجوار القرية ، ربما كانت هي التي ذكرها ابن يحي بقوله : " وكانت هناك مغارة اجتمعوا فيها بعد القتال " . تاريخ بيروت / 58 .

(25) تاريخ بيروت / 58 .

يُدافع عن مشروعيّة تقطيع الزروع والأشجار في دار الحرب ، دون أن يُشير إلى ما كان الغرض الحقيقي منه . والظاهر أن المُهاجمين اتبعوا هذا الأسلوب حيثما لجأ السكان إلى المغاور والكهوف ، وهي كثيرة في تلك الجبال .

أذكرُ بالمناسَبة أنّه قبل نحو الخمس وعشرين سنة عثرَ أحدُ هُواة اكتشاف المغاور ، من أعضاء "الجمعيّة اللبنانيّة للأبحاث الجوفيّة " ، في إحدى المغاور القريبة من المنطقة ، على عدّة جثث ، ما تزال هي وما عليها من ملابس محفوظة بشكل جيّد يدعو إلى الدهشة . وقد عرفتُ بمجرّد سماعي الخبر أن هؤلاء من ضحايا معركة "كسروان" . وذلك ، أولاً ، لأن وضع الجثث بهيئتها وما عليها من ملابس ليس وضع دفن شعائري . ممّا يدلّ على أنها بقيت حيث ماتت . وثانياً ، لأن تعرّضها لدخان كثيف يُفسّر حفظها لمدّة قرون على هذا النحو المُدهش . فالمعروف أن الدخان هو من أفضل أساليب الحفظ للموادّ العُضويّة . وقد أعلن وزير السياحة آنذاك الخبر على الملأ في مؤتمر صحفي [26] .

وإدراكاً مني لأهميّة هذا الكشف ، خصوصاً وأن عدّة كُتُب قد وُجدت إلى جانب الجثث . قد تكون الآثار الفكريّة الوحيدة الباقية من ماضي "كسروان" ، ما قبل النكبة . قابلتُ الوزير ومدير المتحف الوطني ، حيث حُفظتْ اللُّقى . طالباً الاطلاع على الكتب ، ولو من بعيد . ولكن كل مساعيّ في هذا السبيل لم تصِل إلى نتيجة . وبعد الإلحاح ومراجعة عدد من كبار المسؤولين ، صارحني الوزير بأن هذه اللّقى هي مسألةٌ سياسيّةٌ بامتياز ، ليس له أن يقضي فيها من عنده . ولسنا نعرف شيئاً عن مصير تلك الكتب بالخصوص .

بعد هذا الخروج على عمود البحث . الذي ألجأنا إليه اعتقادُنا بضرورة تسجيل هذه المعلومة ، كي لا تضيع و تُنسى ، نعود إلى ما كُنّا فيه .

---

(26) صحيفة " السفير" اللبنانيّة عدد 25 أيلول 1988 .

في نهاية هذا المطاف الدامي استُبيحت المنطقة الجبليّة الممتدّة بموازاة الساحل اللبناني ، من مصب "نهر الكلب" جنوباً حتى " البترون" شمالاً (أي ما يُعرف اليوم بـ "كسروان" و "جبيل" و "المتن") . فقُتل مَن قتلوا ، وهم كثيرون من الرجال والنساء والأطفال . "**والسالم منهم تفرّقوا في جزّين وبلادها و** "**البقاع وبلاد بعلبك. و**" **منحت الدولة لبعضهم الأمان**".أي سُمح لهم بالبقاء في بلادهم ، مقابل إعلان الطاعة للسُلطة . حيث ما يزال أخلافُهم حتى اليوم .

لكننا لن نغادر هذا العرض التاريخي لنكبة " كسروان " دون أن نقف على أعمال ابن تيميّة في هذا النطاق . بمراجعة رسالته إلى السلطان المملوكي الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون مراجعة نقديّة تحليليّة . وذلك لسببين :

ـ الأول : إن هذه الرسالة هي الوثيقة الوحيدة المُتعلّقة مباشرةً بذلك الحدث المهول . دون أن يعني هذا أننا سنأخذ بما فيها . بل إننا سنرى أنها مليئة بكلّ ما يخطُرُ بالبال من صنوف الكذب والبهتان والتضليل . إن للكلام الكاذب أحياناً دلالته أيضاً . وخصوصاً أنها ، على أهميتها الفائقة ، لم تكن حتى تاريخه ، فيما نعلم ، موضع دراسة دقيقة [27] .

---

(27) نشر قسماً منها د. عمر عبد السلام التدمري في مجلة (الفكر الإسلامي) التي كانت تصدر عن دار الإفتاء في " بيروت " ، العدد السادس من السنة السابعة حزيران 1978 . بما فُهم منه أنه يأخذ بما فيها بوصفه مؤرخاً ، الأمر الذي أثار ردود فعل عنيفة في حينه . وقد ردّ عليه صديقُنا المرحوم الدكتور محمد علي مكي بمقالة حملت عنوان (تاريخ لبنان الإسلامي ، نظرة تصويب) ، نشرها في المجلة نفسها العدد الثامن من السنة السابعة . وأوفى نص لها في كتاب تلميذ كاتبها محمد بن أحمد بن عبد الهادي : العقود الدريّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة ، ط. القاهرة ، مطبعة حجازي 1356 هـ / 1938 / 182 ـ 94 . وعنه اقتبسنا نصها الكامل الذي يجده القارئ في مُلحق بهذا الكتاب . مع الإشارة إلى أن نشرة مجلّة الفكر الإسلامي من الكتاب نفسه قد تصرّف صاحبها بالنص ، فحذف منه ما يُثير النعرات المذهبيّة .

ـ الثاني: إن ابن تيميّة هو الفقيه الذي قدّم للسُلطة الغطاء الشّرعي ، فأباح لها ، بل ، إذا أخذنا بعين الاعتبار خطابه ، ألزمها إلزاماً بما ارتكبت . ومن دون ذلك لكان من المشكوك فيه كثيراً ، أن تُقدم على حشْـد كل القوّة العسكريّة المتوفّرة في المنطقة الشاميّة ، في سبيل عمل قتالي واسع ضد مسلمين يسكنون دار الإسلام . لأنها بذلك ستضرب في الصميم عقيدتها العسكريّة ، بوصفها وبوصفهم قوّة تحرير ودفاع ، التي نالت على أساسها السُلطة .

لكن علينا ، قبل معالجة نص الرسالة ، أن نُجيب على سؤالين ، يتعلّق أولهما بتاريخها ، ويتعلّق الثاني بالغرض منها .

أ . في تاريخ رسالته إلى السلطان . الرسالة ، كما رواها ابن عبد الهادي ، غير مؤرّخة . والظاهر أنها كانت كذلك في الأصل . ولكنه قال في العنوان الذي وضعه لها : " **ثم أن الشيخ رحمه الله بعد وقعة جبل كسروان أرسل رسالة إلى السلطان** " ، دون تحديد "**بعد**" بكم ؟ . ولكننا نفهم من بعض نصها أن هذا الـ " **بعد**" كان مدّة غير قصيرة . فهو يذكر في خواتيمها التركمان ، الذين أُسكنوا في"كسروان" ، ابتغاء ملء الفراغ السكاني ، بعد إجلاء مَن نجا من المذبحة ، قائلاً : " **وقد صارت لهم الآن مرعى** " [28] . فنحن نعرف من مصدر آخَر أن تأمير عدد من الأمراء وإقطاعهم " **جبال الجرديين والكسروانيين** " قد حصل بتاريخ 18 جمادى الأولى [29] ، أي بعد أربعة أشـهر من انتهاء العمليّات في الجبل ، من تقتيل وتهجير . لا بد من نُضيف عليها عــدّة

---

(28) العقود الدريّة / 191 .

(29) موسى بن محمد اليونيني (ت : 726 هـ / 1326 م : ذيل مرآة الزمان ، مخطوطتنا (وهي نسخة عن مخطوطة " سوهاج " المحفوظ أصلها في " معهد المخطوطات " التابع لجامعة الدول العربيّة) ، حوادث السنة 705 هـ . قال : " وفيها يوم الإثنين ثامن عشر جمادى الأولى أمّروا جماعة بدمشق وأُقطعوا جبال الجرديين والكسروانيين . [........] ثم بعد ذلك توجهوا لأجل عمارة الجبل وحفظ مينا البحر من جهة بيروت وتلك النواحي " .

أشهر أخرى ، بحيث يستقرّون ويصحّ فيهم قول ابن تيميّة " **صارت لهم الآن مرعى** " . نخلص من هذا التدقيق إلى أن الرسالة كُتبت بعد ما لا يقلّ عن الستة أو السبعة أشهر من الوقعة . هذه النتيجة تُعزّز أهميّة ، بل ضرورة ، السؤال الثاني .

ب . غرضه منها . مراجعةٌ نقديّة . يفتتحُ الرسالةَ كاتبُها بمقدّمة طويلة ، وكأنه أراد منها بُشرى السلطان بفتح عظيم " **صدق الله وعده . ونصر عبده . وأعزّ جنده . وهزم الأحزاب وحده** " [30]. هذا تدليسٌ مكشوفٌ ، لا يمكن قبوله إلا إذا قبلنا أن هذا السلطان كان بحاجة ، بعد عدّة أشهر ، لمن يُبشّره . وكأنه لم يعرف ما جرى . ولكننا إذ نتمعّن فيما بقي من تلك المقدمة نكتشف بسرعة أن المقصود الحقيقي كان تقديم ما يُشبه رشوة : " **أنعم الله على السلطان وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تُعهد في القرون الخالية . وجُدّد الإسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية** ". و " **حصل للأمّة بيُمن ولايته ، وبركة إيمانه ومعرفته [.......] ما هو شبيه بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين** " [30] **إلى** غير ذلك من الأوصاف العريضة ، التي كانت ، ولا ريب ، مبعث رضى السلطان . ولكننا نراها تطرح سؤالاً كبيراً عن علّة هذا النفاق . إذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن ما بقي من الرسالة هو بمثابة مطالعة ، دافع فيها دفاع المُستميت عن كل ما ذكره ممّا جرى ، سيكون من السهل أن نصل إلى جواب . هو أن الغرض الأول من هذه الرسالة هو في الحقيقة علاج الآثار المتماديّة التي تركها ما ارتُكب في "كسروان" من صنوف العدوان، وخصوصاً تقتيل المدنيين ، بمَن فيهم من نساء وأطفال . ولو ان الأمر كان مُجرّد تهنئة السلطان ، أو حثّه على متابعة هذا النهج التطهيري ضد الشيعة في المنطقة الشاميّة ، كما نقرأه في خواتيم الرسالة ، لَما تلبّث مدّة ستة أو سبعة أشهر، هي المدّة الفاصلة بين انتهاء العمليّات العسكريّة، وبين تاريخ

---

(30) العقود الدريّة / 183.

تحرير الرسالة ، كما عرفنا ممّا فات . بل إن مبادرتَه إلى ذلك ، بعد تلك المُدّة ، لدليل قوي على أن تداعيات "كسروان" كانت ما تزال تتفاعل ، وأنّ الاتهام كــان موجّهاً إلى ابن تيميّة بالذات وإلى العسكر الذي حرّضه وجمعه " **وكتب إلى أطراف الشام في الحـثّ على قتال المذكورين [يعني : أهل كسـروان] وهم الذين بغوا وخرجـوا علـى الإمام** " [31]. ثم كان وكانوا أولَ مَـن جمع الجموع على أطراف الجبل ومداخله . وربما ، بل الظاهر ، أنهم هم الذين ارتكبوا ما ذكرناه من أفعال شنيعة .

من بعدُ تمضي الرسالة في تعداد المُبرّرات والمُسوّغات التي أباحت له ما فعل . بل جعلت منه ، بزعمه ، أمراً لازما وواجباً شرعياً . ولكننا قبل الدخول في تبيان تلك المُبرّرات ، علينا أن نُشير إلى أنه تجاهل أمرين :

ـ الأول : أن السلطة وعسكرها هم الذين بدأوا التحرّش بأهل " كسروان " ، دونما أي سبب مُعلَن . وذلك في الحملة الفاشلة التي قادها من قبلُ الأمير(بيدرا) سنة 691 هـ / 1291 م ، كما ذكرنا فيما سبق .

ـ الثاني : أنه لم يُشِر إطلاقاً إلى قتل المئات ، وربما الألوف ، من النساء والأطفال ، الذين لجأوا ، في نهاية المعارك ، إلى مغارة "نيبيّه" وغيرها من المغاور والكهوف الكثيرة في الجبل ، فقُتلوا بالدخان . ونحن نفهم جيداً سبب هذا التجاهل . هي ذي جريمة جماعيّة رهيبة ، لا يمكن لأحد ، مهما بلغ من البراعة ، أن يجدَ لها مُبرّراً .

بنظرة عامّة ، فإن ابن تيميّة هنا ينصبُ نفسَه مدافعاً وحيداً عن الإسلام ، كما يفهمه هو ، ومُدافعاً عن المسلمين ، كما يقبلهم ويُعرّفهم . ويحصرُ الحقَّ والصوابَ فيما يراه . دون أن يعرض إطلاقاً لوجهة نظر الآخَر. بحيث ينتهي إلى أن مُجرّد الاختلاف معه هو ، بنفسه ، سببٌ كافٍ للحكم على مُخالفه بالكفر واستحلال الدم . وسنرى ذلك بكامل الجلاء فيما يلي .

---

(31) نفسه / 179 .

يمكن قسمة الذرائع التي يعرضها لاستباحة الجبل وتقتيل أهله وتهجيرهم إلى قسمين ، دينيّة . اعتقادية وشرعيّة ، وسياسيّة . سلوكيّة .

ـ القسم الأول : قال :

" **لأن عندهم أن كل مَن لم يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مُرتدّ . ومَن استحلّ الفُقّاع فهو كافر . ومَن مسح على الخُفّين فهو عندهم كافر . ومَن حرّم المُتعة فهو عندهم كافر . ومَن أحبّ أبا بكر أو عمر أو عثمان ، أو ترضّى عنهم أو عن جماهير الصحابة فهو عندهم كافر . ومَن لم يؤمن بمُنتظَرهم فهو عندهم كافر** " .

" **وعندهم مَن قال إن الله يُرى في الآخرة فهو كافر . ومَن قال إن الله تكلّم بالقرآن حقيقة فهو كافر. ومَن قال إن الله فوق السماوات فهو كافر. ومَن آمن بالقضاء والقدَر، وقال إن الله يهدي مَن يشاء ويُضلّ مَن يشاء، وأن الله يُقلّب قلوب عباده، وأن الله خالق كل شئ [** حتى أفعال العباد **] فهو عندهم كافر . وعندهم أن مَن آمن بحقيقة أسماء الله وصفاته ، التي أخبر بها في كتابه وعلى لسان رسوله ، فهو عندهم كافر** " [32] .

هذه كلّها مسائل كلاميّة وفقهيّة موضع خلاف معروف بين مذاهب المسلمين. ومنهم ، وهم أقليّة نسبياً بالنسبة لأكثر تلك المسائل ، مَن يوافقُ ابنَ تيميّة ومنهج أهل الحديث عموماً . ومنهم مَن يختلف معه . وهؤلاء تجِدهُم في غير فرقة ومذهب . ومن المؤكّد أن الرجل كان يعرف ذلك جيداً . كما أن من المؤكّد أن ليس بين الشيعة إطلاقاً مَن يُفتي بأن القائل بما يذهب إليه ابن تيميّة فيها هو كافر خارج عن ملّة الإسلام . وما من ريب في أنه كان يعرف ذلك أيضاً . ولكننا نراه يندفع بالقول ، غير مُراقب ذمّة العالِم والعلم ، ليُبرئ نفسه ممّا جنته يداه . والمعروف أنه هو الذي فتح باب تكفير مَن

---

(32) نفسه / 185 - 86 .

يختلف معه من أهل القبلة على أوسع نطاق . وما تزال أفكاره هذه مُنتشرة معمولاً بها في بعض المذاهب .

ـ القسم الثاني :

" **هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جَنكسخان إلى بلاد الإسلام ، وفي استيلاء هولاكو على بغداد ، وفي قدومه إلى حلب ، وفي نهب الصالحيّة ، وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام** " [33] .

من الصعب أن يقع المرء على نص ، صدر عن شخص يُفترض أنه من أهل العلم ، ومع ذلك يكون مُحتوياً على هذا القدر من الجهل والبهتان والتعصّب وسوء التفكير .

لقد خرج المُغول ، وهم سكان "منغوليا" وما والاها، بعد أن بعثهم ونظّمهم جنكيز خان (603 ـ 625 هـ / 1206 ـ 1227 م) ، فاجتاحوا "آسيا " شرقاً وغرباً ، وأسّسوا إمبراطوريّة واسعة . هذه معلومات نعذر ابن تيميّة في عدم معرفته لها . ولكننا لا نجد أدنى عذر له في هذا التفسير البالغ السّخف لاجتياحهم القسم الأكبر من العالم الإسلامي فيما اجتاحوه . اللهم إلا في غرامه المكشوف الذي لامثيل له بأهل السلطة ، بحيث أننا لا نجد له في كل ما كتبه ، وهو كثير ، أي مأخذ عليهم . وهم الذين كانت أشكال النزاع والصراعات الداخليّة فيما بينهم ، وتهاونهم في الإعداد للدفاع عن دار الإسلام ، رغم النُذُر الواضحة ، في رأس أسباب عجزهم عن التصدّي ، فسقطوا الواحد تلو الآخَر دون أن يجدوا مَن يبكي عليهم .

وجدير بالذكر ، أن تلميذ ابن تيميّة وكاتب سيرته ، ابن عبد الهادي ، قد تابع منهج شيخه هذا ، إذ كتب في السياق نفسه يقول :

---

(33) أيضاً / 185 .

" **لأن جبل الصالحيّة ، لمّا استولت الرافضة عليه ، في حال استيلاء الطاغية قازان [** سنة 699 هـ / 1299 م] **أشار بعض كُبرائهم بنهب الجبل ، وسبي أهله وقتلهم [.....] فكوفئ الرافضة بمثل ذلك** [يعني في كسروان] **كبيرٌ من كُبراء أهل السنّة وزناً بوزن**" [34] .

والحقيقة أننا لم نفهم ماذا أراد بقوله "**لمّا استولت الرافضة عليه**" ، ومَن هم هؤلاء "**الرافضة**". ولم نقع فيما كتبه المؤرخون عن وقعة قازان على شئ من هذا القبيل. وعلى كل حال فكاتب هذا الكلام هو إنسان في حاجة ماسّة إلى جُرعة من حسّ العدالة . علّها تُحرّره من أفكار شيخه المريضة . وتساعده على التمييز بين المُذنب وغيره . فلا يُبرّر إيقاع عقاب على برئ بجريرة غيره ، بمجرّد أنه من مذهبه .

والرسالةُ تمضي على هذا النحو . ولن نُضيّع جهداً أكبر في مناقشة وكشْف ما بقي من خبيئها .

خلاصة القول، إن الرسالة كانت مُطالعةً سقيمة، حشوها الجهل والتجاهُل والمخادعة والبهتان. مُحرّكُها الوحيد هوالتعصّب الأعمى. رمى منها إلى تبرئة نفسه من جريمةٍ مهولة ماتزال تداعياتها تتفاعل حتى اليوم. وأظن أنها ستبقى كذلك إلى أمدٍ غير قصير.

لكننا قبل أن نغادر ابن تيميّة ودوره في هذا المُعترَك الدامي ، يحسُن بنا أن نُشير إلى النقطة الإيجابيّة الوحيدة في كل ما عرضه في رسالته . أعني ذكرَه أئمة الشيعة وفقهائهم في الجبل. ممّن ضاع ذكرهم نهائياً بعد ما جرى عليهم وعلى قومهم . ولولا هذه الإشارة منه ، لَما عرفنا وجودَهم أصلاً . . وذلك إذ قال :

" **هذا هو المذهب الذي تُلقنه لهم أئمتهم ، مثل بني العَـوْد . فإنهم شيوخ أهل هذا الجبل . وهم الذين يأمرونهم بقتال المسلمين ، ويُفتونهم بهذه**

---

(34) أيضاً / 180 .

الأمور . وقد حصل بيد المسلمين طائفة من كُتبهم تصنيف ابن العَوْد وغيره . وفيها هذا وأعظم منه . وهم اعترفوا لنا بأنهم الذين علّموهم وأمروهم " [35] .

ويؤخَذ من **قوله : " أئمتهم مثل بني العَوْد "** ، أنه كان في "كسروان" أو ما والاه أكثر من بيتٍ من بيوت العلم . كما يُؤخذُ من قوله : **"حصل بيد المسلمين طائفة من كُتبهم"** ، أنهم كانوا من أصحاب التصانيف . ممّا يدلّ على أنه كانت في "كسروان" قبل النكبة حياة عقليّة ، بدرجة أو بغيرها . وما ندري ما كان مصير أولئك جميعاً بعد أن ساقهم ابن تيميّة إلى " دمشق " . ولعلهم ، أو بعضهم ، استقرّ في "جزين" أو نطاقها . فقد كان فيها حتى أواسط القرن العاشر هـ/ السادس عشر م على الأقلّ . أسرة تحمل اسم (العَوْدي) ، منهم تلميذ الشهيد الثاني ، زين الدين بن علي الجباعي ، وكاتب سيرته ، محمد بن علي بن الحسن العوْدي الجزّيني (ح : 975 هـ / 1557 م) [36] . وحتى اليوم ما يزال في "جزين" و "بعلبك" أسرة تحمل الاسم نفسه .

وإكمالاً لتلك النتائج نذكر أن ابن تيميّة حكى أنه " **تجادل مع كبير من كُبراء أهل جبل كسروان [....] وكان الجدل والبحث في عصمة الإمام وعدم عصمته . وفي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه معصوم من الصغائر والكبائر في كل قول وفعل** " [37] . والظاهر أن هذا الـ " كبير " أحد أولئك الفقهاء .

(4) تداعيات النكبة . إن حدثاً هائلاً ، من حجم ما جرى في "كسروان" ، لا يمكن أن ينتهي حيث أرادت السلطة له أن ينتهي ، إذ قتلتْ مَن قتلتْ ، وهجّرتْ مَن هجّرتْ . ثم أسكنت محلّهم مَن ترضى عنه وتتوقّع أن يُرضيها .

---

(35) أيضاً 186 .

(36) كتابنا : جبل عامل بين الشهيدين ، ط. دمشق ، 2005 / 216 عن مصادره .

(37) العقود الدريّة / 181 .

لقد عملت هذه السُلطةُ المملوكيّةُ على اجتثاث أهل "كسروان" من التاريخ ، باجتثاثهم من الجغرافيا . وهذا أشبه ما يكون بضربةٍ استباقيّة ، تقطعُ الطريق على إمكانيّة أن يكون القضاء على الإمارتين الصليبيتيَن في "طرابلس" و "صور" ، وما لابُدّ أن ينشأ عنه من فراغ سُكّاني ، بمثابة هديّةٍ تُقدّم مجاناً إلى الشيعة في المنطقة . إذ يملأون الفراغَ الحاصلَ في المدينتين وما حولهما ، لأنهم وحدهم القادرون عمليّاً على ذلك ، بفضل سيطرتهم سُكانياً على البقعتين المجاورتين لهما بعد تحريرهما. وبذلك يرجعون إلى سابق عهدهم قبل الاجتياحات الصليبيّة . ذلك أمرٌ لا يمكن أن تتقبّله السُلطةُ المملوكيّة ، للسبب الذي سنُدلي به بعد قليل . ولذلك أقدمت على هدم المدينتين ، بذريعة أنها تريد أن تمنع الصليبيين من العودة إليهما . وتابعت هذه السياسة بإخراجهم من "كسروان" وما والاه . أمّا "بيروت" فلم يكن هناك أدنى خشية من سيطرة السكان الشيعة عليها . لأن الدروز يملأون التلال الغربيّة المُشرفة عليها. وسيتولون حتماً ملءَ الفراغ السُكاني الحاصل فيها بعد التحرير، كما حصل بالفعل. ولذلك فقد أُبقي عليها ولم تُهدَم .

تولّى ابن تيميّة ، كما عرفنا ، تعديل العقيدة العسكريّة للسلطة ، بحيث تتسع لعمل في معنى وحجم ما جرى ، تحت شعار " **رافضة** " ، "**خارجون على الإمام**" [38] مع مكمّلاته التي استعرضناها فيما فات . والحقيقة أن الأمر لم يكن أمر رافضة ولا مَن يرفضون الرافضة . بل كان سياسيّاً من بداياته النظريّة ، حتى نهايته العسكريّة العنيفة . لقد قامت السُلطة المملوكيّة ، كما نظّر لها مؤسسُ دولتهم الظاهر بيبرس الأول البندقداري (حكم : 657 . 676 هـ / 1258 . 1277 م) ، على مبدأ التفويض وخلاصتُهُ : (خليفة) يُبايَع مُبايعةً شكليّة ، ثم يُفوّض السُلطةَ بأكملها فوراً إلى أقـوى

---

(38) يتكرّر ورودُ هذا الشعار في نص ابن تيميّة والآخَر المتأثر به . انظر ، مثلاً : العقود الدريّة / 180 و 190 .

أُمراء العسكر المملوكي . أحياناً قبل أن يجفّ دم سلفه على سيفه . وبذلك يغدو حاكماً (شرعياً) . أي "**الإمام**" حسب ابن تيميّة ومَن يوافقه ، مَن يُخالفهُ حلالُ الدم . الدروز ليس عندهم أيّ مُشكلة في كل هذا النطاق . ذلك لأن عقيدتهم تأمرهم بأن يكونوا مع الأقوى . وما دام المماليك يقبضون على السُلطة فسيكونون معهم حتماً ، بصرف النظر عن أيّ اعتبار مفهومي . أمّا السُّنة ، بمختلف مذاهبهم ، فهم جاهزون أيضاً للقبول بالصيغة المملوكيّة ، وهم سيجدون حتماً في جعبتهم السياسيّة ، كما في تجاربهم التاريخيّة ، وَصْفةً تناسـبُ أيَّ وضعٍ ينشأُ من لعبة تبـدّل السُلطة على الطريقة المملوكيّة . وحدهم الشيعة الإماميّة لا يمكن أن يقبلوا بمنح الشّرعيّة للسُلطة المملوكيّة ، لأسباب معروفة ، لا نرى ضرورة لبسط الكلام عليها. وبالمقابل فإن السلطة لا يمكن أن تسمح لجماعة ، لا تُخفي أنها لا تعترف بها سُلطة شرعيّة ، بأن تُسيطر على منطقة ذات قيمة استراتيجيّة ذات امتياز ، مثل "كسروان" وما والاها .

من وجهة نظر عملانيّة ، فهم ، أي الشيعة ، كانوا وحدهم المؤهّلين ، بالنظر إلى عديدهم وموقعهم الجغرافي ، لملء الفراغ السُكاني الكبير الذي نشأ مع وبتحرير مدينتي "صور" و"طرابلس" . ولو ان السنّة أو الدروز كانوا من هذه الناحية قادرين على ملء الفراغ السكاني الكبير ، لحُلّت المعضلة حلاً سلميّاً ، ولَما استوجب الأمرُ إهراق الدماء وتهجير العباد . ولَما تجشّم ابن تيميّة كل هذا العناء في تدبيج الفتاوى والرسائل ، لتغطية الأسباب والمقاصد الحقيقيّة، تحت شعار حماية الإسلام من شرّ الروافض، وكأن جيوشهم الجرّارة تستعدّ للانقضاض على دار الإسلام. والاقتصاص منهم لذنوب لم توجد إلا في خياله .

هو ذا المأزق السياسي الذي شكّل الأساس والقاعدة للتحرّك العسكري الكبير ، الذي أداره عقيدياً ابن تيميّة ، وقتالياً التحالف الذي بينّا عناصره فيما فات .

في ظلّ هذه الشروط لم يبقَ إلا الحلّ الأكثر إيلاماً ، وهو إجراء عمليّـةٍ جراحيّة سُكانيّة كبرى ، بحيث تنتهي بتبديل الهُويّة المذهبية للمنطقة ، وربما المنطقتين

الإشكاليتين . الأمر الذي حاولته السُلطة بعد تحرير "طرابلس" مباشرةً ففشلت ، كما ذكرنا فيما فات ، لأنها استهانت بعزيمة أولئك "الجرديين" الأشدّاء . ثم نجحت في المحاولة الثانية ، التي حصلت بعد إعدادٍ طويل ومُعقّد إعلامياً وعسكرياً . وانتهت بتقتيل مَن قتلتهم وتهجير الناجين إلى مناطق داخليّة ، حيث سيكونون تحت المراقبة الدقيقة والمُحكمَة للسلطة وأجهزتها . وعلى الأثر عمدت إلى الخطوة المنطقيّة التالية والأخيرة . وهي جلب التركمان وإسكانهم المنطقة . وبذلك يكون هذا السيناريو المتعدّد الحلقات قد تمّ . وارتاح أصحابه إلى النتيجة التي حقّقتْ لهم كل ماهو مطلوب .

جدير بنا قبل أن ننقل الكلام إلى أولئك التركمان ، عُمّار "كسروان" الجُدُد ، وما جرى منهم وعليهم ، أن نُشير إلى أن ابن تيميّة ، وهو في نشوة (النصر) الزائف ، لم ينسَ الشطر التالي من الخطّة . فرأيناه يذكر " **أهل جِزّين وما حواليها ، وجبل عامل ونواحيه** " . مُطالباً السلطان " **بحسم مادة أهل الفساد** " [39]. وما ندري ، وأنّى لنا ، لماذا لم يفعل . ولكننا نظنّ ظنّاً ، أن أعمال الإبادة الوحشيّة التي حصلت في "كسروان" قد أنهت ، وربما عكست ، الأثر التسويغي الذي نشره ابن تيميّة . الأمر الذي ترك ما بقي من الخطّة المفترضَة مكشوفاً دون غطاء . ممّا أدّى إلى صَرْف النظر عنها نهائياً. وربما كانت هناك أسباب أخرى لا نعرفها . وعلى كل حال ، فإن علينا أن لا ننسى أننا في هذا التساؤل نحاول تفسير عدم حدوث ما لم يحدث . وهو من أصعب ما يحاوله المؤرخ . ويُشبهُ ، من بعض النواحي ، محاولة إصابة هدف في الظلام .

ملاحظة أخيرة ، يحسُن بنا الوقوف عندها ، قبل أن نُغادر هذه النقطة من البحث نهائياً. هي التبدّل الجذري الذي حصل لخطاب ابن تيميّة . فبعد أن كان متجهاً فكرياً وعملياً ، نحو منحىً تطهيري مُطلَق. كانت ترجمته الفعليّة أعماله في "كسروان" نراه في خواتيم رسالته إلى السلطان ينحو منحىً إصلاحياً ، أقرب بكثير إلى وظيفة

---

(39) العقود الدريّة / 185 و 192 على التوالي .

الفقيه . ذلك أنه بعد أن نادى هناك بضرورة إمساك "**رؤوسهم الـذين يُضلّونهم ، مثل بني العَوْد** " ، قال هنا : " **ويُتقدّم إلى قراهم ، وهي قرىً متعدّدة بأعمال دمشق وصفد وطرابلس وحماة وحمص وحلب ، بأن يُقام فيهم شرائع الإسلام والجمعة والجماعة وقراءة القرآن . ويكون لهم خطباء ومؤذنون كسائر قرى المسلمين**" [40]. هذا في المبدأ تفكيرٌ جيّد ، مالم يكن وسيلةً أخرى من وسائل القمع . خصوصاً إذا اتجه نحو التأسيس للتعارف والحوار ، الذي نعلم جيداً أن صاحبه كان أبعد ما يكون عنه . ولكننا هنا نتكلّم في المبدأ .

السؤال الذي يطرح نفسه هنا : أين كان هذا المنحى من قبل ؟ ولماذا لم يلجأ إليه قبل أن يرتكب ما ارتكب من عظائم تقشعرّ لها الأبدان ، ما تزال بعض آثارها الشريرة تتفاعل حتى اليوم ؟

وعلى كل حال ، هل هذا يعكس تبدّلاً في طريقة التفكيرعنده ؟ كلا بالتأكيد . فالرجل لم يغادر نزوعَه المشهور نحو أعنف الوسائل . بشهادة أنه قبل أسطر معدودات عاد إلى طبيعته ، فطالبَ صراحةً بـ "**حسم مادة أهل الفساد**" . وغنيٌ عن البيان أن حسمَ مادتهم أمر مختلف جداً عن **أن** "**يُقام فيهم شرائع الإسلام** " . الحقيقة أن التبدّل قد حصل بالفعل ، ولكن ليس في طريقة التفكير ، بل بانسداد الأفق السياسي بوجه الحلّ العنفي الأثير عنده . الأمر الذي يُعيدُنا إلى انعكاس الأثر التسويغي الذي نشره إعداداً لـ "كسروان " ، كما ذكرنا قبل قليل .

بقي علينا أن نعالج سؤالين ممّا تطرحه تلك الأحداث ، هما :

ــ الأول: من هم أولئك التركمان عُمّار "كسروان" الجُدُد ، ولماذا وقع الاختيار عليهم لملء الفراغ ؟

ــ الثاني : أين انتهى أولئك المُهجّرون ، سُكان " كسروان" الأصليين ؟

---

(40) نفسه / 192 .

جواباً على السؤال الأول نقول :

التركمان هم من الشعوب الكثيرة التي تتكلّم إحدى اللهجات التركيّة . مساكنُها الأصليّة ما يُعرف اليوم بـ "آسية الوسطى" . وعُرفت لدى البلدانيين المسلمين بـ " ما وراء النهر " وهي سـهوبٌ واسعةٌ ، كانت تسكنها قبائل رعويّة شديدة المراس ، ترتزقُ من تربية الأغنام . ومنذ أن انتشر الإسلام في نواحي "إيران" كانوا في نزاع دائم مع المسلمين ، طال مدّة ثلاث قرون تقريباً . وهم المعروفون في المصادر الإسلاميّة المعاصرة لتلك النزاعات باسم (التُرك) . ولكنهم وجدوا فرصتهم التاريخيّة عندما ضعُفَ شأنُ الخلافة ، وانصرفَ المسلمون إلى حياة الدِّعَة ، فدخلوا في الإسلام أفواجا ، وتغلغلوا في الجيوش الإسلاميّة ، وعن هذا الطريق قبضوا على ناصية السُلطة . وكان لهم شــأنٌ سياسي عظيـم . وهـؤلاء يُعرفـون في المصادر الإسلاميّة فيما بعـدُ باســم (السلاجقة) ، نسبةً إلى زعيمهم التاريخي (سلجوق) . ولكن شأن هؤلاء ضعُف كثيراً في التطورات السياسيّة المتلاحقة . وفي عصر البحث كانوا قد رجعوا إلى حجمهم الأصلي ، أي رُعاة أغنام [41]، تنتشر قبائلُهم في أنحاء الإمبراطوريّة المملوكيّة ، عــدا " مصر " . وغدت السُلطة للماليك ، الذين ترجع أصول عامّة قادتهم من سلاطين وأُمراء إلى بلاد " القبجاق " .

---

(41) نقول هذا حتى بعد اطلاعنا على نص اليونيني في (ذيل مرآة الزمان ، مخطوطتنا ، مصدر مذكور) حيث يقول : " وفي يوم الإثنين 18 جمادى الأولى أمّروا جماعة بدمشق وأقطعوهم جبال الجرديين والكسروانيين . وهم الأمير علاء الدين بن معبد البعلبكي ، وسيف الدين بُكتمر مملوك بدر الدين بكتاش ، استدار الملك المنصور حسام الدين لاجين ، وعز الدين خطاب العراقي . ثم بعد ذلك توجهوا لأجل عمارة الجبال وحفظ مينا البحر من جهة بيروت وتلك النواحي" . ذلك أن هؤلاء لم يكن لهم من الإمارة إلا اسمُها . ولم نعثر على ذكر لأي منهم في مصادر الفترة ، مع عنايتها الخاصة بالترجمة للأمراء . وحتى اليوم ما يزال رؤساء العشائر التركمانيّة يحملون لقب (الأمير) . الذي قد لايكون أكثر من راعي أغنام ميسور .

إذن ، لماذا أقطعتهم السُلطة المملوكيّة " كسروان " ، والمعروف أن أمراء المماليك كانوا يتنافسون في الحصول على الإقطاعات ؟

الجواب واضح . هو أن هذا الإقطاع كان عبارةً عن منطقة جبليّة خشنة ، صعبة المسالك ، ليس يُرجى منها كبير نفع . بل ستكون عبئاً على صاحبها . وسنرى تصديق ذلك فيما سيأتي . حيث سنرى هؤلاء يغادرون محل إقطاعهم . ليبدأوا تغييراً سُكانياً آخر . سيكون ذا علاقة أساسيّة بما نعالجه في بحثنا .

بالنسبة للسؤال الثاني :أين انتهى أُولئك المُهجّرون ؟ نقول :

يُجملُ ابن يحيى في (تاريخ بيروت) الكلام في هذا الشأن فيقول :

"... **فراح تحت السيف منهم [أهل كسروان] خلقٌ كثير . والسّالم منهم تفرّقوا في جزين وبلادها ، والبقاع وبلاد بعلبك** " [42] .

والظاهرُ أن الدولة تركت هامشاً من الحريّة لهؤلاء في الذهاب إلى حيث يشاؤون . فأعطت أماناً لكل مَن استقرّ في غير "كسروان" . ممّا يؤكّد أيضاً وأيضاً أن غرضها لم يكن متعلقاً بهم بوصفهم شيعة . وإن يكن ابن تيميّة قد نظّر للعمل العسكري ضدّهم بهذا الاعتبار . بل بهم بوصفهم يسكنون في هذه البقعة بالذات ، حيث يمكن أن ينتشروا باتجاه الساحل ، المُهيّأ لذلك بعد التحرير. ومن هنا قلنا أعلاه أنه تُرك لهم "**هامش من الحريّة**" وليس الحريّة التامّة. وعلى هذا فقد كان من الطبيعي جداً أن يتحوّلوا إلى المناطق التي يقطنها أبناء مذهبهم ، ومنها "**جزين وبلادها والبقاع وبلاد بعلبك**" . لكن سؤالنا يطلب تحديداً . أي إلى أين من تلك البلاد ؟

من غير المُتوقّع أن نجِد في كتب التاريخ الرسمي، أو في الأخرى المُتشبّهة بها ، جواباً شافياً على سؤالنا . فهذه إنما تولي عنايتها فقط للأعمال التي تصدر عن السُلطة . وتستنكف عن ذكر أعمال عامّة العباد . ولكننا نعثر على ما قد يُنير هذه

---

(42) تاريخ بيروت / 96 .

الإشكاليّة إنارةً ما ، حيث يتقاطع التاريخ السُلطوي مع التاريخ الحقيقي . ومن ذلك كتاب وقف السلطان حسن بن محمد بن قلاوون (حكم : 748. 752 ثم 755. 762 هـ / 1347 . 1351 ثم 1354. 1360 م) المؤرّخ سنة 760 هـ / 1358 م . أي بعد خمسٍ وخمسين سنة من نكبة "كسروان" . ومن هذه الوقفيّة "**جميع القرية المعروفة بكرك نوح**" . ومعلوم أن هذه القرية الشيعيّة العريقة تقع على فم الطريق المسلوك بين "سهل البقاع" و "كسروان" . أي أنها أقرب قرية من قرى السهل إلى الجبل . إذن فمن المفهوم أن يحطّ بعض أولئك الذين نالهم التهجير القسري رحالهم فيها .

يذكر كتاب الوقفيّة هذا أسماءَ عدد من المالكين في "الكرك" ، منها " كَرْم الحاج علي كسرواني" [43]، وأملاك "أحمد بن الكسرواني [44] و "محمد علي الكسرواني" [45] و "الحاج أحمد بن الكسرواني" [46]. فضلاً عن "جميع القطعة الكَرْم الخراجيّة المعروفة بمزرعة الدوير في أرض قرية زحلة . ويذكر من المالكين في هذه الأرض "محمد بن علي الكسرواني" [47] . ونحن نستفيد من هذا النص الفائق الأهميّة أنه بتاريخ الوقفيّة كانت في "الكرك" وفي قرية "زحلة" المجاورة ، المدينة اليوم ، جاليةٌ كسروانيّة كبيرة . وإذا كان النص قد ذكر خمسة أشخاص فقط ، فهؤلاء هم الذين صادف أنهم من أصحاب العقارات التي شملتها الوقفية . نُضيفُ إلى هؤلاء الفقيه الجليل الحسن بن يوسف ، الشهير بابن العشرة الكسرواني (ت : 862 هـ / 1457 م) الذي عاش أيضاً في "الكرك" ، بل كان الباعث والمؤسّس للنهضة العلميّة التي دخلت به هذه القرية التاريخ من أوسع الأبواب [48] . وما من شكٍ ، نظراً لنص ابن يحيى ، أنه كان في أنحاء

---

(43) كتاب وقف السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون على مدرسته بالرميلة ، تحقيق هويدا الحارثي ، دار نشر الكتاب العربي برلين ـ بيروت 2001 / 66 .

(44) و (45) و (46) و (47) نفسه / 74 و 81 و 74 و 81 على التوالي .

(48) للتفصيل ، كتابنا : جبل عامل بين الشهيدين ، مصدر مذكور / 180 ـ 190 .

"**سهل البقاع**" و "**بلاد بعلبك**" من مهجّري "كسروان" ، مَن ضاع ذكرهم وذكر منازلهم ، لأنهم ولأن أخبارهم لم يحظوا بتقاطع مماثل مع أخبار أهل السُلطة .

أمّا الذين نزلوا "**جزين وبلادها**" فإننا نقف على آثارهم حيث تركوها هم بأنفسهم . وذلك حيث لا يُتوقّع عادةً . أعني في أسماء عدد من القرى في نطاق "جزين" و "النبطيّة" و"صور". تعدادها أحد عشر قرية،هي: "داريّا"، "صليما"، " الهلاليّة" ، "القَطّين" ، "قتالة"، "كْفرَ حتّى"، "القرية"، " القصيبة"، "صربا"، "يانوح"، "زغرين" . ومعلوم إجمالاً أن أسماء القرى والبلدان والمعالم الجغرافيّة هي وثائق تاريخيّة لمن يُحسِن قراءتها . يبقى أن نقول ، أين هي الدلالة على مانعالجه في أسماء هذه القرى الأحد عشر ؟

الدلالةُ هي في أن هذه الأسماء نفسها نجدُها أيضاً في مسرح العمليّات لأحداث الجبل ، أي في "كسروان" و "المتن" [49]. ومعلومٌ أن النازحين يُعبّرون عن الحنين لأوطانهم بمثـل هـذا وإلا كيف نفسّر تلك المزاوجة الكبيرة . ومن هنا يمكننا أن نتصوّر أن قسماً غير قليل من النازحين قد استقروا في مختلف أنحاء "جبل عامل" ، وأنهم اختطّوا لأنفسهم قُرى جديدة منحوها أسماء قراهم الأصليّة في وطنهم المفقود . أضِف إلى ذلك أننا نجد في "جزين"، كما سبق أن وجدنا في "الكرك" ، فقيهاً كسرواني الأصل ، هو أحمد بن إبراهيم الكسرواني [50] ، الذي لانعرف موطنه الثاني، ولكنه عاش في "جزين" بالتأكيد ، حيث درس على الشهيد [51]. والظاهر أنّه كان من أبناء إحدى تلك القرى التي أسّسها الكسروانيون النازحون تعبيراً عن الحنين إلى وطنهم المفقود .

---

(49) راجع ، مثلاً ، أسماء كلٍ من تلك القرى في : قرى ومدن لبنان ، مصدر مذكور ، في المكان المناسب لاسم كل قرية وفق الترتيب الأبتثي للكتاب .

(50) محسن الأمين : أعيان الشيعة ، ط. بيروت ، دار التعارف 1403 هـ / 1983 م : 2 / 482 . والاسم في المصادر السابقة عليه " الكرواني " وهو تصحيف واضح .

(51) جبل عامل بين الشهيدين ، مصدر مذكور / 126 و 158 .

خلاصة الفصل

نخلصُ من هذا السّرد التاريخي المتصل الحلقات ، الذي وضعناه تحت عنوان (أرضيّة تاريخيّة) ، إلى أن الشيعة كانوا الغالبيّة في هذه البقعة من شرق المتوسّط ، التي غدت من بعدُ ما يُعرف اليوم بـ "لبنان" السياسي . وأنهم عاشوا فيها زهاء الأربعة قرون . حيث قاموا بإنجازات باهرة على الصعيدين السياسي والتنموي . مثالُها الأبرز مدينة "طرابلس" . إلى أن نزل بهم البلاء الصليبي ، الذي كان من آثاره المباشرة البعثرة السكانيّة الهائلة التي أصابتهم في الصميم ، باحتلال مدينتي "طرابلس" و "صور"، فضلاً عن "طبريّة " . التي ، وإن تكن جغرافياً خارج محطّ اهتمامنا ، لكنها تدخل فيه باعتبار أن سكانها وسكان القرى والمزارع المُطيفة بها قد لجأوا إلى "جبل عامل" . ومذ ذاك بدأ هذا الجبل المبارك يصبح شيئاً مذكورا .

هكذا نشأت صورةٌ سُكانيّة جديدة . بمقتضاها غدا الشيعة أكثريّة في ثلاث مناطق ، هي : "جبل لبنان" و "جبل عامل" و"البقاع البعلبكي" . استمرّت زهاء قرنين آخَريَن من الزمان .

التطوّر السّلبي التالي حصل في بداية القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد ، حيث ما إن أتمّت السلطة المملوكيّة القضاء على آخر الجيوب الصليبيّة ، حتى انقلبت على الشيعة في "جبل لبنان" ، فنظّمت حملةً انتهت بإجلائهم منه . وأحلّت محلّهم أقواماً من التركمان .

هؤلاء التركمان أصبحوا مذ ذاك عاملاً سكانياً وسياسياً وثقافياً جديداً ، سيكون له تأثيره الكبير بالتأكيد . ومن آثاره ما له علاقة صميمة بموضوع بحثنا . ممّا يقتضي أن

نتابع الكلام عليه تحت عنوان القسم الأخير من هذا الفصل (تداعيات النكبة) . لكننا آثرنا التوقّف عند هذا الحدّ من (أرضيّة تاريخيّة) ، لأن تأثير العامل التركماني يتصل اتصالاً مُباشِراً بالظرف السياسي ـ الاجتماعي الذي عمل فيه الشهيد ، ولم يكُن صِرف "أرضيّة" . من مصلحة البحث وقارئه معاً أن يكون الكلامُ عليه متصلاً مباشرةً بقلب الدراسة ، أي ليس في التهيؤات والتمهيدات البعيدة .

في الفصل التالي سنتعرّف على البيئة التي نبت وعمل فيها بطلُ هذه الدراسة ، أعني " **جِزّين** " .

الفصل الثانـي

" جِزّين "
ماضي الأيام الآتيـة

في التأريخ لبلد الشهيد من الناحيتين السكّانيّة والثقافيّة .

1 . في التاريخ العام .

2 . في التاريخ الثقافي الخاص .

خلاصة الفصل

" جِزّين "

ماضي الأيام الآتية

1 ــ في التاريخ العام

" جزين" بلدة في تخوم " جبل عامل " من شماليّه ، حيث يلتقي بـ "جبل لبنان" الجنوبي . تستقرّ على موقع حصين ، هو جرف يقع على سفوح جبل "التومات" . وتُشرف من الجهة الشماليّة على مُنحدَر عنيف يرتفع ستة وثمانين متراً . يشقها نهر يتغذى من نبع في سفح "تومات نيحا " . والظاهر أن هذا الوضع الطوبوغرافي هو ما أعطى البلدة اسمها ، بإدغام كلمة (جزأين) ، لأن النهر يشطرها إلى شطرين . وعلى هذا فالاسم عربي ، والبلدة حديثة التمصير نسبياً. وهناك اجتهادات أخرى حول منشأ اسمها [1] .

إن أقدم ذكرٍ لها عثرنا عليه لدى البلداني الشريف الإدريسي (493 . 560 هـ / 1100 . 1165 م) . ذكرها في معرض حديثه على مدينة "صيدا " السّاحليّة ، فقال : "وهي [يعني صيدا] متصلة بجبل لبنان بإقليم يُعرف بإقليم جزين" [2] . وهذه ملاحظة جغرافيّة صحيحة . وإطلاق اسمها على الإقليم المحيط بها دليل على أنها أبرز تجمّع سُكّاني فيه . وفيما خلا ذلك ، فإننا لا نجد لها ذكراً في أعمال البلدانيين ، الذين اعتنوا بأسماء ومواقع وأوصاف البلدان .

---

(1) قرى ومدن لبنان ، مصدر مذكور : 231 . 32 وما بعدها . و أنيس فريحة : معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية ، ط. بيروت 1992 م / 49 .

(2) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ط. بيروت ، عالم الكتب 1989 : 1 / 370 .

والظاهر أن "جزين" اكتسبت شيئاً من الأهميّة بفضل موقعها الجغرافي على الطريق الموصل بين "دمشق" و "صيدا" . فابن فضل الله العُمَري (700 ـ 749 هـ / 1300 ـ 1348 م) يقول أن مَن يريد صيدا فإن عليه سلوك طريق "دمشق" ـ "خان ميسلون " ـ "جزين" ـ "صيدا" [3] . ولكن أقوى دليل على ما تمتّعت به البلدة من قوّة حضور في نطاقِها ، قبل أن تغدو حاضرة علميّة ، نجده في الرسالة السابقة الذكر لابن تيميّة إلى السلطان المملوكي ، حيث نراه يذكرها وحدها بالاسم بوصفها من مواطن الشيعة ، الذين ينبغي ، عنده ، أن تتابع السلطة فيه ما بدأته في "كسروان" [4] . وغني عن البيان أن لهذا التخصيص مغزاه . وإن نكن عاجزين عن التحديد بسبب عول المعلومات .

ولقد كان من حُسن حظ "جزّين" ، أنها من البلدان القليلة التي لم يضربها الاحتلال الصليبي ، يوم لحق الصليبيون بنُزّال "جبل عامل" ، النازحين من أنحاء "الأردن" و " فلسطين" ، هرباً من الهول الزاحف ، بعد مذبحة "القدس" المهولة . مع أنها مُحاطة من ثلاث جهاتها بأرض مُحتلّة . وتقع على خط شمالي ـ جنوبي بين حصني "تيرون" و"أرنون" الصليبيَين [5] . وهما من الحصون التي شادوها على حدود المنطقة المُحتلّة . وما ذاك ، فيما نحسب ، إلا لأنها منطقة وعرة جدباء ، صعبة المسالك ، لا خير فيها ولا مطمع . بل ونُرجّح أن أهليها أنفسهم لم ينزلوها بَدواً ، للسبب نفسِه ، بل عاشوا

---

(3) العُمَري : التعريف بالمُصطلَح الشريف ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ط. بيروت دار الكتب العلميّة 1988 م / 250 . والعُمَري كان مهمنداراً في الإدارة المملوكيّة ، أي مسؤولاً عن العلاقات مع القبائل العربية في جهاز الدولة . ممّا كان يقتضي أن يكون على اطلاع وافر على المناطق وأوضاعها من كافة النواحي . وقد سجّل الكثير ممّا استفاده من عمله في كتابه (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) .

(4) العقود الدريّة / 185 .

(5) انظر الخريطة وتعليقنا عليها في مُلحقات الكتاب .

قبلُ في غيرها أولُ ثم تحوّلوا إليها . والدليل على ذلك نجده في اسمٍ أُطلق على أهلها ، ويا للأسماء أحياناً من وثائق تاريخيّة ثمينة ، هو (المياذنة) [6] ، نسبةً إلى "سهل المأذنة" بجوار مدينة "النبطيّة" ، المعروف بخصوبته . وغني عن البيان أنهم لم يكتسبوا هذا الاسم إلا بسبب أنهم استوطنوا هذا السهل مدّة غير قصيرة ، قبل أن يتحوّلوا عنه إلى "جزّين" ومنطقتا ، ابتغاء التحرّر من ضغوط الاحتلال على الأرجح . وفي هذا تأييد لِما ذهبنا إليه ، أي أنها حديثة التمصير .

نختم هذا القسم بالوقوف على ما كان من أهل " جزين " في جهاد المُحتلّين الصليبيين . وهو دور منكور في كتابات المؤرخين . وهم الذين أنكروا ، بالسكوت ، تاريخاً طويلاً مجيداً من الجهاد . ضرب فيه أهل " جبل عامل " بسهم وافر . ممّا بيّنا ما وصل بنا البحث منه في كتابنا (حسام الدين بشارة أمير جبل عامل) .

النص الوحيد الذي يُشير ، وإن من طَرْف ، إلى ما كان من أهل "جزين ، من سهم في أعمال الجهاد والتحرير ، عثرنا عليه في مصدريَن معاصريَن للاحتلال ، هما (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي (ت : 654 هـ / 1256 م) و(ذيل كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) لأبي شامة الدمشقي (ت : 665 هـ / 1266 م) . والنص في كلا المصدرين مُشوّه تشويهاً بالغاً بسبب سوء التحقيق . وسنقتبس الثاني لأن صاحبه، وهو ابن "دمشق"، أكثر خبرة بأحوال منطقته . قال :

" **ولمّا انفصل الفرنج عن الطور، قصد ابن أخت الهنكري جبل صيدا وقال: لا بُدّ لي من أهل هذا الجبل . فنهاه صاحب صيدا وقال : هؤلاء رُماة** [في مرآة الزمان: رُعاة . وهو الصحيح] **وبلدهم وَعر، فلم يقبل . وصعد**

---

(6) شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب الأنصاري : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ط. بيروت 1408 هـ / 1988 م / 267 . وهو يُسمّي منطقة " جزين " " شوف المياذنة " ، ويصِف أهلَه بـ " الرافضة " ، وأبو شامة المقدسي : الذيل على الروضتين ، ط. بيروت ، دار الجيل لات. / 103 . يُسمي أهلها بـ " المياذنة " .

في خمســمائة من أبطــال الفرنــج إلـــى جزيز [إقرأ : جزين] **ضيعة الميانذة ، قريباً من مشغرة . فأخلاها أهلها . وجاء الفرنج فنزلوا بها وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا. فتحدّرت عليهم الميانذة من الجبال ، فأخذوا خيولهم ، وقتلوا عامّتهم ، وأسروا ابن أخت الهنكري . فهرب مَن بقي منهم نحو صيدا . وكان معهم رجل يقال له الجاموس من المسلمين ، قد أسروه . فقال لهم : أنا أعرف إلى صيدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليه . فقالوا : إن فعلتَ أغنيناك . فسلك بهم أودية وعرة . والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون . ففهموا أن الجاموس غرّهم فقتلوه . ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس . بعد أن كانوا خمسمائة . وجاء إلى دمشق بالأسارى . وكان يوماً عظيما** " [7] .

إنّ فهم هذا النص الثمين يقتضي شرح كلمتين أساسيتين فيه . مع التذكير بأننا قد بينّا قبل قليل معنى كلمة "الميانذة " .

ـ الأولى : "الهَنْكَري" . وهي الاسم الذي عُرف به محليّاً الملك أندرو الثاني ، ملك "هنغاريا" وأحد زعيمي الحملة الصليبيّة المعروفة بالخامسة . وقد اتخذ من مدينة "صيدا " قاعدةً له مدّة إقامته القصيرة بالمنطقة . ومن هنا سمّاه أبو شامة "صاحب صيدا " .

ـ الثانية : " الطّور" . وهي اسم القلعة التي بناها الملك العادل الأيوبي على جبل " الطور" المواجه لمدينة "عكّا " للتضييق عليها . حين كانت آخر ما بقي من مملكة "بيت المقدس" الصليبيّة . وكان بناؤها ذريعة لضجيج كبير أثاره البابا أنوسنت الثالث في الغرب . بحجة أن هذا الجبل "**شهد عظمة المسيح ومجده**" . داعياً إلى تجهيز حملة جديدة لإنقاذه .

---

(7) ذيل كتاب الروضتين، ط. بيروت ، دار الكتب العلمية 1422 هـ / 2002 م : 5 / 57.156 . والنص الموازي في : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ط. حيدر آباد 1370 هـ / 1951م : 8 / 585 .

بالنتيجة جرى تجهيز حملة جُلّها من الهنغاريين والألمان ، بقيادة ليوبولد الثاني دوق "النمسا" وأندرو الثاني ملك "هنغاريا". شرعت بمجرّد وصولها بالهجوم على القلعة . دون أن تُفلح في الاستيلاء عليها . والنص الذي اقتبسناه أعلاه يبدأ من نقطة عودة الصليبيين خائبين ، يملأ صدورهم الحنق ، لِما آلت إليه حملتهم من فشل ذريع .

والآن نعود إلى نصّ ابن شامة ، ابتغاء تحليله وكشف خبيئه .

إن سياق الكلام يربط بوضوح ما بعده وضوح بين خيبة الصليبيين في الاستيلاء على " قلعة الطور" وبين قصد ابن أخت الهنكري "جزين" . وذلك ربطٌ يدلّ على علاقة سببيّة بين الأمرين . يفهم منه المتأمّل أنه كان لأهلها دور مجيدٌ في الدفاع عن القلعة . الأمر الذي أغاظ ابن الأخت ، وجعله يُصمّم على الانتقام منهم . والنص صريح في أن مقصوده كان أهل الجبل ، وليس الجبل نفسه "**لا بُدّ لي من أهل هذا الجبل**" . ولذلك نهاهُ خالهُ الملك بقوله : "**هؤلاء رُعاة وبلادهم وعر**" إلفاتاً إلى فقر المنطقة وجدبها وصعوبة مسالكها ، وقبلُ إلى صلابة أهلها . ممّا يجعل العمليّات العسكريّة فيها محفوفة بالمخاطر ، فضلاً عن أنه لا فائدة تُرجى منها .

إذن ، فالنص يحتوي على إشارة مُزدوجة ونادرة جداً ، بل فريدة ، إلى ما كان لأهل بلد الشهيد من دور في مقارعة الاحتلال . أولاهما صريحةٌ ومباشرةٌ . هي موضوع النص الذي نُعقّب عليه . وفيها وصف هذه الواقعة الجليلة ، التي انتصر فيها أهل "جزين" بالشجاعة والتصميم والذكاء وحُسن التخطيط . على الرغم من التباين الكبير في ميزان القوى لصالح عدوهم . والثانية ضمنيّة ، هي بالتأكيد لم تكن من همّ المؤرخ ، ولا هو رمى إلى بيانها . وإنما فهمناها من تتابع الأحداث كما سجّلها . أعني : فشل الصليبيين في الاستيلاء على القلعة و عزم الأمير على الصعود إلى " جزين " والانتقام من أهلها . ممّا نفهم منه دون ارتياب أنهم كانوا ذوي دور بارز في الدفاع عنها .

وجدير بالذكر هنا ، أن سبط ابن الجوزي ، بعد أن وصف استبسال المقاتلين في الدفاع عن القلعة ، ختم كلامه بالقول : " **وكان في الطُّور أبطال المسلمين وخِيار**

عسكر الشام " [8] . ممّا نفهم منه أن وجود أهل " جزين " في جملة مَن أوكل إليهم الدفاع عن القلعة لم يكن عفواً ولا صدفة ، بل لِما كانوا يتمتّعون به من سُمعة طيّبة بوصفهم مقاتلين أشدّاء . فهذه شهادة لأولئك "الرعاة " ، على حدّ ما قاله الملك أندرو الثاني في وصفهم ، بأنهم كانوا ، على فقرهم وجشوبة عيشهم ، ممن يُعتمد عليهم في المُلمّات وحين البأس . وهي شهادة زكّوها هم بأنفسهم ، بما أظهروه من براعة وشجاعة وحُسن تخطيط .

نقطة أخيرة نقف عندها في ختام هذا التحليل ، هي ما ختم به ابن شامة نصّه . حيث قال : " **وجاء إلى دمشق بالأسارى . وكان يوماً عظيما** " . نسأل : مَن هو ذاك الذي " **جاء بالأسارى** " ؟ هذا السؤال يطرح تساؤلاً : هل رمى ابن شامة من هذه الصيغة المُلتبسة إلى تجهيل الفاعل ، كي لا ينسب الفضلَ في كلِّ هذا إلى أهل "جزين" ؟ أم أن الأمر بكل بساطة يرجع إلى سؤ تحقيق المصدر الذي اقتبسنا عنه النص . السؤال سيبقى الآن دون جواب . بانتظار أن نطرحه استناداً إلى نسخة مُحققة تحقيقاً وافياً من الكتاب .

كل ذلك كان كلاماً في التأريخ العام لـ "جزين" وأهلها . وسيكون علينا أن ننتقل توّاً إلى تاريخها الثقافي . ممّا يدخل في باب المُهيّئات والمُرهصات لسيرة الشهيد وأعماله .

---

(8) مرآة الزمان : 8 / 584 ـ 85 .

2 ــ في التاريخ الثقافي .

ما من ريب في أن ذلك الهامش من الحريّة ، الذي تمتّعت به " جزين" ، بالقياس إلى غيرها من بلدان "جبل عامل" ، كان شرطاً ومقدمة ضروريين لِما آل إليه أمرُها على يد ابنها الشهيد الأول . ويُفسّر لنا، وإن جزئياً، لماذا انبعثت دون سواها لتكون الفاتحة والعنوان لنهضته . فنحن نعرف أن الاحتلال الصليبي كان استيطانياً . بمعنى أن المُحتلّ يتصرّف على أساس أنه أصبح بالاحتلال المالك للأرض . وأن مَن عليها من البشر عبيد أرض (أقنان) ، يُصرّفهم مالكها الفعلي في منافعه كيف يشاء. وغني عن البيان ، أن قوماً على هذه الحال الزّريّة ومثلها ، لا يُعقَل أن يكونوا بُناة نهضة . ويستحيل أن يصرفوا قسطاً من جهدهم إلى الفكر وشؤونه .

من هنا رأينا أحد أبنائها يجترح أول مبادرة في "جبل عامل" باتجاه المعرفة . فيشدّ الرحال إلى "الحلّة" القصيّة ، في طلب العلم . التي كانت يومذاك أهم مركز علمي شيعي . ليعود منها إلى وطنه . وليكون أول فقيه عاملي نعرفه . ذلك هو إسماعيل بن الحسين العَوْدي الجزّيني (ت : 580 هـ / 1184 م) [1]. ذلك الرائد الذي يدين "جبل عامل" لمبادرته بالكثير . بل إننا ، إذا أخذنا بالاعتبار تأثير النهضة العامليّة ، الذي انداح نحو مُختلَف الأقطار فيما بعد ، بوسعنا أن نقول أن عالَم التشيّع كله مدين له ولمبادرته تلك .

وإنه لمن المُثير للعجب حقاً أن نرى شخصاً يجترح هذه المبادرة العظيمة دون سابقة من مثلها في وطنه . ولكن فلنتذكّر ما قصصناهُ في الفصل السابق عن بني العَوْد ، فقهاء "كسروان" ، وتهجيرهم مع مَن هُجّروا من أهليها إلى "جزين" ، وعن آل العودي في هذه ، واحتمال أن يكون هؤلاء من بقايا أولئك . فلعلّ ، بل الأرجح ، أنّ

---

(1) راجع الترجمة له في كتابنا : جبل عامل بين الشهيدين ، مصدر مذكور / 67 ـ 68 .

هذا الرائد لم يصدر في مبادرته الفذة عن غير أساس . بل درجَ على الدرب الذي عبّدته من قبل أسرتُه العريقة . وإذا صحّ هذا ، وكلٌّ ما عندنا يدلُّ على أنّه صحيح ، فهو من العبَر ، التي تُرينا أن غطرسة القوّة والقهر لا يمكن أن تضع نقطة الختام . وأن هناك دائماً برسم ضحاياها بـابٌ مفتوحٌ نحو بداية جديدة .

وتوالت على بلد الشهيد حظوظُه السعيدة . وذلك إذ نزلها آخر فقيه شيعي إمامي كبير أنجبته منارةُ "الشام" "حلب" ، هو نجيب الدين أبو القاسم بن الحسين بن العَوْد الحلبي (618 ــ 676 هـ / 1185 ــ 1278 م) الذي وصفه الذهبي فقـال : " **الفقيه المُتكلّم ، رأس الرافضة ، وشيخ الشيعة** " [2]. وغني عن البيان ، بالنسبة لمن يعرف ما كان عليه أمر "جبل عامل" عموماً وأمر "جزين" خصوصاً في ذلك الأوان ، أنه سيكون لنزول فقيه من مثله فيها أحمد الأثر. ممّا ليس في الوسع تفصيله ، لبُعد الشقّة في الزمان وعَوْل المعلومات . ولكننا نعرف، على الأقل ، أنه أسّس فيها حركة دراسة وتدريس . نعرف من ثمارها الفقيه الرائد جمال الدين إبراهيم بن أبي الغيث البخاري (ح : 736 هـ / 1335 م) الذي حاول ما أفلح فيه الشهيد فيما بعد . ولكنه قُمع . فضاع ذكر أعماله، بل ضاع ذكره هو ، ولولا شئ من حُسن الحظ لَما عرفنا عنه حتى الاسم [3] .

حق أن هـذا الامتياز ، الذي حظيت به البلـدةُ الصّاعِـدة ، قد حصل في سياق مأساة ، هي انهيار أمر التشيّع التاريخـي في منارة "الشام" "حلب" ، بسبب دخول العناصر العسكريّة القادمـة من الأطراف البعيـدة ، في الصورة السياسيّـة للمنطقــة .

---

(2) الذهبي ، محمد بن أحمد : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، ط. بيروت ، دار الكتاب العربي 1420 هـ / 1999م (حوادث ووفيات 671 ـ 680) / 336 ـ 37 . وله ترجمة مُميّزة في : ذيل مرآة الزمان لليونيني : 3 / 434 ـ 39 .

(3) لتفصيل هــذا الإجمال راجع الترجمة المفصلة التي علّقناها له في كتابنا: جبل عامل بين الشهيدين ، مصدر مذكور / 78 ـ 89 .

تُحرّكها شـهوة السُلطة والثروة. وكان خُـروج ، بل إخـراج ، أبو القاسم العودي منها [4] من إماراته وعقابيله . لكن العِبرة من هذا السياق ، أن الانهيار هناك قد ساهم في التأسيس والترهيص للترقّي هنا . فكأنك تشهد سباقاً بالرايات ، لا تسقط الراية من يد حتى تتلقّفها يـد . وحق أيضاً أن هذه النعمة قد نالت "جزين" بعد عقود كثيرة من وفاة رائدها الأول إسماعيل العَودي . ممّا قد يودع في النفس أن التوالي المؤثّر مفقود . لكن علينا أن نعتبر ، أننا في هذا نتحدّث عن تغييرات بطيئة عميقة . تحدث عفواً ودون تخطيط ، على مستوى المُحرّكات الثقافيّة المأزومة ، بسبب الانقطاع المُزمن عن مصادرها المعرفيّة . لذلك فإن أي مَـدَد يأتيها سينغرسُ عميقاً في وعي الناس . ويُهيّئ للخطوة التالية عندما تحصل . وقد عبّر الذهبي تعبيراً بديعاً جداً عمّا نحاول فذلكته هنا فقال، وهو يتحدّث عن الموقع العالي الذي اكتسبه أبو القاسم في "جزين" : " **ثم أنه أقام بقرية جزين ، مأوى الرافضة ، فأقبلوا عليه وملّكوه بالإحسان** " [5]. يعني : جعلوه ملِكاً عليهم جزاء ما أحسن إليهم ، ويا لبراعة هذه العبارة ! . نقول هـذا على الرغـم من أننا نراها قاصرة عـن بيان كل ما ينبغي بيانه . ذلك أنها لا تقِـفُ على ما نراه أهم إنجازات أبو القاسم في وطنه الثاني . أعني تأسـيسَه لأول حركـة دراسـة وتدريس في وطنه الجديـد "جبل عامـل" . نظـنُّ أنها لـم تقتصر على تلميـذه ابن أبي الغيـث . بل ضمّت تلاميذ آخرين . ضاع ذكرهم ربما إلى الأبد . مثلما كاد يضيع ذكر هذا ،

---

(4) وصف الذهبي تمثيليّة إخراج أبو القاسم من " حلب " فقال :

" تردّد إلى الشريف عز الدين مرتضى نقيب الأشراف . فاسترسل معه يوماً ، ونال من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فزبره النقيب ، وأمر بجرّه بين يديه . وأُركب حماراً مقلوباً . وصُفع في الأسواق . فحدّثني أبو الفضل بن النحّاس الأسدي أن فاميّاً [أي بائع بقول] نزل من حانوته وجاء إلى مزبلة ، فاغترف غائطاً ولطّخ به ابن العود " .

(5) تاريخ الإسلام للذهبي ، مصدر مذكور (حوادث 671 . 680) / 337 .

لولا حُسْن حظّه وحُسْن حظّنا منه . على أننا نعذر الذهبي في تقديره المجزؤ ، لأنه يقتضي خبرةً أكبر ممّا كان لديه بالتاريخ الثقافي لـ "جبل عامل " . وعلى أن الإنصاف يقتضي منّا أن نقول ، إن قوله " فأقبلوا عليه " ربما يعني ، فيما يعني ، وأبو القاسم ذلك الفقيه والعالم الكبير ـ الأخذَ عنه والدراسةَ عليه . ممّا يصلح أن يكون إشارةِ مُجمَلة إلى تلاميذه المُفترضين .

من التلاميذ المُحتملين لأبو القاسم ، جمال الدين أبو محمد مكي بن محمد الجزيني ، والد الشهيد . وما من نصٍّ على ذلك . ولكن خطّ حياة ابن حامد يتناسب مع الفترة التي عاش فيها أبو القاسم في وطنه الثاني "جزين" . فلقد عرفنا أن أبو القاسم توفي فيها سنة 676 هـ / 1278 م. ونقول الآن أن والد الشهيد كان حياً سنة 728 هـ / 1327 م . وياليتنا نعرف تاريخ مولده ، لكي نكون أقرب إلى القطع في هذا التفصيل من سيرة الإثنين ، استناداً إلى تقاطع عمريهما . الذي يُكمل التقاطع المكاني ، أعني حياتهما كلاهما في "جزين" .

مهما يكن ، فإن ممّا لا شك فيه أن اختيار أبو القاسم "جزين" ، البعيدة عن وطنه الأصلي "حلب" ، ليُمضي فيها ما بقي له من العمر ، بعد أن نزل به ما نزل ، لا يخلو إجمالاً من دلالة على ما اكتسبته من موقع مُتميّز . يعود الفضل فيه أول ما يعود إلى الرائد إسماعيل العَوْدي الجزيني .

في الأوان الذي كانت فيه تلك الحركة الداخليّة عالقةً في "جزين" ، كانت هناك غير بعيدٍ عنها نبضاتٌ قد بدأت تعمل . وكأن هناك إيقاعاً غير مسموع يُنسّق حركات جسم المنطقة . التي عاشت زهاء قرنين من الزمان في حالة من الاستلاب الثقافي ، بسبب وقوعها تحت الاحتلال الصليبي. وهاهي الآن تتهيّأ للخروج منها . تلك النبضات تشهد بأنه قد بدأت فيه حياة جديدة بالفعل . مثلما يحصل للحَمْل في رحِم أمه ، قبل أن يخرجَ إلى الحياة الدنيا . فتبدأ أعضاؤه بالعمل بالتوالي ، عضواً إثر عضو ، في ترتيبٍ ربانيٍّ مُعجِز .

في "مشغرة" إلى الشرق من "جزين" يوسف بن حاتم المعروف بـ " الشّامي " (ح : 664 هـ / 1265 م) . وفي "طلّوسة" جنوبها صالح بن مُشرف الطلّوسي (ح : أوائل القرن 8 هـ / 14 م) . وفي المنارة أقصى جنوبها ، طومان بن أحمد المناري (ح : 728 هـ / 1327 م) . وفي " مجدل سِلِم" ، جنوبها أيضاً ، إبراهيم بن أبي الغيث البخاري (ح : 736 هـ / 1335 م) . وكل هؤلاء ساروا على الدرب الذي سار عليه من قبل الرائد إسماعيل الجزيني ، فنفروا إلى"الحلّة" القصيّة ورجعوا إلى قومهم . وكان لكلٍ منهم دوره التاريخي [6] .

ولا يذهبنّ بقارئ الظن ، إلى أننا ، بتعريجنا على ذكـر هؤلاء الروّاد في بلدانِهم ، قـد خرجنا من إطار " جزين " ، وبالتالي على عمود البحث . كلاّ ، فهـذه البلدان متقاربة جـداً جسـداً وروحـاً . أي أن كل ما يجـري في إحداها يظهر أثره فوراً على الأخرى . ومن ذلك أن مكي بن محمد الجزيني ، والد الشـهيد ، قد درس على المناري في "المنارة" . وأن البخاري ، ابن " مجدل سِلِم " ، أخذ عن ابن العَوْد في "جزين" ، كما قلنا فيما فات .

هؤلاء الرجال/الروّاد، الذين نراهم الآن من موقعنا العالي في الزمان، مُصطفَّين في أعماق صورة "جبل عامل"في تلك المرحلة الانقلابيّة من تاريخه ، هم الذين بنى الشهيدُ على الأساس الـذي مكّنوا له الآسـاس . وكان من فضله أنه هو الـذي بنى فأعلى .

ملمحٌ أخيرٌ وغريب ، في هذا التتبّع للحركة الداخليّة في "جزين" ، تمهيداً للدخول المهيمن للشهيد ، نقرأه في ما نعرفه من سيرة أحد أبنائها ، أسد الدين الصائغ الجزيني (ح : النصف الأول من القرن 8 هـ / 14 م) . **الذي قيل فيه أنه "شيخ الشهيد ، وعـمّ**

---

(6) لتفصيل هذا الإجمال ، والاطلاع على الترجمة لكلٍ من هؤلاء الروّاد ، نرجـو الرجوع إلى كتابنـا " جبل عامل بين الشهيدين " / 67 وما بعدها .

أبيه ، وأبو زوجته" وأنه " لم يشتهر بين الفقهاء لغلبة العلوم الرياضيّة عليه " [7]. فإذا صحّ ما قالته المعلومة الأخيرة ، من أنه كان مُتمكناً من "العلوم الرياضيّة " ، فهذا يطرح سؤالاً كبيراً :

من أين استقى معرفته هذه في تلك المرحلة المُبكّرة من نشأة الحياة العقليّة في وطنه ؟

تُرى هل كانت إمكانات "جزين" العلميّة في ذلك الأوان أغنى ممّا نعرف ، بحيث تُنتج عارفاً بهذا العلم ؟ من الواضح أن هذا السؤال يتجاوز إشكاليّات السيرة الشخصيّة لأسد الدين ، ويصِلُ إلى ما هو أكبر بكثير ، أي إلى مستوى الحالة المعرفيّة التي كانت عليها "جزين" عشيّة بروز ابنها الكبير محمد بن مكّي .

لكننا ، من أسف ، لا نملكُ على هذا السؤال جوابا .

مهما يكن . فممّا لاريب فيه أن "جزين" كانت ، في ذلك الأوان ، في وضعٍ مُتقدّمٍ بالقياس إلى كل رصيفاتها ممّا ذكرناه من قرى وبلدان "جبل عامل" التي أنجبت روّاداً . أعني : "المنارة " و "طلّوسة" و"مجدل سِلِم" و "مشغرة " . وبالتالي فلن يكون من الغريب ولا المفاجئ أن تُنجب البطل المُنتظَر .

---

(7) محسن الأمين : أعيان الشيعة ، ط. بيروت 1403 هـ / 1983 م : 3 / 285 .

خلاصة الفصل

" جزين" بلدة شمال "جبل عامل" ، في منطقة وعرة ، يبدو أنها حديثة التمصير نسبياً . بشهادة اسمها العربي ، وأن لاذكر لها في المصادر البلدانيّة القديمة . مصّرها قوم نزحوا إليها من "سهل المأذنة " بجوار مدينة "النبطيّة" . حيث عاشوا فيها حياةً فقيرة اعتماداً على رعي المواشي .

لكنهم ، في المقابل ، كانوا يتمتّعون بالحريّة التامة ، التي كان يفتقر إليها عامّة إخوانهم في "جبل عامل" ، الذي كان آنذاك يرزح تحت الاحتلال الصليبي .

إن مفتاح تاريخ "جزين" ، الذي جعل منها في المستقبل غير البعيد ، على يد ابنها محمد بن مكي ، رائدة النهضة ، هو في هذا القسط من الحريّة الذي تمتّع به أهلُها . ولولاه لَما كان لها أن تأخذ المبادرات المتوالية في الطريق الطويل نحوها .

أُولى تلك المبادرات ، وربما أكثرها أهميّة ، رحلة ابنها إسماعيل العَوْدي ، التي وصلت بلده بالينبوع الوحيد آنذاك لاستيراد العنصر المعرفي الضروري لإعادة البناء ، بعد أن انقطع بسبب الاحتلال . وذلك حين شدّ الرحال إلى " لحلّة " وحضر على علمائها . وبذلك كان أول عالم أنجبه بلده .

ثانيها هجرة أكبر عالم شيعي في "الشام" في زمانه إليها ، هو أبو القاسم بن العَوْد . بعد أن نُكّل به في وطنه "حلب" . كان من بركتها وحميد أثرها أن أسّس فيها أول حركة تدريس عرفها "جبل عامل". نعرف من ثمارها أحد كبارروّاد النهضة إبراهيم بن أبي الغيث البخاري . ولكنّنا نظن أن بركتها أكبر بكثير ممّا نعرف .

وأثنـاءَ مدّة قرن تقريباً من الريادة ، سار على الدرب روّاد آخرون : يوسف بن حاتم المشغري ، وطومان بن أحمد المناري ، وصالح بن مُشرف الطلّوسي ، ومكي بن

محمد الجزيني والدالشهيد ، وأسد الدين الصائغ الجزيني . ولكلٍ من هؤلاء دوره المُميّز في هذا التأسيس . الأمر الذي جعل المسرح مُهيّئاً لمن يُحوّل هذه الحركة البطيئة إلى نهضة حقيقيّة فاعلة . وما كان ذلك المؤمّل المُرتجى غير الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني .

الفصل الثالث

في السيرة

إشكاليّات البحث .

1 ـ النسب والمولد والنشأة .

2 ـ في " الحلّة " .

3 ـ بدء صلته بعلي بن المؤيّد الخراساني .

4 ـ ما بعد " الحلة " / رحلاته العلميّة .

5 ـ في " جِزّين " .

6 ـ شهادته .

- رواية السّيّوري .
- رواية البتدّيني .
- المقارنة بين الروايتين ونقدهما .

خلاصة الفصل

الفصل الثالث

في السّيرة

ـــ إشكاليّاتُ البحث

تكلّمنا في مقدّمة الكتاب على ما ينبغي الكلام عليه في المقدمات من مصادر الكتاب . ونقول الآن :

يمكن قسمة سيرةِ الشهيد إجمالاً ، من حيث توفّر وعدم توفّر المصادر الموثوقة عنها ، إلى ثلاثة أقسام :

ـ القسم الأول : المولد والنشأة . وهذه لانجد عنها أي معلومات أساسيّة . وذلك أمر طبيعي بالنسبة للكبار الذين ينبتون في الغُمار . إذ لا يبـدأ الاهتمام بتسجيل سيرتهم إلا بعد أن يصبحوا ملءَ الأعين . وإذ ذاك تكون معالم سيرتهم الأولى قد ضاعت وغدت نِسـياً منسـيّاً . وما نجده في المصادر عنها ، فيما يخص سيرةِ الشهيد ، إنما هو حدسيّات وتخمينات ، استقاها كاتبُها ممّا لديه من معرفة ، أو ما يعتقد أنه معرفة ، بالظرف الذي اضطرب فيه صاحب السيرة في نشأته الأولى . وهذا أمر مقبول من حيث المنهج ، في غياب النصوص المباشرة . شرط أن تُسجّل النتائج بوصفها ظنوناً من درجة أو غيرها . ولا ترقى إلى مرتبة العلم أو ما يُشبهه . والشأن كلّ الشأن بعدُ في مدى صدق التصوّرالذي يملكه الكاتب ، أو ، طِبقا لِما عبّرنا عنه أعلاه ، في "معرفة الظرف". وكلما كانت تلك المعرفة دقيقة وغنيّة بالتفصيلات ، كلما أتت نتيجتها أقرب إلى الحقيقة. ومن هنا يلمس القارئ الحصيف أهميّة ما أمضينا فيه الصفحات السابقة ، التي سنراها ، أعني تلك الأهميّة ، في كافة مراحل البحث . وهنا ، أي فيما يخصّ هذا القسم ، ما علّقناه في خواتيم الفصل الثاني على الحياة العقليّة في "جزّين" عشيّة مولده .

ـ القسم الثاني : فترة الإعداد . أي إعداد الشهيد نفسه ، بالطلب ولقاء أهل العلم وحَمَلَة الحديث ، في " الحلّة" وغيرها . وهذه تتوفّر عنها المعلومات ، بفضل التقاليد الأكاديميّة التي كانت مُتّبعةً في ذلك الأوان ، من إجازات وإنهاءات . فضلاً عن تأريخات لِما صنّفه أو نسَخَه .

ـ القسم الثالث : فترة الإعداد والعمل والنشاط في وطنه "جبل عامل" ، وفيما والاه . وخصوصاً في " دمشق " مركز السلطة الإقليمي .

هذه تتفاوت مصادر البحث فيها ، من حيث ما تمنحه للبحث و للباحث ، تفاوتاً كبيراً . فبالنسبة لأعماله العلميّة ، فهي كسابقتها غنيّة بالوثائق بما فيها من إجازات وإنهاءات . أمّا نشاطه السياسي والاجتماعي وعلاقاته العامّة فإن الإشارة إليها وردتنا في عبارات مجزوؤة ، مقطوعة عن سياقها . والسبب في ذلك ، فيما يبدو لنا ، ليس أن مَن سجّلها قد تعمّد ذلك . وإنما لأنها كانت في أوانها أموراً معروفة مشهورة . وبصفتها هذه فهي كانت في غنى عن التفصيل والبيان . ولكنها مع كرّ الأعوام وتوالي القرون وتناسي ملابساتها ، تغدو ضئيلة الفائدة . أو فلنقل أن الفائدة منها متوقّفة على نجاح الباحث وتوفيقه في إعادة تركيب تلك الملابسات ، استناداً إلى ما تحت يده من مصادر موازية . وهذا أمر ليس باليسير دائماً . فضلاً عن أن نتائجها تبقى ، هي الأخرى ، ظنيّة .

1. النّسَب والمولد والنشأة .

أ . **في النسَب** : هو "**محمد بن مكّي بن محمد بن حامد الجزيني**" . هكذا كتب اسمَه رجلان عالمان عرفاه عن قُرب مدّة مديدة . أحدهما شيخه محمد بن الحسن الحلّي الشهير بفخرالمحققين (ت : 771 هـ / 1369 م) وذلك في الإجازة التي خطّها له [1] .

(1) ونصها في بحار الأنوار، ط . بيروت مؤسسة الوفاء 1403 هـ / 1983 م : 107 / 177 ــ 78 .

والآخر محمد بن محمد الجَزَري (ت : 833 هـ / 1429م) في الترجمة التي علّقها له في كتابه (غاية النهاية في طبقات القُرّاء) . مُستنداً إلى " **ما كتبه بخطّه لي في استدعاء** " [2] أي أن الكَتْبَ مصدره الشهيد نفسه . وهذا كافٍ في إيصال البحث في هذه المسألة إلى ما يحسُن السكوتُ عليه . ومع ذلك فإنه لابد من الإشارة إلى تركيباتٍ اسميّة مختلفة . يبدو أنها إمّا من تصحيفات النسّاخ ، أو من باب التساهل بإغماض اسم أحد الأجداد . من ذلك : "**محمد بن محمد بن حامد بن مكي**" [3] و"**محمد بن مكي بن حامد**" [4]. و"**محمد بن أحمد بن حامد بن مكي**" [5]. إلى غير ذلك . والأمرُ هيّن .

لكن هاهنا ملحوظة لابدّ من إيرادها ، على سبيل استقراء كل ما في مختلف المصادر في هذا الشأن . هي أن الحر العاملي يترجم لـ "طه بن محمد بن فخر الدين" ، واصفاً إياه **بأنه "جدّ الشيخ الشهيد محمد بن مكّي** " ، وبأنه "**عالم ثقة زاهد**" [6]. والاسم نفسه

---

(2) ط. مصر ، تحقيق برجسشتراسر ، مكتبة الخانجي 1352 هـ / 1933 : 2 / 265 .

(3) ورد في ختام إجازته لابن الخازن الحائري : بحار الأنوار : 107 / 192 .

(4) ورد في ختام مخطوطة (فهرست منتجب الدين) التي كتبها الشهيد بخطه . وهي في "مكتبة آية الله المرعشي" بـ " قم " . رقم 3112 ، الورقة 257 / آ . (نقلاً عن : الشهيد الأول حياته وآثاره للباحث الشيخ رضا المختاري / 27 .

(5) وذلك في نص هبة فاطمة ابنة الشهيد أخويها ما يخصها من تركة أبيها . التي أوردها المرحوم الشيخ محمد رضا شمس الدين في كتابه (حياة الإمام الشهيد الأول) المنشور في مجموع مصنفاته المسمّى (بهجة الراغبين في مؤلفات الشيخ محمد رضا شمس الدين) ط. بيروت ، دار المحجّة البيضاء 1424 هـ / 2003 م / 391 .

(6) أمل الآمل . تحقيق أحمد الحسيني ، ط. النجف 1385 هـ . / 105 . مع ضرورة الإشارة إلى أن هذه الترجمة وردت فقط في إحدى النسَخ الثلاث التي اعتمدها المحقق . وهي نسخة محفوظ أصلها في "مكتبة آية الله الحكيم العامّة" في "النجف الأشرف" برقم 457 مخطوطات . وقد وصفها المحقق في المقدمة بأنها " كثيرة الأخطاء والتصحيفات والسقطات جداً " .

نجِده في (مختصر نسيم السّحَر) ، الذي ذكرناه ونقدناه في المقدمة ، وأوردنا نصّه مع المقدمة المناسبة في ملحقات الكتاب ، هكذا : " **محمد بن شرف الدين مكّي بن حامد بن طاها بن علي** " [7] . أي أنه والد جدّ الشهيد ، وليس جدّه . ويؤخذ من هذين المصدريَن إجمالاً أن في سلسلة نسب الشهيد مَن اسمه "طه" . وتحقيق القول في "طه" هذا وفي موقعه من سلسلة نسب الشهيد عسير جداً ، إن لم يكن مستحيلاً . وعلى كل حال ، فالأمر كما قلنا آنفاً هيّن .

كل هذا فيما يعود إلى نسبه القريب .

فيما يرجع إلى نسبه البعيد . فإننا نشهد خليطاً متهافتاً من الأنساب :

ـ " **المطلبي** " الذي يبدو أنه نسبةً إلى عبد المطلب بن هاشم ، جد النبي (ص) . وقد نسب الشهيد نفسه هكذا كثيراً . أوثقها ما في الورقة الأخيرة من مخطوطة (إيضاح الفوائد) التي بخطه [8] . وربما لهذا دأب حفيده البعيد محمد مكي ، الذي اختصر (نسيم السحَر) ، على نعته بـ "**الشريف**" .

ـ **الخزرجي** . نسبةً إلى القبيلة المعروفة . نسبه إليها حفيده نفسه [9] .

ـ **الحارثي** . نسبةً إلى الحارث الهمْداني [9] .

ـ " **المُنتسب لسعد بن معاذ سيّد الأوس**" . قالت ذلك ابنته فاطمة في وثيقة الهبة ، المُشار إليها قبل قليل [5] .

وغني عن البيان أن الأقوى سنداً من هذه الأنساب هو "المُطلبي" ، لمكان نسبة الشهيد نفسه هكذا . وأنه لا يمكن قبولها دفعةً واحدة ، لِما بينها من تهافت بيّن . وإنما

---

(7) مختصر نسيم السحَر / 10 . وكل إسناد إلى هذا المصدر فيما يأتي سيكون إلى نسختنا المنشورة في الملحقات .

(8) المحفوظة في " كتابخانه مركزي " = " المكتبة المركزيّة " بجامعة طهران " رقم (706) .

(9) رضا المختاري : الشهيد الأول حياته وآثاره ، ط. قم 1383 هـ . ش / 29 .

بسطنا الكلام عليها للتنبيه إلى ذلك . ويُستفاد من نسبته إلى عبد المطلب أن أصل أسرته من "مكّة " . وأن اسم والده هو تأصيل عن تاريخها (البعيد ؟) .

ب : **في المولد** : وسنتناول هذه المرحلة من السيرة من جانبي المكان والزمان .

ـ أولاً : في مكان المولد : ما من نص صريح مباشر في المصادر على ذلك .

ولكن الحرّ العاملي ينعت والد الشهيد بـ "**الجزّيني**" [10]. ممّا يُفهم منه أنه على الأقل قطنها . ثم أن محمد مكي يقول في (مختصر نسيم السّحَر) : " **ذكر تاريخ ولادته** [يعني الشهيد] ، **وكيفيّة حاله بعد أبيه ببلدة [ببلده ؟] جزين** " [11]. الأول دليلٌ ظرفي على أن مولده كان في "جزين". أمّا الثاني فهو أقرب إلى التنصيص على أن مولده كان فيها . خصوصاً إنْ فهمْنا أنّ العائد في قوله "ببلدة [ببلده] جزين" **هو "تاريخ ولادته"** ، وليس "**حاله بعد أبيه**" .

لكن حفيده البعيد نفسه ينعته **بـ "الحانيني الجزيني"** [5]. و"حانين" بلدةٌ في "جبل عامل" قريبةٌ من " بنت جبيل " ، غير بعيدة عن الحدود الدوليّة الفاصلة بين " لبنان" السياسي اليوم وبين الأرض المُحتلّة . والعادة المُتّبَعَة أن هذا الترتيب في النسبة يعني أن المعنيّ بالكلام كان في المنسوب إليه أولُ في " حانين " ثم في " جزّين " . فهل يمكن أن نفهم من ذلك أن الشهيد قد وُلِد في "حانين" ثم تحوّل أو تحوّل به والده أو غيرُهُ إلى "جزين" ؟ احتمالٌ مقبول . خصوصاً وأن قائله ، الذي نُرجّح أنه مؤلف (نسيم السّحَر) محمد بن علي بن الوحيد البتديني ، أعرفُ بما خفي عنّا من سيرة شيخه . أضِف إلى ذلك أنه ما من سببٍ عندنا للزّعم بأن هذا القول هو اجتهاد منهُ لا يستند إلى معلومات مؤكّدة .

---

(10) أمل الآمل : 1 / 166 .

(11) في مُلحقات الكتاب .

ـ ثانياً : **في تاريخ مولده .**

يقول الشهيد الثاني زين الدين بن علي الجُباعي (ق : 965 هـ / 1558 م) مانصّه :

" وجدتُ بخط الشيخ رضي الدين أبي طالب ، وَلَدُ شيخنا السعيد محمد بن مكي ، على ظهر كتاب الذكرى بخط مصنفه السعيد ، ما مُلخّصه :
" وُلد المصنّف في شهور سنة أربع وثلاثين وسبعمائة . وقُتل مظلوماً شهيداً برحبة القلعة ، في سوق الجمال بدمشق ، يوم الخميس تاسع شهر جمادى الأولى عام ستة وثمانين وسبعمائة . بعد أن سُجن عاماً إلا أياماً يسيرة بالقلعة . ونُقل ثلاثة أبرُج " [12] .

وقد نقل هذا النص عبد الله أفندي في كتابه (رياض العلماء) ببعض تصرّف[13] . ثم المُحدّث النوري في (مُستدرَك الوسائل) [14] . وكان هذا سبب ذيوع هذا التأريخ . خصوصاً أنه صدر عمّن لايرقى الشك إلى وثاقته ومعرفته . بحيث أن السيد حسن الصدر قال في كتابه (تكملة أمل الآمل) : " **تولّد سنة أربع وثلاثين وتسعمائة** [كذا . وهو خطأ طباعي] **بلا خلاف** " [15] . وبُنيَت عليه أمور وأمور ممّا هو من سيرة

---

(12) فهرست مخطوطات المدرسة الباقريّة في "مشهد "المنشورفي دوريّة (تراثنا) العدد 23 / 106 .

(13) رياض العلماء وحياض الفضلاء ، تحقيق السيد أحمد الحسيني ، ط. قم 1401 هـ : 5 / 189.

ولاحظ أن في النص ، كما اقتبسه هنا ، ما هو غير معقول . فهو يفترض أنه منقول عن خط الشهيد مع أنه يؤرخ لشهادته وما جرى عليه . ومنشأ الاشتباه عنده ، فيما يبدو ، أنه فهم أن المعني من قولــه " بخط الشهيد" النص ، والمقصود الكتاب . والحقيقة أن صياغة العبارات لا تخلو من التباس .

(14) ط. طهران ، المكتبة الإسلاميّة ، على الحجر 1383 هـ : 3 / 437 .

(15) تحقيق السيد أحمد الحسيني ، ط. قم 1406 هـ / 365 .

الشهيد [16] . في حين أن ما بُني كان الأحري به عند الناقد أن يكون سبباً للتأمل في صحة النص .

إن ما يستفيده الباحث من مجموعة من الوثائق الأساسيّة ، ذات العلاقة بسيرة الشهيد أيام الشباب ، أنه بين السنتين 750 هـ / 1349 م و 758 هـ / 1357م ، قام بنشاط واسع جداً . فيه أسفار وتحصيل واستجازات وإجازة وتصنيف . أتمها ، بناءً على أنه وُلد في تلك السنة ، وله من العمر أربع وعشرون سنة . هذا ، إجمالاً ، أمرٌ غير معقول [17] .

نعتقد أنه، نظراً لغياب النص الموثق الدقيق المباشر، فإن أفضل ما لدينا على هذا التفصيل من سيرة الشهيد، هو ما في الترجمة التي علّقها له صاحبه الجزَري وفيها : " **وُلد بعد العشرين وسبعمائة . ورحل إلى العراق . وأخذ عن ابن المُطهّر وغيره** " **(18)** .

والكلام هنا للجزَري وليس للشهيد . مع أنه أتى بعد قوله : " كذا كتب إليَّ في استدعاء". التي نُرجّح أن مرجعها قوله " **محمد بن مكي بن محمد بن حامد أبو عبد الله الجزّيني الشافعي** " . خصوصاً "**الشافعي**" . بشهادة قوله بعدُ "**ولكنه شيخ الشيعة والمجتهد في مذهبهم** " . وهذا تلميح يُشبه التصريح بأنه غير مقتنع بزعم الشهيد أنه شافعي المذهب . وقوله بعد هذا مباشرةً : " **وُلد ....الخ.**" هو استئناف لكلام جديد ، لاعلاقة له بما كتبه الشهيد إليه "**في استدعاء** " . يؤيّد ذلك أن في نهاية العبارة خطأ كبير لا يمكن

---

(16) من ذلك : أن الشهيد هاجر إلى " الحلّة " عندما كان له ست عشرة سنة . وأنه نال إجازة شيخه فخر المحققين وهو في السابعة عشرة . وأنه عندما نال درجة الشهادة كان له من العمر اثنتان وخمسون سنة . راجع فصل (السّرد التاريخي لرحلاته وحياته العلميّة) في : الشهيد الأول حياته وآثاره للشيخ المختاري / 38 ـ 39 . ففيه بحث متين ، اقتضى من المؤلف جهداً كبيراً مشكوراً . بيّن بالتفصيل ما أشرنا إليه من أعمال الشهيد أثناء تلك السنوات الثمان .

(17)

(18) غاية النهاية / 265 .

نسبته إلى الشهيد ، هو قوله : " **وأخذ عن ابن المُطهّر** " أي العلاّمة الحلّي الـذي توفي عام 726 هـ / 1326 م ، أي قبل ورود الشهيد "الحلّة" بالتأكيد . إلا أن يكون المقصود بابن المُطهّر فخر المحققين ، ابن العلاّمة وشيخ الشهيد . وهو أمر بعيد جداً، خصوصاً على ألسنة فقهاء السُّنّة في " الشام " . أضِف إلى ذلك أن إسناد العبارة إلى الشهيد ، فيما كتبه ، يعني أنه لم يكن هو يعرف تاريخ مولده إلا على نحو الإجمال "بعد العشرين وسبعمائة " وهو أمر لا يقلّ بُعداً عن سابقه .

ومع ذلك كلّه ، فإننا نرى أن هذا التاريخ هو الأقرب . وأنه يحلّ كافة الإشكالات التي كانت سبب اعتراضنا على النص المنسوب للشيخ رضي الدين . ولعلّ "**وثلاثين** " فيه من تصحيف النسّاخ ، صوابها : وعشرين . وهو تاريخ نقبله على مضض ، في غياب ما هو أدق وأوثق .

ـ ثالثاً : **في نشأته** . إلى هنا نكون قد حقّقنا بقدر الوسع أن الشهيد قد وُلد في " جزّين " سنة 724 هـ / 1324 م على نحو التقريب . والسؤال التالي ، بحسب التطوّر الطبيعي لعمارة السيرة ، يتناول نشأته الأولى . فأين وعمّن تلقّى في مُقتبَل العمر ؟

النص الوحيد الذي يلتفت ، ولا نقول يُعالج ، إلى هذه النقطة من سيرته ، ورد عرَضاً فيما ذكره حفيدٌ بعيدٌ للشهيد في "**بعض تعليقاته** " ، حيث ترجم للشيخ أسد الدين الصائغ الجزّيني ، واصفاً إياه بأنه " **شيخ الشهيد الأول وعمّ أبيه وأبو زوجته** "[19]. والنص غيرُ مُسنَد. ثم أنّ المترجَم له غير معروف ، ولم يُذكَر في أي مصدر آخَر . وما من حُجّة للبناء عليه سوى ثقتنا بالناقل والمنقول عنه . وعليه فها نحن نُسجّله دون تعليق .

ومع ذلك ، فإننا على ثقة تامّة من أنه تلقّى تأهيلاً علمياً جيداً في وطنه . أو، على الأقل ، قبل أن يشرع في رحلاته العلميّة الطويلة .

---

(19) أعيان الشيعة : 3 / 281 . و "الحفيد البعيد" هو أسد الله الصائغ الحنويهي العاملي.

والدليل على ذلك :

ـ أنه بدأ رحلاته تلك بـ "الحجاز" ، فأدّى فريضة الحج ، فيما يبدو . ثم أقام زمناً ما في "المدينة" ، حيث كتب قسماً من مجموعته الشهيرة في "المدينة " المُنوّرة سنة750 هـ / 1349 م [20] .

والمجموعة ، هذه ، كتابٌ كبير، عمل عليه جامعه مدّة ست عشرة سنة على الأقلّ . أدخل فيه عدداً من الكتب والرسائل النادرة ، وأخباراً متفرقة انتخبها من كتب وأصول القدماء [21] . ما نبتغي الإلفات إليه الآن ، هو أن مجرّد اهتمام الشهيد بهذه التسجيلات ، بما فيها من كُتُب ورسائل ، هو بنفسه دليلٌ على أنه كان قد بلغ مرحلة متقدّمة من الاطلاع والنضج العلمي .

ـ تلقّى أولى إجازتيه من شيخه فخر المحققين في "الحلّة" بتاريخ العشرين من شعبان عام 751 هـ / 1350 م [22] .

ـ أجازه شيخُه عميد الدين عبد المطلب بن محمد ابن الأعرج الحسيني (ت : 754 هـ / 1352 م) في "كربلا" بتاريخ 19 رمضان 751 [23] .

ـ أجازه شيخه نفسه سنة 752 هـ / 1350 م في " الحلّة " بعد أن قرأ عليه الجزء الأول من (تذكرة الفقهاء) [24] .

---

(20) مجموعة الجُباعي . مخطوطة " كتابخانه ملك " في " طهران " ، رقم 604 (لدينا صورة ضوئيّة لها) / 135 / آ .

(21) راجع فهرستاً شاملاً لهذا الكتاب الذي ما يزال مخطوطاً لدى : آغا بزرك الطهراني : الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، ط. بيروت ، دار الأضواء ، الطبعة الثانية لات. : 20 / 112 .

(22) الشهيد الأول : الأربعون حديثاً ، ط. قم . طبعة مصوّرة بالأوفست عن طبعة حجريّة بطهران 1318 هـ . / 2 .

(23) نفسه / 1 .

(24) مستدرك الوسائل : 3 / 459 .

إن امرءاً يصرف جهده إلى ما انصرف إليه وهو يخطّ المجموعة . ويتلقّى ثلاث إجازات من شيخين من أبرز الشيوخ في "الحلّة" آنذاك ، أولاها بعد أن طرقها بسنة ، ـ لابد أن يكون قد تلقّى من قبل تأهيلاً علمياً لائقاً بما يهتم وبما نال .

ولكن : أين ؟

الاحتمال الوحيد الوارد هو في بلده "جزّين " . ولقد سجّلنا قبل قليل ما نقله السيّد الأمين رحمه الله عن أسد الدين الصائغ الجزّيني ، ووصْفه بـ "شيخ الشهيد " . ونُضيف الآن احتمال أن يكون قد حضر على والده . الذي نعرف أنه كان حيّاً سنة 728 هـ / 1327 م ، وهي سنة وفاة شيخه ، أي شيخ الأب ، طومان بن أحمد المناري . فإذا صحّ ماانتهينا إليه في القسم السابق ، من ترجيح أن يكون التاريخ الصحيح لمولد الشهيد هو العام 724 هـ / 1323م ، فهذا يعني أنه كان في الرابعة أو الخامسة بذلك التاريخ . وياليتنا نعرف تاريخ وفاة الوالد ، على الأقل ، لنكون أقدر على الظن ، لا أكثر من الظن ، في هذه الإشكاليّة العسيرة ، فنقول ، مثلاً ، أن والده هو الذي بدأ تعليمه . جرياً على عادة كثيرٍ من العلماء في الاعتناء بأبنائهم . خصوصاً في الظرف التأسيسي الذي كانت عليه "جزين" في ذلك الأوان . حيث كان الأساتذة المؤهّلون لمثل هذه المُهمّة نادرون، وربما معدومون. كما نُذكّر هنا بما قلناه في خواتيم الفصل السابق عن "جزّين " وإمكانياتها العلميّة عشيّة النهضة ، واحتمال أن تكون أكبر بكثيرٍ ممّا نعرف . الأمر الذي ، إن صحّ ، يوسّع من دائرة الاحتمالات في هذا الشأن . فهذه احتمالات ثلاث على هذه الإشكاليّة . لابدّ أن يكون واحد منها ، على الأقل ، صحيحاً . ولكننا عاجزون عن الترجيح بينها لعَوْل المعلومات .

2 ـ في"الحلّة" مهما يكن ، فإنه بتاريخ 20 شعبان 751 هـ / 24 تشرين الأول 1350، أكتوبر م كان في "الحلّة " بدار فخر المحققين محمد بن الحسن الحلّي [25]

(25) الأربعون حديثاً للشهيد ، مصدر مذكور / 2 .

أول أشياخه فيها وأعلاهم مكانةً وأوسعهم شُهرةً . ولقد عرفنا ممّا فات قبل قليل أنه في السنة الفائتة كان في " المدينة " ، حيث كتب قسماً من مجموعته . واستناداً إلى هذين التاريخيَن المُحقّقينَ بوسعنا أن نقول أنه وصل إليها ، بعد أن حجّ وزار قبر النبي (ص) ، في إحدى تيْك السنتين لا يعدوهما . ولنلاحظ أن هذه هي أول مرّة يصِل بنا البحث في هذه السيرة إلى تاريخ مؤكّد ، وعلى درجة مقبولة من التحديد . والفضل في هذا للتقاليد الأكاديميّة الرّاسخة التي درج عليها سلفنا الصالح .

كانت "الحلّة" يوم دخلها ابن مكّي، أهمّ حاضرة علميّةٍ شيعيّةٍ إماميّةٍ وأكثرها حيويّة . ما تزال تنعُم بالحضور البهي لابنها العظيم الحسن بن يوسف بن المُطهّر الحلّي ، الأكثر شُهرةً بالعلاّمة الحلّي (648 ـ 726 هـ / 1250 ـ 1325 م) . الذي ملأ الدنيا وشغل الناس بعلمه وتصانيفه ونشاطه في غير فنٍ وعلمٍ وميدان . وكان عامّة الأساتذة والشيوخ فيها آنذاك من تلاميذه . كما كانت ، أعني "الحلّة" ، أمينةً على النهج الأصولي ـ العقلي ـ الاجتهادي ، الذي أسّس له وشاده فأحسن التأسيس والإشادة ابنُها العظيم الآخر محمد بن إدريس الحلّي (ت : 598 هـ / 1201م) ثم جعفر بن الحسن بن سعيد المعروف بالمحقّق الحلّي (ت: 676هـ/1277م) . وليحتفظ القارئ بهذه المعلومة في ذهنه ، لحاجتنا إليها فيما يأتي ، خصوصاً حيث سنستعرضُ العالَم الفكري لبطل هذه السيرة وتكوينه العقلي ـ المنهجي .

غاص الشهيد عميقاً في المجتمع العلمي لـ "الحلّة " إلى حدّ الاندماج . كأنما التقى الشاب الطُلَعَة ، ابن "جبل عامل" المأزوم الباحث عن هويته ، بما يحمل من أشواق علميّة مشبوبة ، . بالنبع الثّر فكرع منه حتى الثُمالة . وكأنه يبتغي أن يستنفد إمكاناته العلميّة . يشهدُ لذلك عديد أساتذته وشيوخه فيها ، وهم نُخبة تلاميذ العلاّمة . وهم :

ـ فخر المحقّقين محمد بن الحسن الحلّي ، ابن العلاّمة . سمع منه الحديث [26]

(26) الأربعون حديثاً للشهيد / 2 و 25 .

وقرأ عليه (إيضاح الفوائد في شرح مُشكلات القواعد) للمُجيز ، وأصله لوالده . وهو كتاب في الفقه الاستدلالي . قال فيه الشيخ بهاء الدين العاملي (ت : 1030 هـ / 1620 م) : "**لم يُصنّف في الكُتُب الاستدلاليّة مثله** "[27] . وقد كتب الاستاذ لتلميذه إنهاءً وإجازةً برواية كُتبه وكُتب والده وجميع مرويّاته ، نصّها في ملحقات الكتاب . والظاهر أن قراءة هذا الكتاب استمرّت مدّة طويلة ، لأنه كتاب كبير من مجلّدين .

ـ السيّد عميد الدين عبد المطلب بن الأعرج الحسيني (ت : 754 هـ / 1353 م) . سمع منه الحديث أيضاً [28]. وقرأ عليه الجزء الأول من كتاب (تذكرة الفقهاء) للعلاّمة ، وأجاز له باقي الأجزاء سنة 752 هـ / 1351 م [29] . والظاهر ان نص إجازته له مفقود. وقد ظلّ الشهيد يذكر فضل شيخه هذا بالتقدير والعرفان ، وله في هذا نص اقتبسه الشيخ حسن بن زين الدين الجُباعي (959 ـ1011 هـ / 1551 ـ 1602 م) في إجازته الكبيرة . قال :

" ومن مشايخي الذين استفدتُ منهم ، مَن أراش جناحي ، وأذكى مصباحي، وحباني نفائس العلوم ، وأبرأ داء نفسي من الكلوم . وهو درّة الفخر وفريدة الدهر مولانا الإمام الرباني، عميد الملّة والحق والدين، أبو عبد الله بن المطلب بن الأعرج ، أدام الله شرفه ، وخصّ بالسلام سلفه . فهو الذي خرّجني ودرّجني ، وإلى ما يسّر الله من العلوم أرشدني . فالله يجازيه أحسن الجزاء بمنّه وكرمه " [30].

ـ السيّد عبد الله بن الأعرج الحسيني (؟) يُذكَر في عِداد شيوخه دون تفصيل [31] .

---

(27) الذريعة : 2 / 496 ـ 97 .

(28) الأربعون حديثاً / 1 .

(29) حسين النوري : مستدرك الوسائل ، ط. طهران ، المكتبة الإسلاميّة لات : 3 / 459 .

(30) بحار الأنوار : 109 / 9 ـ 10 .

(31) أمل الآمل :2/ 164 ، رياض العلماء : 240/3 ، أعيان الشيعة : 8/ 69 .

والظاهر أنه كان من أهل الحديث . ولم تُذكر له إجازة للشهيد .

ـــ محمد بن القاسم ، المعروف بابن مُعيّة الديباجي الحلّي (ت: 776 هـ / 1374 م) . والظاهر أنه سمع منه .

وقد سجّل محمد بن علي الجباعي في مجموعه جملة من سماعات الشهيد عن ابن مُعيّة. نقلها بعينها المجلسي في (بحار الأنوار) [32] . كما روى عنه الشهيد في كتابه (الأربعون حديثاً) [33] . ويجدُ القارئ نصَّ سماعه الأخير ، وما أُلحق به من إجازة في ملحقات الكتاب . وهو مؤرّخ بـ " **يوم السبت حادي عشر شوال من سنة أربع وخمسين وسبعمائة** " . وله منه إجازة أخرى ضافية ، ذكرها الشيخ حسن بن زين الدين الجُباعي في إجازته الكبيرة نفسها ، فقال :

" **... وعن السيّد تاج الدين بن مُعيّة ، عن جمّ غفير من علمائنا الذين كانوا في عصره . وأسماؤهم مسطورة بخطّه [** يعني بخط ابن مُعيّة **] في إجازته لشيخنا الشهيد الأول . وهي عندي** " [34] .

كما أنه تلقّى منه إجازة أثناء زيارته الأخيرة لـ "الحلّة "، اقتبسها المُحدّث النوري ، نقلاً عن مجموعة الشهيد . قال :

" ... **قد أجاز لي هذا السيّد مراراً . وأجاز لولديّ أبي محمد طالب وأبي القاسم علي ، في سنة ست وسبعين وسبعمائة ، قبل موته . وخطّه عندي شاهد** " [35] .

ويُفهمُ ضمناً من قوله " أجاز لي هذا السيّد مراراً " أن من إجازاته له ماهو غير مذكور أو معروف .

---

(32) بحار الأنوار : 107 / 182 .

(33) الأربعون حديثاً / 4 ـ 5 .

(34) بحار الأنوار : 109 / 8 .

(35) مستدرك الوسائل : 3 / 439 .

ــ أبو الحسن ، علي بن أحمد بن طرّاد المطار آبادي (ت: 762 هـ / 1361 م) . أجازه سنة 754 هـ / 1353م . وقد أشار إلى روايته عنه في إجازته لابن الخازن الحائري [36] وفي إجازته لتلميذه محمد بن عبد العلي بن نجدة [37] . ووصفه بـ " شيخنا " فيما نقله عنه الجُباعي في مجموعته [38] .

ــ علي بن أحمد ابن المزيدي الحلّي (ت : 757 هـ / 1356 م) . ذكره في إجازته لابن نجدة [37] . وأرّخ لوفاته فيما نقله عنه الجُباعي [38] . والظاهر أن له منه إجازة بالرواية ولم يقرأ عليه أو يسمع منه .

ــ أبو محمد، الحسن بن أحمد ابن نُما الحلّي (؟) . روى عنه الشهيد في كتابه (الأربعون حديثاً) . ووصفه بـ "شيخ الشيعة ورئيسهم في زمانه" . سمع منه " في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة بالحلّة " [39] .

ــ جمال الدين ، عبد الله بن محمد الحسيني العُرَيضي الخراساني (؟) . قال الشهيد في إجازته لابن الخازن :

> **" وأمّا المعاني والبيان ، فإني قرأتُ كتاب الفوائد الغياثيّة وشرحها للسيّد المرتضى [على] العلاّمة ، ملك العلماء والأدباء ، جمال الدين عبد الله بن محمد الحسيني العُرَيضي الخراساني ، عليه بأسره . ورويتُ عنه جميع مرويّاته ومُصنّفاته. وهو أيضاً يروي عن الإمام جمال الدين [محمد بن الحسن] ابن المُطهّر . وأروي عنه كتاب مفتاح الفلاح للإمام السكّاكي ، بحق روايته عن السيّد اليمني ، بإسناده إلى السكّاكي " [40] .**

---

(36) بحار الأنوار : 107 / 188 .

(37) نفسه / 196 .

(38) مجموعة الجباعي / 137 ، بحار الأنوار : 107 / 205 .

(39) الأربعون حديثاً / 3 .

(40) بحار الأنوار : 107 / 191 . 92 .

ـ محمد بن أحمد بن أبي المعالي الموسوي (ت : 769 هـ / 1367 م) . وهو من تلاميذ ابن مُعيّة . ذكره الشهيد فيما نقله عنه الجُبعي مؤرّخاً لوفاته [41] . كما روى عنه في (الأربعون حديثاً) [42] . والظاهر أنه سمع منه ولم يقرأ عليه .

فهؤلاء التسعة هم عُمدة أساتذة وشيوخ الشهيد في " الحلّة " . على اختلاف أقدارهم وتفاوت أعمالهم . ولن يكون من العسير على القارئ الحصيف ، الذي وعى ما سجّله هو من انطباعات عن بعضهم ، وما ذكره ممّا قرأ عليهم ، أن يرسم خطاً بيانياً ، يضع فيه كلاً منهم في الموضع المناسب لدرجة فضله في بناء هذا الشاب ، القادم من بقعة لم تكن حتى ذلك الأوان شيئاً مذكوراً ، اسمها "جبل عامل" . ولكنها ستتربّع بعد قليل بفضله على إحدى القِمم في التاريخ الثقافي للتشيّع الإمامي .

3 . بَدء صلته بعلي بن المؤيّد الخراساني . لن نغادر " الحلّة " مع الشهيد ، قبل أن نقِف وقفةً مّا على بداية صلته بابن المؤيّد . لِما لهذه الصلة من دلالات خطيرة ستكون موضع اهتمامنا فيا يأتي . وأيضاً لأن هناك من الأدلّة ما يكفي على أنها بدأت عندما كان ما يزال في " الحلّة " .

أعلى تلك الأدلّة سنداً هو ما ورد في (مختصر نسيم السّحَر) . حيث قال :

> **" فبينما هو في الحلّة إذ قد ورد عليه مكاتيب من علي بن مؤيّد سلطان العجم وفيها الحثّ والالتماس منه على الحضور لديه للتشرّف بقدومه والانتفاع بعلومه . وأكثر في التلطّف والتودّد له فيها. فأجابه واعتذر له بما يناسب الحال والمقال "** [43] .

---

(41) بحار الأنوار : 107 / 206 .

(42) الأربعون حديثاً / 5 . ترجم الحرّ للموسوي في أمل الآمل : 2 / 235 .

(43) مختصر نسيم السحر (نصه في ملحقات الكتاب) . وقد أورد الشهيد الثاني (ق : 965 هـ/ 1558 م) كلاماً مشابهاً جداً لعبارة المختصر ، ممّا يدل على أن أصله كان عنده أو اطلع عليه . انظر : الروضة البهيّة ، ط. بيروت ، لات. : 1 / 24 .

وعلي بن المؤيّد العلوي ، نسبةً إلى الإمام علي (ع) ، لأن مؤسّس الأسرة عبد الرزاق بن فضل الله باشتيني (حكم : 737- 738 هـ / 1336 ـ 1337) زعم أنه ينتسب إليه ، هو من أسرة من الثوّار من "سبزوار" عُرفت بـ (السّربداريين) أي : جدير بالشنق / على المشنقة . قاد مؤسّسُها عصياناً على والي "خراسان " المغولي . وهو نفسه كان جابي ضرائب بخدمته .

وبالنتيجة استولى على مدينة " سبزوار" وما والاها . ثم على " نيسابور" و "أستراباد " وغيرهما . وأثناء نصف قرن توالى على السلطة منهم اثنى عشر (سلطاناً) . آخرهم صاحبنا علي بن المؤيّد (حكم : 766. 783 هـ / 1364. 1381 م) . وهو أطول أفراد الأسرة حكماً . وهذا يصلح دليلاً على حنكته ودهائه . ولكن كان من سؤ حظه أن انقرضت الدولة في عهده ، باستيلاء تيمور على البلاد .

من المؤكد أن مصدرَ ما نجده في مختلف المصادر عن رسالة ابن المؤيّد الأولى إلى الشهيد مصدرها كتاب (نسيم السّحَر) المفقود . فذكرها في مختصره دليل على أنها مذكورة أيضاً في الأصل . وبما أن مؤلف هذا الكتاب هو من تلاميذ الشهيد ، فيمكن القول أن مصدره هو الشهيد نفسه . وهذه نتيجة منطقيّة ، ما دام موضوعها رسالة شخصيّة .

لكننا نعرف أنه عندما تسلّم ابن المؤيّد السلطة لم يكن الشهيد في " الحلّة " بالتأكيد . على أن هذه الملاحظة لاتتجه إلى نفي الخبر أصلاً . خصوصاً وأن سنده قوي (من الشهيد ، إلى تلميذه البتديني ، إلى نسيم السّحَر ، إلى مختصره) . بل نستظهر منها أن الرجل عندما كان يُهيئ نفسه لاستلام السلطة ، بينما كان أسلافه يتساقطون الواحد تلو الآخَر ، كان هو يُعدّ لأمر كبير، شبيه بما نجح فيه الشاه إسماعيل الصفوي الأول بعد قرن ونصف .

هذا التصوّر يناسبُ رجلاً على ما أشرنا إليه من دهاء وحنكة . ويناسبُ ثورةً قامت على قاعدةٍ مطلبيّةٍ جماهيريّةٍ ، هي مقارعة الظلم والظالمين . ونحن نعرف أن التشيّع

كان في "إيران" في ذلك الأوان وبعده ، شعار الطبقات المسحوقة تحت أقدام دول الطوائف والإقطاعيين والمغامرين العسكريين . ولذلك رفعَ مؤسسُ الدولة نسبه إلى الإمام علي(ع) . وعندما تسلّم ابن المؤيّد السلطة أعلن التشيّع الإمامي في دولته . وكان "**يضرب السكّة باسم الأئمة الاثنى عشر ويخطب بأسمائهم** "[44]. من هنا نرى في الفترة التي حكم فيها السربداريون ، وخصوصاً آخرهم ابن المؤيّد ، إحدى تعبيرات شعوب الهضبة الإيرانيّة عن التحفّز العميق الذي يعتمل داخلهم باتجاه التشيّع . ذلك التحفّز الذي وجد التعبير النهائي في الدولة الصفويّة وحتى اليوم .

الآن نسأل :

لماذا أبى الشهيد أن يُلبّى الدعوة الكريمة الموجّهة إليه . ولم يتحرّك فوراً باتجاه "إيران" ، كما فعل من قبلُ والدُ شيخه فخر المحققين ، العلاّمة الحلّي الحسن بن يوسف بن المُطهّر ، حين لبى دعوة أولجايتو محمد خدابنده (حكم : 703ـ 716 هـ / 1303 ـ 1316 م) ؟

نطرح السؤال لا لأنّنا نملك الجواب . فهذا الأمر ومثله علمُه عند المُطّلع على السرائر سبحانه وتعالى . وإنما ليودعه القارئ ذهنه . فلعلّ الجواب عليه خبيء في بعض ما سيأتي من سيرة الشهيد الحافلة . وسنقِف فيما يأتي على دعوة ابن المؤيّد الثانية له ، وهو في خِضمّ صراعه المكتوم ، المُتعدّد الجوانب ، مع الظروف المُستحيلة المُحيطة به ، حيث سنُعالجُ هذه الإشكاليّة بما لدينا .

4 . ما بعد " الحلّة " / رحلاته العلميّة . بتاريخ "يوم الأربعاء لاثنتي عشر ليلة خلت من شعبان سنة سبع وخمسين وسبعمائة " كتب الشهيدُ في " الحلّة " إجازةً لجمعٍ غفيرٍ من تلاميذه ، بينهم عددٌ من العامليين ، قــرأوا عليه كتاب

---

(44) ابن عربشاه الدمشقي ، أحمد بن محمد : عجائب المقدور في أخبار تيمور ، ط. مصر 1305هـ / 1981 م / 20 .

(عِلل الشرائع) للشيخ الصدوق [45]. وهي أول إجازةٍ صدرت عنه. ممّا يدلّ على أنه ، بعد أن أقام فيها سبع أو ثماني سنوات مُتفرّغاً للتحصيل ، قد غدا من أساتذتها البارزين وصاحب حلقة .

ثم أنّه ، بتاريخ منتصف ذي القعدة من السنة نفسها ، أتمّ تصنيف الجزء الثاني من كتابه الهامّ (غاية المُراد في شرح نُكَت الإرشاد) في "الحلّة " . وهذه آخرُ وثيقة تتعلّق بأيام إقامته لغرض الدراسة في تلك المدينة ، التي بَنَتهُ علميّاً وعقليّاً ، بما امتازت به من نهج عقليّ اجتهاديّ . والظاهرُ أنه على الأثر غادرها نهائياً . ولم يـرَها إلا بعد ثماني سنوات ، حيث فرغ من تصنيف كتابه (المنسك الكبير) فيها سنة 765 هـ / 1363 م [46]. ثم أنّه زارها بعد زهاء العشرين سنة ، حيث لقي للمرّة الأخيرة أستاذه ابن مُعيّة ، واستجازه لنفسه ولولديه محمد وعلي [35] .

من " الحلّة " انطلق في رحلة واسعة . أقام أثناءها مدّةً غير معلومة في "بغداد" . ويقول صاحبه وصديقه الجَزَري أنه فيها " **قرأ القراءات على أصحاب ابن مؤمن . وذكر لي ابن اللبّان أنه قرأ عليه . وهو إمام في الفقه والنحو والقراءة** " [47] . ولكننا نلاحظ بارتياب خلوّ الإجازات الكثيرة التي صدرت عن الشهيد فيما بعد من الإشارة إلى شيء من ذلك . مع أنه حرِص فيها ، كما تقضي التقاليدُ في هذا النطاق ،

---

(45) عبد الله أفندي الأصفهاني : رياض العلماء وحياض الفضلاء ، ط . قم 1401هـ : 3 / 374 -75 .

وقد كانت نسخة الأصل من هذه الإجازة بخط الشهيد لدى مصنف الكتاب على ظهر نسخة (علل الشرائع) التي سمعها المُجازون . وهي من كنوزنا المفقودة .

(46) رسائل الشهيد الأول ، ط. قم 1423 هـ / 237 .

(47) غاية النهاية : 2 / 265 .

على استيفاء تاريخه العلمي [48] . كما استجاز شمس الأئمة الكرماني ، محمد بن سعيد القرشي ، الفقيه الشافعي البارز . ونص إجازته له في (بحار الأنوار) . وهذه صدرت "**في أوائل جُمادى الأولى لسنة ثمان وخمسين وسبعمائة** " [49] .

من "بغداد" انطلق في رحلة علميّة واسعة . زار أثناءها " دمشق " و "مقام الخليل إبراهيم" و "مصر" و "مكّة " و "المدينة" . والظاهر أنه أقام في كل بلد من هذه مدّة ما ، لأنه يقول أنه قرأ في رحلته هذه على أربعين شـيخاً من علماء السنّة ، كما قلنا قبل قليل . والقراءة تقتضي مكثاً مّا . وهذا واضح .

بالإضافة إلى أولئك الثلاثة ، فإن الشهيد يورد في إجازتيه لابن الخازن الحائري وتلميذه ابن نجدة أسماء ثمانية من علماء السّنّة استجازهم أو قرأ عليهم أثناء رحلاته ، هم :

ـ الأول : القاضي برهان الدين إبراهيم بن جماعة (ت : 790 هـ / 1388 م) ، قرأ عليه كتاب (الشّاطبيّة) بـ " مصر" .

ـ الثاني : عزّ الدين عبد العزيز بن جماعة (ت : 767 هـ / 1365 م) ، قاضي قضاة "مصر" . أجازه برواية (الكشّاف) للزمخشري في "المدينة" ، "**يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجّة سنة أربع وخمسين وسبعمائة** " (752 م) .

ـ الثالث : عبد الصمد بن الخليل البغدادي . ولا ذكر لِما قرأه عليه أو استجازه به . والظاهر أن لقاء الشهيد بهذا كانت في "بغداد " بشهادة نسبة المُجيز إليها .

ـ الرابع : أحمد بن الحسن الحنفي النحوي . فقيه الصخرة الشّريفة بـ " بيت

---

(48) على أن الأمانة تقتضي الإشارة أيضاً إلى قوله في إجازته لابن الخازن ، أنه قرأ على " أربعين شيخاً من علماء السنّة " (بحار الأنوار : 107 / 190) لم يذكرهم جميعاً بأسمائهم . ومع ذلك يبقى في النفس من هذه شئ . لا أقلّ لأن هذه قراءة وليست مجرد إجازة .

(49) بحار الأنوار : 107 / 183- 84 .

المقدس" روى عنه (الخلاصة المالكيّة) .

ـ الخامس: محمد بن عبد الله البغدادي الحنبلي. روى عنه (صحيح البخاري) . وقرأ عليه (الشاطبيّة) . والظاهر أن قراءته عليه كانت في "بغداد " أيضاً .

ـ السادس: محمد بن بكتاش التُستري البغدادي الشافعي ، مُدرّس "المدرسة النظاميّة " روى عنه صحيحي البخاري ومُسلم .

ـ السابع: محمد بن الأعزّ الحنفي . روى عنه (صحيح البخاري) .

ـ الثامن : محمد بن عبد الرحمان المالكي ، المُدرّس بـ "المُستنصريّة" . روى عنه (صحيح البخاري) .

بهذه المبادرة غير المُتوقّعَة سنّ الشهيد سُنّةً حسنة . سار عليها فقهاء "جبل عامل " من بعده مدّة قرنين . وما انكسرت إلا بعد وبسبب قتل العثمانيين الشيخَ زين الدين بن علي الجُباعي ، الشهير بالشهيد الثاني سنة 965 هـ / 1557 م .

وحريّ بنا ، وقد وصلنا إلى هذه المرحلة من البحث ، أن نتساءل عمّا تُخبّئه هذه الرحلة الواسعة . لأنها تبدو لنا ابتداعاً خارجاً عمّا هو متوقّعٌ من مثله . خصوصاً وأن ذاكرته تعي ، ولا ريب، الفظائع المهولة التي ارتُكبت في " كسروان " تحت شعار مذهبي . على أن العمل بذاته يستحق منّا كل تنويه . لأنه يُشير إلى الأشواق العلميّة المشبوبة التي عمرت نفس صاحبه . ويدلّ على ما تمتّع به من انفتاح ذهني مُدهش على المعرفة . بحيث تجاوز في طلبها حواجز وأسواراً نعرف كم كانت عالية متينة ، مزروعة بالأشواك المسمومة .

فلنلاحظ ، أولُ ، أنها إحياء لتقليد علمي عريق . درجت عليه أجيال بعد أجيال من أهل العلم ، فقهاء ومُحدّثين. لكنه غدا مهجوراً في زمانه . والتقليد يرجع إلى ما قبل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . أي إلى ماقبل استواء المذاهب على مواقعها ، واكتسابها بُنىً نهائيّة مُغلَقَة . ومذ ذاك ، وبسبب البُنى المنهجيّة المُحكمَة ذات الطابع الجغرافي ، أخذت الحركة الفكريّة ، خصوصاً في إطار الحديث والفقه ، تدور في

محاور مُنفصلة . لكلّ منها قوانينه المختلفة الخاصة . وكانت من النتائج التي ترتبت على هذا التطوّر المعكوس ، أن أصبح التواصل بين أرباب المذاهب جزءً من الماضي الذي لن يعود . وهي التي كانت من قبل عنصراً من مستوىً رفيع في تقاليد التحمّل والطلب . بحيث أن لقب (الرُّحَلَة) ، إذ يُقرن باسم مُحدّ ث أو فقيه ، كان يدلّ على تنويهٍ خاص .

من البيّن أن الشهيد كان يتطلّع من رحلته هذه إلى أمر جَلَل . وإلا لماذا يخوض تلك المغامرة غير المأمونة . خصوصاً أنه أول فقيه شيعي يركبُها ، بعد أن وصلت الحالة المذهبيّة إلى مُستقرّها . وخصوصاً أكثر أنه، على ما نُرجّح، كان يتظاهر أثناءها أنه شافعي[50]. أي أنه كان يُحاذر من أن تُعرف شخصيّته على حقيقتها.

تُرى هل كان يصدر في هذا كلّـه عن توقٍ شخصيّ . ونحن نعـرف جيّداً أيَّ طُلَعة كان ؟ أم عن منهج آمنَ به ، كما فعل خلَفُه الشهيد الثاني بعـده بما يقلّ عن قرنين من الزمان ؟ [51] أم أن الأمر كان ، بكل بسـاطة ، جـزءاً من خطّةٍ يعمل عليها ؟

أسئلة نطرحها ، مع علمنا بأننا لن نحصل على جواب شافٍ عليها . لأنها سرّ إنسان عظيم ، عاش قبل ما يزيد على الستة قرون . منح عمره لمطالب ومقاصد كبيرة جدّاً . ولكننا نظن أن الجواب الصحيح ضائع بين تلك الاحتمالات الثلاثة .

مهما يكن ، فإنه بما اجترح قد عبّد لبلده طريقاً سار عليه من بعده مدّة قرنين من الزمان . أثناءها كان " جبل عامل " مُنفتحاً على المراكز العلميّة من حوله .

---

(50) ما من نص على ذلك . ولكن هكذا نسب نفسه في استدعاء كتبه إلى صاحبه وصديقه الجزري (غاية النهاية : 2 / 265) . وفي أثناء محاكمته قال لقاضي " دمشق " الشافعي : " إني شافعي المذهب . وأنت إمام هذا المذهب . فاحكم عليّ بمذهبك " (البحراني : لؤلؤة البحرين في الإجازة لقرتي العين ، ط . النجف 1386 هـ / 1966 م / 147) .

(51) اقرأ من الترجمة التي علّقناها له الصفحات 148 ـ 151 في كتابنا(ستة فقهاء أبطال) .

بحيث أنّ رحلات فقهائه الكبار إلى المراكز العلميّة السُنيّة في المنطقة كانت تقليداً متصلاً . لكنه ، من أسف ، كان انفتاحاً من جانب واحد . فما سمعنا أبداً برحلة سلكت الطريق المعاكس .

5 ـ في " جِزّين " لسنا نعرف على نحو اليقين متى بالتحديد آب إلى بلده . فنحن بمغادرتنا "الحلّة" معه ، قد غادرنا نهائياً نعيم الوثائق المؤكّدة المُتسلسلة لتحركاته وأعماله ، المُسَجّلة فيما تلقّاه من إجازات وما صنّفه من كُتُب . والتوثيق الوحيد توثيقاً كاملاً الذي حصلنا عليه من رحلته ، هو لقاؤه شمس الأئمة الكرماني بعد خروجه من "الحلّة " [49] . ونذكر ، بالإضافة إلى مَن التقى بهم في رحلاته ، الإشارةَ الغامضة لبعض أعماله أثناءها ، التي أوردها ابن حجر العسقلاني في الترجمة الموجزة جِدّاً التي علّقها له[52].

عام 760 هـ / 1358م تخميناً عاد الشهيد إلى بلده ، مُتوّجَ الهام بمجد العلم . حتى أن كاتب السيرة المُبدع محمد باقر الخوانساري (ت : 1313هـ / 1895 م) وصف فضله فقال :

> " **وكان [** يعني الشهيد **]** ، **بعد مولانا المحقق على الإطلاق ، أفقه جميع فقهاء الآفاق ، وأفضل مَن انعقد على كمال خبرته وأستاذيّته اتفاق أهل الوفاق . وتوحّده في حدود الفقه وقواعد الأحكام مثل تفرّد شيخنا الصدوق في نقل أحاديث أهل البيت الكرام عليهم السلام** .....الخ" [53] .

تلك الرُتبة كانت معروفة له في زمانه ، حتى خارج حدود مذهبه . يشهدُ لذلك

---

(52) لسان الميزان ، ط. بيروت 1390هـ/1971م : 5 / 390 .

(53) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ، ط . قم 1392 هـ : 7 / 3 . 4 . و " المُحقق على الإطلاق " هو جعفر بن الحسن بن سعيد الحلّي (ت: 676 هـ/ 1277 م) .

قول صديقِه الجَزَري فيه : "**شيخ الشيعة والمُجتهد في مذهبهم** " [54] . وبالنسبة لحجم مُشاركته بوصفه مُحدّثاً ، فقد أتيح لي أن أقِف في "مكتبة أميـر المؤمنين العامّـة " في " النجف الأشرف " على سلسلة شاملة لطُرُق الحديث عند الشيعة الإماميّة ، وضعها اثنان من معارف فقهائها . وفيها يظهر بوضوح أن أغلب الطرُق تلتقي عنده . وهذا دليل ولا أبين على قوّة حضوره مُتحمّلاً ومحدّثاً .

والقارئ العارف بأزمة "جبل عامل " في ذلك الأوان ، بتأثير الاحتلال الذي ران عليه قرابة قرنين من الزمـان ، كان أثناءها مقطوع الصلة بمصادر ثقافتة [55]. ، لن يجد أدنى صعوبة في تصوّر وقع ذلك الحدَث الساطع على أهله . فلأول مرّة يكون لـ "جبل عامل" مَن يكون له حضور القطب . بما ينطوي عليه معنى "القطب" من قوّة جذب نحو المركز ، حيث تكمن الثقافة المأزومة . فلنتمعّن الآن ، في أن قسطاً أساسياً من أزمة الجبل يعود إلى القطع مع تاريخه الخاص ومع ثقافته الخاصة ، بسبب الاحتلال . وها قد جاء الآن الرجل ــ الرمز ، بما يحمله من ثقلٍ علميّ . هو خلاصة نقيّة للثقافة إياها . فلا عجب في أن تنعقد عليه الآمال في تحريره من أزمته . وفي تحريك الطاقة المخزونة في ثقافته إلى موقع فاعل .

ورُبّ قـارئ حصيفٍ يتسـاءل الآن ، بعـد أن قرأ الفقـرة السابقة : من أين استفدنا هذا التحليل الدقيق ؟ خصوصاً وأننا نشـكو من نُـــدرة الوثائق في هذه المرحلة من سـيرة ابن مكي .

حقّ أنه ما من وثيقة تقول ذلك ، ولا شيئاً منه ، على نحو صريح ومباشر. بل إننا لانتوقّع ولا نطمع بما هو أقلّ . ذلك لأننـا نعرف جيداً بؤسَ "جبل عامل" وانقطاعَــه

---

(54) غاية النهاية : 2/ 265 .

(55) للتفصيل فيما يخص هذه الملاحظة المُجملَة ، نرجو الرجوع إلى القسم الثامن من الفصل الثالث في كتابنا (جبل عامل بين الشهيدين) / 89 - 104 .

وخموله آنذاك . وإنما نقرأ التاريخ بطريقة ارتجاعيّة ، أعني : من المستقبل إلى ماضيه الحاضر . بحيث نفهم الحاضرَ من صيرورته المستقبِلة . تماماً مثل أن ترى صورة طفل صغير رقيق الجسم ، ثم أخرى له وقد غدا شاباً فارع الطول متين البنيان . فتقول ، إنه بين هاتين قد تلقّى عناية صحيّة جيّدة ، وأنه تقبّل هذه العناية قبولاً حسناً . وهذه نتيجة صحيحة ، مع أنك لا تملك الدليل المباشر عليها . وإنما تتوسّل طبيعة الأشياء كما تقضي بها قوانينها . وسنقِف فيما يلي من هذا البحث على مختلَف معالم وإمارات العلاقة المُميّزة التي قامت بين الشهيد وأهل "جبل عامل" . وعلى إنجازاته التاريخيّة في غير ميدان .

كل شئ يدلّ على أنه مع عودته واستقراره في وطنه ، قد انصرف بكُلّيّته إلى العمل . وما عتّمت تلك القرية الهادئة أن غدت خليّة عمل دائب ، تعجّ بالطلاب الطامحين ، القادمين من البقاع القريبة والبعيدة .

كانت تلك أول مرّة يكون فيها "جبل عامل" مركزاً لعمل كبير . ومن أسف فإن الكثير جِداً من تفصيلات تلك الحركة الرائعة ، التي يعود إليها الفضل في بعثٍ هائل لم يتوقف ، ولم تزل آثاره ماثلة حتى اليوم ، خصوصاً بعد أن انداح بعيداً عن حدوده الجغرافيّة . ، قد ضاعت ربما إلى الأبد . ولولا القليل الذي حفظته لنا تقاليد إجازات القراءة والرواية ، لمَا تمكّنّا اليوم من أن نتخيّل ، أو حتى أن نتساءل عمّا جرى في تلك الأيام المجيدة . لأننا لن نملك سبباً للتساؤل . وحتى كتاب (أمل الآمل في علماء جبل عامل) للحرّ العاملي ، الذي وضعه مُصنّفه لغرض إحيائي ، هو الحِفاظ على الذاكرة النهضويّة حيّة ، بعد أن تشتّت رجالها في الآفاق . ، فإنه لا يُسعفنا بالكثير في هذا النطاق . وذلك ، أولاً ، بسبب الفترة الزمنيّة الطويلة التي تفصل بين عصر الشهيد وعصر الحرّ . وهي تناهز الأربعة قرون . وثانياً ، بسبب الإيجاز المُخلّ أحياناً ، بل غالباً ، والفقر في التفاصيل ، الذي طبع أسلوب الحرّ في هذا الكتاب . وإننا نشكر الله تعالى على أنه التزم ، على الأقلّ ، وإلى حدّ لا نعرفه ، بالقول أن هذا المُترجَم له أو

ذاك "**من تلاميذ الشهيد** " أو "**يروي عن الشهيد** " . وهما عبارتان تؤدّيان معنىً واحداً عادةً ، أو حين لا يقوم دليل على العكس .

لا بُدّ لنا من القول، أن هذا الالتزام، إن كان الحرّ قد التزم بـه بالفعل، له دلالته غير المباشرة أيضاً. من حيث أنه يُشير إلى أن القراءة على الشهيد، أو الرواية عنه، كانت امتيازاً يستحقّ التنويه . وما من ريب في أن الحرّ فيما أتاه هنا يُعبّر عن موقفٍ عام . وضعَ الشهيدَ وحركته ومَن اتصل به في مكانة مرموقة . حتى بعد أن نُسيَت الأحداث وضاعت الأسماء.هكذا تُعبّر الثقافة المُنحدرة من السلف عن صلابة عودها وجبروتها . حتى بعد أن يسقط التاريخ وتنهار الذاكرة الحدَثيّة الواعية وتتلاشى تحت وطأة الزمان والأحداث .

حفظت لنا نصوص الإجازات و (أمل الآمل) أسماء كثيرة ، وُصف كلّ من أصحابها بأنه "**من تلاميذ الشهيد**" أو "**يروي عن الشهيد** " . منهم العامليّون ، والكركيّون ، نسبةً إلى بلدة "كَرَك نوح" المعروفة في "لبنان" ، والحلبيون ، والحليّون ، نسبة إلى مدينة "الحلّة " في "العراق" . وإلى أحد هؤلاء التلاميذ الحلّيين ، المقداد بن عبد الله السّيّوري (ت : 826 هـ / 1422 م) ، يعود الفضل في تسجيل التفصيلات المُروّعة لمقتل الشهيد في "دمشق" . ولكن ، من جهة أخرى ، هناك بالتأكيد أسماءٌ كثيرة قد ضاعت ، ربما إلى الأبد . وما نزال كلما تابعنا البحث والتنقيب ، أو عثرنا على مصدر مفقود ، نقعُ على أسماء جديدة .

من غرائب الحُرّ العاملي ، وما أكثرها ، أننا لانجد في الجزء الأول من كتابه ، المُخصّص لعلماء "جبل عامل" ، أي ترجمة مُستقلّة لأحدٍ من تلاميذ الشهيد أو الراوين عنه . مع أنه ذكر السيّد حسن بن أيوب بن نجم الدين الحُسيني، وهو من أبرز هؤلاء التلاميذ ، عَرَضاً [56] . ولكنه في الجـزء الثاني ، وهو لعلماء الشيعة من كافة الأقطار ،

---

(56) أمل الآمل: 1 / 45 و138. مع ضرورة ملاحظة أنه في المرتين يقول ما مضمونه أنه "يروي عن الشهيد" .

يورد أحد عشر اسماً وصفهم بأنهم " **من تلاميذ الشهيد** " أو "**يروي عن الشهيد** " . هذه المُفارقة أمرٌ غير معقول ، إذا نحن اتخذنا من مضمونها دليلاً على الحقيقة ، أو أنها تعكس صورةً أمينةً عن الواقع . كما أنه لا يمكن إرجاعها إلى عَوْل المعلومات لديه ، بعد أن ذكر ابن أيوب ، ولا إلى مزاجيّاته المعروفة . إذن ، فهي ، بكل بساطة ، خطأٌ منهجي ، على الأقل فيما يتعلّق بابن أيوب . خصوصاً وأنه قال في مقدمة كتابه :

" **وقد سمعتُ من بعض مشايخنا ، أنّه اجتمع في جنازة في قرية من قُرى جبل عامل سبعون مجتهداً ، في عصر الشهيد أوما قاربه** " [57] .

في المجلّد الخامس والعشرين من كتاب (بحار الأنوار) للشيخ المجلسي (وهذا المُجلّد مُخصّصٌ للإجازات) نقعُ على أسماءٍ كثيرةٍ للمُجازين . منهم مَن نصّ على أنّه تلقّى إجازةً من الشهيد . وبعضهم وُصِف بما يُشعر بأنهم من تلاميذه . وكثيرٌ منهم مُجرّد أسماء ، نعرف أو نُخمّن أنهم عامليّون ، وتدلّ القرائن على أن أصحابها من معاصري الشهيد .

نفهم من هذه الوقائع ، أنه فيما يرجعُ للفترة القلقة التي تلَت مقتل الشهيد ، قد اندثر تراثٌ بأكمله : أعلام وأعمال علميّة لا بدّ أنهم أنتجوها . أمّا الذين عاشوا خارج "جبل عامل " فقد نجوا ممّا حاق بإخوانهم فعاشوا في مختلف التسجيلات . التي حفظها المجلسي وغيره فيما صنّفوه . هكذا فعندما كتب الحُرّ (أمل الآمل) ، في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر للميلاد ، سجّل ما وجده . فجاء كتابُه صورة للواقع كما أُتيح له أن يراه . ثم أنه أجهزَ على الواقع الجريح بتجاهله ابن أيوب .

أسهبنا في هـذا الكلام النقدي ، بعد أن شرعنا بالحديث على أعمال الشهيد في وطنه ، لغرضين :

---

(57) نفسه : 1 / 15 .

ـ الأول : بيان صعوبات البحث .

ـ الثاني: القول ضمناً أن كل نتيجة سنصِلُ إليها على تفصيل أعمال الشهيد النهضويّة في وطنه ، ستكون نتيجة جُزئيّة ، لا تصلح أن تكون صورةً عن الحقيقة بكاملها .

ولقد كُنّا أوردنا في كتابنا (جبل عامل بين الشهيدين) أسماء مَن وصل إليهم البحث من تلاميذ الشهيد ، وعِدّتهم أربعة وعشرون [58] . من مُختلَف بلدان "جبل عامل" ومن "الكرك" و "حلب" و "العراق" و"إيران" ، وربما من "كسروان" أيضاً . وإن كنّا نُرجح أن المنسوب إلى هذه ، هو ممّن هاجر منها ، في مَن هاجر . أولاً إلى " الكَرَك " ثم تحوّل إلى "جزّين " ، حيث قرأ على الشهيد ، كما قلنا فيما فات [59] . نُضيف إليهم الآن أربعة أسماء ، استفدناها من (مُختصَر نسيم السّحَر) ، هي :

ـ الأول : محمد بن الخازن الحايري . قال فيه :

" **أجازه شيخه الفاضل المُحقق ، شمس الملّة والحق والدين محمد بن مكّي بالأحاديث المَرويّة عن النبي صلّى الله عليه [** وآله **] وسلّم في فضيلة العلم وحامليه** " [60] .

وربما يُتوهّم أن هذا هو نفسه علي بن الخازن الحائري ، الذي أجازه الشهيد بالإجازة المعروفة [61] ، وأن "محمد" هذا هو من أخطاء النسّاخ ، كما خطر لنا بدواً . ولكن مقارنة مضمون الإجازتين تُظهر أنهما مختلفتان تماماً . الأمر الذي يُبعِد هذا الاحتمال ، ويُصحّح النص .

ـ الثاني : حسين بن محمد الوحيدي البتدّيني . نسبةً إلى قرية "بتدّين اللقش" ، المجاورة لـ "جزيّن" . يروي عنه واقعة حصلت للشهيد في مدرسته . " **بينما هـو يكتُبُ**

---

(58) الصفحات / 156 ـ 59 .

(59) الفصل الأول ، الهامش رقم / 51 .

(60) مختصر نسيم السحر في مُلحقات الكتاب .

(61) بحار الأنوار : 107 / 186 ـــ 92 .

ويؤلّف كتاب الدروس " ، أي قُبيل شهادته بسنوات قليلة [62] .

ـ الثالث : محمد بن أحمد الموسوي البعلبكي . وهو يـروي كرامة حصلت للشـهيد " **في بعض أسفارنا في بلاد العرب مع شيخنا العلاّمة النجيب الأصيل الشريف أبي عبد الله الشهيد شمس الدين محمد بن مكّي المُطّلبي** " [63] .

ـ الرابع : محمد بن علي بن الوحيد البتدّيني . وهو الذي رجّحنا في نشرتنا لـ (مختصر نسيم السّحَر) أنه مُصنّف الأصل . الذي "**ذكر [.....] في مجموع له قد كتبه بخطّه جميع أحوال الشريف الشهيد شمس الدين محمد بن مكّي ، من حين مولده إلى حين قتله** " [64] .

ـ الخامس : أحمد بن الحسن بن محمود . ورد ذكـرهُ في ختام نسخة خطيّة من كتاب (الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة) للشهيد حيث قال :

"**هذا آخر كلامه مدّ الله تعالى في شريف أيامه . فرغ منه العبد [.....] أحمد بن الحسن بن محمود يوم الجمعة المبارك لسبعٍ مضين من شهر ربيع الآخر من سنة أربع وثمانين وسبعمائة** " [65] .

وكان المصنف قد فرغ من تصنيف هذا الجزء من الكتاب " **في الحادي والعشرين من صفر عام 784** " ، كما ورد في ختام النسخة نفسها . ومن هنا استظهر مصنّف (الذريعة) أن الكاتب كان تلميذاً للشهيد ، وكان ينسخُ فوراً كل ما يخرج من قلم شيخه وهو يخطّ كتابه [66] . وهو استنتاج لا غبار عليه .

---

(62) مختصر نسيم السحر في ملحقات الكتاب .

(63) نفسه .

(64) أيضاً .

(65) فهرست كتابخانه مركزي تهران : 8 / 521 .

(66) الذريعة : 10 / 40 .

ممّـا يُكمل هـذا الاتجاه النهضوي لـدى بطل هــذه السيرة ، الإشـارةُ الـواردةُ في (مُختصَر نسيم السّحَر) ، التي ذكر فيها "**مدرسته** [يعني الشهيد] **برأس النبع**" . وتكرّر ذكرُها مرتين [67] . وصفها في المرّة الأولى منهما بأنها " **مدرسة عظيمة جداً** " . والظاهــر أن المقصــود بـ " **رأس النـبع** " المكـان الــذي ينبع منه النهـر الـذي يشــقّ " جزين " [68]. ويُشكّل في شمالها شلاّلها الشهير ، الذي ما يزال حتى اليوم . وهذه إشـارة فريـدة في كل المصادر .

فأنت ترى من هذا الاستقراء لتلاميذ الشهيد والمُتحلّقين من حوله ، الذي نعرف أنه ناقصٌ بالتأكيد ، ولكنه يتنامى باستمرار ، كلّما تقدّم بنا البحث ، أو كلّما اكتشفنا مصادر جديدة أو فهماً جديداً لبعض النصوص ، بالإضافة إلى الوضع المؤسّسي الذي يعنيه إنشاء مدرسة ـ ، أنهم قدموا من مختلف الأقطار ، التي كان يعمرها الشيعة في ذلك الأوان ، عدا "الهند" .

فهذه إمارة في غاية الوضوح والبيان على أن "جزّين" ، قد انتقلت بفضل الشهيد في بُرهة عقدين من الزمان تقريباً ، من قرية لا شأن لها ، بلد الرُعاة كما قيل ، إلى مركز علمي مؤسّسي . يجذب إليه الطامحين من مُختلَف الأقطار والبلدان . فيجدون فيها شِبعاً وريّا . وذلك إنجاز خارق ، لا نعرف له نظيرا .

ثم أنها إمارةٌ أيضاً على أن " جبل عامل " قد خطا الخطوة التي طال انتظارها . ها هو قد بنى لنفسه وضعاً أكاديمياً مُستقلاً . سرعان ما بدأ يُنتج المؤهّلين للعمل الإرشادي والقيادي والتبليغي الموكول إلى الفقيه . خصوصاً وأنهم يسترشدون بالفكر الذي حمله شيخهم معه من " الحلّة " ، وخطا به خطوةً كبيرةً إلى الأمام . وسنقِف الوقفة المناسبة عند مضمون هذه الملاحظة العَجلى ، فيما سيأتي من هذا البحث .

---

(67) مختصر نسيم السحر/ 18 و22 .

(68) راجع : الفصل الثاني من هذا الكتاب ، مرجع الهامش رقم (1) .

ملمحٌ آخَر في هذا الباب ، نقرأه في أسماء ما صنّفه الشهيد .

فنحن نعرف أنه كتبَ ثلاثة كُتُبٍ مبسوطة في الفقه . أولها (بُغية المُراد في شرح نُكَت الإرشاد) ، وقد عرفنا ممّا فات أنه أتمّه أثناءَ زيارتِهِ " الحلّة " . والآخَران (الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة) شرع فيه سنة 780 هـ / 1378م [69] . وفرغ من جزئه الأول " **آخِر نهار الأربعاء لاثنتي عشر ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة أربع وثمانين وسبعمائة** " [70]. و (ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة) الذي فرغ من جزئه الأول " **في الحادي عشر من صفر عام 784** " [71] . ومن المؤكّد أنّه قد كتبهما كلاهما في " جزين " .

والحقيقة أن المُتأمّل ، بعد أن وقف على العديد الكبير من طُلاّب مدرسته الذين يعتني بهم تدريساً ومُذاكَرَةً ، ليعجب كيف كان يجدُ الوقت للتصنيف . خصوصاً وأنّ الكتاب الأول منهما من أدقّ كُتُبه الفقهيّة ، والثاني كتابٌ استدلالي [72] . أي أنه يجمع بين الفتوى ودليلها الاجتهادي . وما من ريب في أنه عندما صرف جهده إلى تحريرهما في وقت واحد معاً ، كان لديه سببٌ وجيه وجدّي . ممّا يستدعي السؤال عنه .

فلنلاحظ أولُ ، ونحن نتأمّل فيما يُريح البال من ثِقل السؤال ، أن اسمي الكتابين غير مألوفين . أعني أنهما ليسا من تلك الأسماء الإنشائيّة التفخيميّة ، التي درج عليها المصنفون في هذا الباب . (ومنها " بُغية المُراد " مثلاً) . أعتقد أن هاهنا ما هو مقصود ، يُشير إلى ما كان يدور في ذهن المُصنّف وهو يخطّ كتابيه .

---

(69) الذريعة : 8 / 145 .

(70) آخر الكتاب في كل الطبعات .

(71) آخر الكتاب في كل الطبعات .

(72) للتعريف بالكتابين ، مع بيان ما فيهما من تجديد في المنهج والمضمون : المختاري : الشهيد الأول حياته وآثاره / 166 ـ 77 .

ليس من الصدفة أبداً أنّ اسمَي الكتابين قد تضمّنا كلمتي " الإماميّة " و " الشيعة " . هاتان كلمتان تُصوّبان مباشرةً نحو الآخَر. ابتغاء تحديد الذات ، وليس نفي الآخَر بالضرورة . ولنتذكّر هنا أننا نتكلّم على فقيهٍ كبيرٍ في " جبل عامل " ، الذي كان ما يزال يكافح في سبيل الخروج من أزمته المُستحكمة ، بسبب الاحباطات التاريخيّة والانفصال القسري الطويل عن ثقافته الخاصة وينابيعها . من هنا نرى وظيفة هاتين الكلمتين . إنهما يُشيران إلى تلك الينابيع بعينها. ولعلّ كلمة "ذكرى" ، في اسم أحدهما، غير بعيدة عن هذا المرمى .

وفيما يخُصُّ كتابَ " الدروس " ، فهو اسم يُنبئ تصريحاً عن مضمونه . حقٌّ أنّ مصنفه قال في مقدّمة الكتاب أنه إنما صنّفه " **لاقتضاء الولـديَن الموفقيَن إن شـاء الله أبي طالب محمد وأبـي القاسم علي** " [73] . ومع ذلك فإنني لا أستطيع أن أكبح نفسي عن القول، إن هذه الكلمات قد خرجت من قلب الأب المُحبّ، وليس من عقل الرائد الكبير . الذي كان يقودُ شعبه ، عَبر النخبة التي تتلمذت عليه ، باتجاه النهضة المنشودة . وفي هذا السبيل صنّف (الدروس) ، ليكون اسماً على مُسمّى . ولنتذكّر ما قلناه قبل قليل عن تلميذه أحمد بن الحسن بن محمود ، وكيف كان ينسخ ما يخرج من الكتاب أولاً بأول ، مع عمل شيخه في تصنيفه . فهذه إمارة قويّة على أن الكتاب ليس إلا مجموع الدروس التي كان مُصنفه يُلقيها على تلاميذه في مدرسته بـ " جزين " . وعلى كل حال ، فهذه تأملات نعرفُ أنها تغوص عميقاً في سريرة الشهيد . ولكننا لم نملك إلا نرتكبَها . ذلك أنّ من شأن الكبار أن يطرحوا الأسئلة في كل تفصيلٍ تفصيلٍ من سيرتهم . ثم لا يكون على الباحث من بعدهم إلا أن يعالجها بما يملك . خصوصاً إذ يكون لبطل السيرة من قوّة الحضور ، ما يمنح الجواب على أي سؤال يخصّه صفة الحاجة المُلحّة .

---

(73) الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة ، ط . قم ، مؤسسة النشر الإسلامي 1412 هـ : 84/1 .

6 ــ شهادته . سنقصرُ الكلام الآن في هذا القسم على الوقائع المتصلة بشهادته الفاجعة . أي أن عملنا هنا هو وصفي / سردي بحت . على أن نتكلّم فيما يلي على ظرفها ومغازيها في الفصل المخصّص للجانب السياسي / العملاني من سيرته .

مضت حياة الشهيد على هذا النحو زُهاء خمس وعشرين سنة عَدّاً. إلى أن قُبض عليه وحُبس في القلعة بـ " دمشق " . وكان ذلك بدايةَ سلسلةٍ من الأحداث التي انتهت بقتله .

بين يدي الباحث اليوم روايتان رئيستان ، كلتاهما عمّن يُفترَض أنه كان في موقعٍ قريبٍ من مصادر المعلومات عن تلك الـ " سلسلة من الأحداث " . وقادراً بالتالي على أن يُزوّدنا بصورة صادقة ، وعلى قدْر كافٍ من الدقّة . أولاهما للمقداد بن عبد الله السّيّوري (ت : 826 هـ / 1422 م) ، الذي عرفناه بوصفه أحد أبرز تلاميذ الشهيد . وثانيتهما لمحمد بن مكّي بن محمد (ح : 1169 هـ / 1755 م) ، وقد عرفناه أيضاً بوصفه مَن اختصر كتاب (نسيم السّحَر) لمحمد بن علي بن الوحيد البتدّيني . وهذا أيضاً من تلاميذ الشهيد ، وأحد كاتبَي سيرته . ومع ذلك فإن الروايتين تختلفان اختلافاً بيّناً على أكثر من واقعة . وسنعمد توّاً إلى اقتباس ما نراه موضع الأهميّة منهما .

رواية السّيّوري

" وكان سبب حبسه أن وشى به تقي الدين الخِيامي ، بعد جنونه وظهور إمارة الارتداد منه ، أنه كان عاملاً . ثم بعد وفاة هذا الواشي ، قام على طريقته شخص اسمه يوسف بن يحي ، وارتدّ عن مذهب الإماميّة . وكتب محضراً شنّع فيه على الشيخ شمس الدين محمد بن مكّي ما قالته الشيعة الإماميّة ومعتقداتهم . وأنه كان أفتى بها الشيخ ابن مكّي . وكتب في ذلك المحضَر سبعون نفساً من أهل الجبل ، ممّن كان يقول بالإمامة والتشيُّع

وارتدّوا عن ذلك . وكتبوا خطوطهم تعصّباً مع يوسف بن يحيى في هذا الشان . وكتب في هذا ما يزيد على الألف من أهل السواحل من المُتسنّنين . وأثبتوا ذلك عند قاضي بيروت ، وقيل قاضي صيدا . وأتوا بالمحضر إلى القاضي ابن جماعة لعنه الله بدمشق ، فنفذّه إلى القاضي المالكي . وقال له ، تحكم فيه بمذهبك وإلا عزلتك . "

" فجمع ملِك الأمراء بيدمر لعنه الله القضاةَ والشيوخ . وأحضروا الشيخ رحمه الله . وأحضروا المَحضَر وقُرئ عليه . فأنكر ذلك ، وذكر أنه غير مُعتقِدٍ له ، مُراعياً التقيّة الواجبة . فلم يُقبل ذلك منه . وقيل له : قد ثبت ذلك شرعاً ، ولا ينتقضُ حكم القاضي . فقال الشيخ للقاضي ابن جماعة : إنّي شافعي المذهب ، وأنت إمام المذهب وقاضيه . فاحكم فيّ بمذهبك . وإنما قال الشيخ ذلك ، لأن الشافعي يُجوّز توبة المُرتدّ عنده . فقال ابن جماعة : حينئذٍ على مذهبي يجب حبسك سنة كاملة ، ثم استتابتك . أمّا الحبس فقد حُبست . ولكن أنت استغفر الله حتى أحكم بإسلامك . فقال الشيخ : ما فعلتُ ما يوجب الاستغفار . خوفاً من أن يستغفر فيُثبتوا عليه الذنب . فاستغلطه ابن جماعة لعنه الله ، وقال : استغفرتَ فثبت الذنب . ثم قال : الآن ما عاد الحكم إليّ ، غدراً منه ، وعناداً منه لأهل البيت عليهم السلام .

"" ثم قال عبّاد : الحكم إلى المالكي . فقام المالكي وتوضأ وصلّى ركعتين . ثم قال : حكمتُ بإهراق دمه . فألبسوه اللباس . وفُعل به ما قلناه من القتل والصلب والرجم والإحراق . وساعد في إحراقه شخص يُقال له محمد بن الترمذي . " [74]

---

(74) بحار الأنوار : 107 / 184 ـ 86 . وقد اعتمد هذه الرواية عامةُ أرباب التراجم والمعاجم : الحر العاملي في : أمل الآمل : 1 / 183 ، الخوانساري في : روضات الجنات ، ط. قم 1392 هـ : 7 / 10 ـ 11 ، ، البحراني في : لؤلؤتي البحرين / 145، المُحدّث النوري في : مُستدرَك الوسائل ، المُحدّث القمي في : فوائد الرضويّة ط . إيران ، كتابفروشي مركزي ، لات . / 645 .

" ولقتله أسباب ، وهي أن رجلاً عالماً فاضلاً بزعمه ، من علماء الشافعيّة ، وهو عبّاد ابن جماعة ، كان شريكاً له في الدرس في أوايل التحصيل والدرس في المعقول ، كالنحو والمنطق والأصول ، على بعض الشيوخ في الشام والقدس ومصر والغرب . فلمّا رأى طيران الشهيد في زمان قليل إلى معارج الكمال في العلوم كلها العقليّة والنقليّة ، وعلم أنه قد حاز من العلوم الأدبيّة واليقينيّة بأوفر نصيب . وضرب في ساير العلوم بقدحَي المُعلّى والرقيب . ورأى رجوع الناس إليه في التدريس والاستفتاء ، في الشام وغيرها . ورأى ملوك زمانه قد أقبلت عليه ، وجميع الأحكام الشرعيّة قد رُدّت إليه . وهو بين العامّ والخاصّ على الطريقة المحمودة . [......] تحرّك عِرْق الحسد والعصبيّة في نفسه الخبيثة . فسعى بالفساد ، وبالغ في التشنيع بين العباد على الشريف الشيخ شمس الدين محمد بن مكّي . وقد دفع أموالاً كثيرة . وبذل أجناساً غزيرة لتعلو كلمته وتنفذ شوكته [.....] حتى أنه استعان بكبار الشام . فضيّقوا عليه أنه لا يخرج من الشام أبداً . وحُبس في القلعة خوفاً من ان يخرج من أيديهم " .

" ولمّا انقضت السنة عليه وهو في القلعة [.....] فأخبِر بيدمُر بأن الشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكّي قلب بالغ في الإنصاف والردّ على ابن جماعـة وكلّ بهتان [.......] فلمّا بلغ بيدمـر ذلك وعلم كـذب الوُشاة [.......] وقال : لأي شئ لم يُخبرنا بحاله ولـم يُنبئنا بمقاله ؟! ثم كتب له كتابة من قِبَل نفسه ، من غير أن يُطلَب منه أو يُلتمَس له . جبراً لخاطره ، وتعظيماً لشأنه " .

[.........] " فلمّا بلغ برقوق كلامُ الشريف شمس الدين محمد بـن مكـّي [......] أمـر بأن يُحضـرَ جميع عُلماء الشـام [..... .] ثم يُناظـروه

ويُناظرهم بما اقتضته الشريعة المُطهّرة [......] فحيئذٍ حضروا بأجمعهم ، واجتمعوا بأسرهم في الشام . وحضر كل مَن له شأن في الأنام . وجرت بينهم المناظرة ثلاثة أيام [...] وخرج من القلعة مُكرّماً مُعظّماً . "

ثم يقصّ قصة خروج محمد بن تقي الدين الخيامي البابلي ، فقتله بمساعدة بيدمُر . فخروج يوسف بن يحي . وهو الذي كتب محضراً شنّع فيه عليه بأنه شيعي وعُمدة الشيعة ومرجعها والمُروّج لمذهبها . إلى أن يقول :

" وكتب معه ووافقه على الارتداد عن مذهب الإماميّة والخروج عن طريق الحق سبعون رجلاً من الجبل ، ممّن كان يعتمد مذهب الإماميّة ويعتقده . وألف رجل من السواحل ، ممّن كان ظاهرهم التسنّن [......] وكتبوا خطوطهم . وعرضوا ما كتبوه في ذلك على قاضي الشام ابن جماعة ، وقاضي صيدا ، وقاضي بعلبك ، وقاضي بيروت ، وقاضي القدس والخليل . وسعَوا بأن يُحضَر في القدس والخليل . فأُحضِر فيه الشيخ شمس الدين محمد بن مكّي ، وقُرِي عليه المحضر الذي كتبوه . فلما قُرِي عليه [......] فأنكر ذلك للتقيّة الواجبة. [.....] وهوبإذن الله مُسلّط العلم الشريف عليهم . ومع كثرتهم عليه وحسدهم له فله الخطر والعظمة لديهم " .

" ولمّا علم بذلك برقوق ، بعد إحضارهم لديه ومُناظرتهم له ، وأن له عليهم الغلَبَة والقوة الباهرة في علم المعقول وعلوم الآخِرة . فغضب على مَن سعى في ذلك . وأمر بردّه إلى الشام وإلى حيث فرجع إلى الشام لأمور اقتضت ذلك . وأضمروا له السوء القوم يشاء . اللئام . واضطرمت نار الحسد في جلودهم . وأغرقت في بحار الظلمة قلوبهم "

وتمضي الرواية على هذا النحو . فتورد قصة طويلة ، خلاصتها أن الشهيد أثناء إقامته في " دمشق " تعرّض لمؤامرة مُدبّرة ، أثناء دخوله "المسجد الجامع " لأداء الصلاة . بأن وُضع في حذائه أوراق فيها اسماء العشرة المُبشّرة . أدّت إلى غضب شعبي عام . وعلى الأثر جرت محاولتان لقتله. إحداهما بربطه إلى جملَين متعاكسيَن ، حتى إذا استنفرا مزّقاه إرباً . والثانية حرقاً بالنار. فشلتا على التوالي . ولكنه قُتل في

الثالثة بالسيف . ثم صُلب على خشبة مقدار رُبع ساعة . وأُحرق بالنار ودُفن . كل ذلك جرى دون علم الوالي بيدمُر . فـ :

"**ضرب مَن قد كان ضربه منهم . وصاروا في أقبح الحالات** " ثم " **أمر بأن تُبنى عليه قبّة عظيمة ، ويكون مزاراً مشهوراً ، وبالخير دائماً مذكوراً . فبُني عليه قبّة عظيمة** " [75] .

المُقارنة بين الروايتين ونقدهما

1ـ في سبب حبسه :

ـ عند السّيّوري : وشاية تقي الدين الخيامي ، أنه " **كان عاملاً** " ثم قيام يوسف بن يحيى على طريقته .

ـ عند البتدّيني : أن عبّاد بن جماعة الشافعي ، الذي يصفه بأنّه كان رفيق درس للشهيد ، قد عمل كل ما في وسعه للتخلّص من الشهيد ، بسبب غيظه من تقدّمه عليه عند الناس والسُلطة .

2 ـ في مكان الحبس وزمانه :

تتفق الروايتان على القول بأنه حُبس في قلعة " دمشق " سنة كاملة ، وتختلفان في :

ـ السّيّوري : أن حبْسَه مُتصل حدثيّاً وزمانيّاً بمحاكمته ، التي انتهت إلى الحكم عليه فقتله .

ـ البتدّيني : أنه حُبس ثم أُطلق . وحصلت واقعة القتل بعد مدّة غير مُحدّدة . دون أن تكون لها علاقة موضوعيّة بالمحاكمة السابقة .

---

(75) مُختصر نسيم السّحر . ويُصرّح صاحب المُختصَر في ختام هذا العرْض بأنه نقله من خط " **الشيخ الفاضل الصالح الشيخ محمد بن علي بن الوحيد البتدّيني [......] وقد ذكرناها جميعاً من غير اختصار** " .

3 ـ الآليّة التي انتهت بقتله :

ـ السّيّوري : محاكمة نتيجة وشايتين ، الثانية منهما مدعومةٌ بشهاداتٍ ضافية ، حرّرتها مجموعةٌ من المُتسنّنين / المُرتدّين . مرّت بالتسلسل من السُّلطة القضائيّة المحلّيّة ، إلى السُّلطة القضائيّة المركزيّة في " دمشق " . وأن الوالي بيدمُر هو الذي ولي تنظيم المحاكمة .

ـ البتدّيني : أنه حوكم . ولكن المحاكمة لم تنتهِ إلى حكمٍ عليه . بل وخرج منها الشهيد منتصراً . وأن الذي وليَ قتله جمهورٌ هائج ، خُدع بمؤامرة مُدبّرة بدهاء . ودون علم السُلطة المحلّيّة . بل أن هذه عمدت إلى معاقبة مُنظّمي المؤامرة . وتكريم الشهيد ببناء قُبّةٍ على قبره ، سرعان ما غدت مزاراً .

4 ـ واقعة القتل :

تتفق الروايتان على أنه قُتل بالسيف ، ثم صُلب ، ثم أُحرق . وتنفرد رواية السّيّوري بالقول أنه رُجم قبل الإحراق .

ما من ريب عندنا في أن الاختلاف بين الروايتين ، مع أنه كبير وعلى أمور أساسيّة ، فإنه لا يعكس اختلافاً في الموقف من الواقعة عند الراويين . أي أنه غير مقصود، كما هو الشأن عادةً في الاختلاف بين رواية موضوعة وأخرى صحيحة . فالأمر الجامع بين الراويين ، أنهما كلاهما من تلاميذ الشهيد والمتعاطفين معه . وأنهما لم يكونا شاهدَي عيان ، يقولان ما قالاه عن خُبر ومُعاينة [76] .

إذن ، ما هو سبب الاختلاف بينهما ؟

الجواب : إنه في مستوى المقدرة النقديّة لدى كلٍّ منهما. ذلك أنه، فيما نحسَب ، فإن كلتا الروايتَين انتشرتا بين الجمهور المفجوع في وطن الشهيد . وكان أن اختار

---

(76) نصّ على ذلك البتديني ، حيث قال : " واشتبه على قوم كثيرة صفة قتله . لأن المُحبّ الصادق لم يرضَ فلم يحضر ذلك " انظر : مختصر نسيم السّحر في مُلحقات الكتاب .

كلٌّ منهما ما وصل إلى سمعه ، أو بدا له مُقنعاً ، أو لأي سبب آخَر .

ويلوح لنا أن رواية البتدّيني هي من تدبيج السلطة ، بعد أن لمست حالة الغضب الواسعة التي أثارتها جريمتُها النكراء والغبيّة لدى جمهور الشهيد ، بل ولدى عارفي فضله من غيره . ومنهم صديقه محمد بن محمد الجزري ، الذي لم يُخفِ اقتناعه ببراءته . فقال :

" صحبني مدّة مديدة فلم أسمع منه ما يُخالف السُنّة . ولكن قامت عليه البيّنة بآرائه . فعُقد له مجلس بدمشق . واضطُر فاعترف ليحكم بإسلامه الشافعي فما حكم . وجعل أمره إلى المالكي . فحكم بإراقة دمه . فضُربت عنقه تحت القلعة بدمشق . وكنتُ إذ ذاك بمصر . وأمره على الله " [77] .

إن اللمسات السلطويّة واضحة جداً في رواية البتدّيني ، وإن لم يُدركها . فهي تُلحّ مرّة بعد مرّة على العلاقة الطيّبة بين الشهيد والسلطان برقوق ، وبينه وبين واليه على " الشام " بيدمر. (وهي ، بالمناسبة ، ليست كلُّها زعماً باطلاً ، كما سنعرف فيما سيأتي إن شاء الله) . وتؤكّد على مناصرته له في غير ما موقف . وتُخفي تماماً أدنى علاقة بين المحاكمة فالقتل . ثم أنها تضع وزر الجريمة على عاتق جمهور غاضب ومُحرّضين مجهولين . كما أنها تزعم أن بيدمُر غضب أشدّ الغضب عندما علم بما جرى ، وأنزل العقاب بأولئك المُحرّضين . وأخيراً أنه أمر ببناء" **قُبّة عظيمة** " على قبره . والغريب الطريف معاً أن هذه الخطّة (الإعلاميّة كما نقولُ اليوم) ستتكرّر بأمانةٍ مدهشة بعد زهاء القرنين من الزمان . وذلك في واقعة قتل الشهيد الثاني ، زين الدين بن علي الجُّباعي (ق : 965 هـ / 1558 م) على يد العثمانيين . حيث أذاعت أجهزةُ السُلطة أن قاتله هو المُكلّف بسَوقه إلى " إستامبول " . وأنّه إنّما قتلهُ خشية أن يُخبر السلطان بأنه قد قصّر في خدمته أو آذاه . فقتله وحملَ رأسه إلى السلطان . فأنكر عليه ما فعل وقتله . ولكي يتِمّ التشابه العجيب بين الحُبكتيَن ، قالت هذه

(77) غاية النهاية في طبقات القرّاء : 2 / 265 .

الرواية أن قبره هو أيضاً بُنيت عليه قُبّة[78].

نخلص من هذه المقارنة ، وما تلاها من مراجعة نقديّة ، إلى أن رواية السّيّوري هي أقربُ بكثير إلى الصحّة . على أن الرواية الأخرى غنيّة بالمعلومات والمغازي ، ممّا لم تقِف عليه الأولى . وسنستفيد منها ، إن شاء الله ، في الفصل التالي .

أمّا تاريخ شهادته فهناك إجماع على أنه في التاسع من جمادى الأولى سنة 786 هـ / 13 نيسان (إبريل) 1384 م [79].

---

(78) انظر مراجعتنا النقديّة لرواية السلطة العثمانيّة هذه في كتابنا : ستة فقهاء أبطال ، ط . مركز الدراسات والتوثيق والنشر ، المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى 1415هـ / 1994 م / 167.

(79) مع ملاحظة أنه ورد في مخطوطة (مختصر نسيم السّحر) : " عصريّة يوم الخميس تاسع جمادى الأولى 1186 " وهو خطأ نشأ من تصحيف النسّاخ ولا ريب .

خلاصة الفصل

وُلد الشهيد في " جزين" . ومن المُحتمَل أن ولادته في "حانين" . وهي قرية في أقصى جنوب "جبل عامل" . وكانت ، أعني الولادة ، سنة 724 هـ / 1324 م على الأرجح . وما من شك في أنه تلقّى تعليماً جيداً قبل رحلته خارج وطنه .

قُبيل السنة 750 هـ / 1349 م خرج من " جزين " قاصداً " الحجاز " . فحجّ وأقام مدّة في " المدينة " . اتجه بعدها إلى " الحلّة " . ليُقيم بها سبع أو ثماني سنوات . وفيها قرأ على أبرز علمائها آنذاك . وبدأت صلته بعلي بن المؤيّد الخراساني .

من " الحلّة " انطلق في رحلة واسعة ، زار أثناءها "بغداد " و "دمشق " و "مقام الخليل إبراهيم" و "مصر" و "مكّة " و "المدينة " . قرأ فيها واستجاز عدداً كبيراً من علماء السُنّة . عاد بعدها إلى وطنه ، واستقرّ في "جزين" . وذلك عام 760هـ / 1358 م تخميناً .

في "جزين " انصرف إلى العمل . فجعل من قريته خليّة تعجّ بالطلاب القادمين من مُختلف الأنحاء . ونعرف أسماء زهاء الثلاثين منهم . ولا شك في أن هذا العدد أقلّ من الحقيقي بكثير . وبنى مدرسة وُصفت بأنها "عظيمة " ، هي أم المدارس في " جبل عامل " بل في كلّ العالَم الشيعي . وفي السياق نفسه وضع كتابيه (الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة) و (ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة) . وخلال خمس وعشرين سنة من العمل الدائب وضع الأساس لنهضة " جبل عامل " الوشيكة .

سنة 785 هـ / 1383 م قُبض عليه ، في " دمشق " على الأرجح . وحبس في قلعتها سنة كاملة . ثم عُقد له مجلس ترأسه قضاةُ المذاهب . حيث جرت له محاكمة مُدبّرة . انتهت بالحكم بقتله .

الفصل الرابع

في خِضَمّ المُعْتَرَك

الفصل الرابع

في خِضَمّ المُعتَرَك

(تمهيد)

أمضينا الفصل السابق في عمارة ما يبدو لنا أوفى سيرة للشهيد حتى الآن . مع الاستفادة من مخطوطة (مُختصر نسيم السّحر) . التي، على الرغم ممّا فيها من هنات ، قدّمت لنا معلومات طريفة عن مواضع لم تلامسها كافة المصادر الأخرى،على كثرتها . من ذلك : أنه أنشأ مدرسة في "جِزّين . وأسماءُ لعددٍ من تلاميذه ممّن لم نقف على ذكر لهم في غيرها . وعملُ السلطة على التعفية على جريمتها النكراء بقتله ، بإذاعة رواية تضع وِزر الجريمة على عاتق جمهورٍ هائج ، غير مُدرك أنه مخدوع بمؤامرة مُدبّرة . وهذه كلّها تنضوي لأول مرّة في أي سيرة مكتوبة له .

ومن قبلُ سردنا تاريخاً تأسيسياً للشيعة في غرب وجنوب " الشام " . ممّا كان تهيئةً لاغنى عنها لوصف الظرف السياسي ـ الاجتماعي الذي عمل فيه ، ابتغاء بعث وإحياء الإمكانات الخبيئة في شعبه . ليتولّى بنفسه عمليّة الصمود للمُتغيّرات الأساسيّة ، سُكّانيّة وسياسيّة ، التي نشأت بفعل سلسلة من الأعمال العسكريّة العدوانيّة . بدأت بالغزوات الصليبيّة ، وانتهت بمقتلة أهل " كسروان " وما والاها . وتهجير مَن بقي منهم إلى حيث يعتقد مَن خطّط لهذا العمل الهمجي ، أنه لن يكون لهم فعل سياسي يُذكَر ، ومنها بلد الشهيد " جزّين" . الأمر الذي ما تزال تداعياته السياسيّة السيئة ناشطة حتى اليوم . وغني عن البيان ، أن ممّا سهّل على السُلطة ارتكاب جريمتها هذه بتغطيةٍ ضئيلة ، غيابُ القيادة الكارزميّة ، ذات الجاذبيّة الشعبيّة ، عند ضحاياها . وهي وحدها المؤهّلة ، في مثل هذا الظرف العصيب ، لِلَمّ الشّمل وتجميع الجهود لعمل ما يلزمُ في المقابل . أمّا الآن فقد جاء الآهلُ للقيادة . الذي حمل مُهمّة النهوض بشعبه .

نهوضاً ثقافيّاً بالدرجة الأولى . لأن الجامع الثقافي هو الوحيد الذي يمنحه أن يكون كتلةً صلبةً ، قادرةً على الاستيعاب والمقاومة . وقد وصفنا في الفصل السابق ، بقدْر ما أتاحته لنا المعلومات المتوفّرة ، أعمال الشهيد في هذا النطاق .

يحلو لي أن أعتقد هنا ، مثل أي كاتب يبذل كل ما عنده من وسع في سبيل نقل أفكاره إلى ما يصوغه على الورق ، ويُحبّ أن يشاركه قارئه هذا الهمّ ، ـ أنّ القارئ الحصيف يتوقّع أن تكون الخطوة التالية وصف ما اضطرب فيه بطلُ هذه السّيرة وهو يكافح في سبيل هدفه المنشود . وهذا صحيح . ولكن عليّ قبلُ أن أُبرّر نقطة منهجيّة . بدون ذلك أخشى أن يحصل خللٌ في الرِّفقة . بحيث يذهبُ ذهن الكاتب في غير الطريق الذي يتجه إليه ذهن القارئ . هذه النقطة هي فصل سيرة الشهيد إلى قسمين. الأولى وصفيّة، في الفصل السابق. والثانية تركيبيّة، هي ما نتهيّأ للدخول إليه .

والحقيقة أنني ، بعد عدّة تجارب ، وصلتُ إلى قناعة خلاصتها ، أن ضمّ تينك الجانبين من السيرة سيكون أمراً مُتعباً للكاتب والقارئ على حدّ سواء . فالكاتب سيشقى في الانتقال بين هذه وتلك ، مع ضرورة الحِرص على ربط عناصر كلٍّ منهما . والقارئُ لن يكون أفضل حالاً وهو يركض خلف الأفكار ، مع ضرورة المُحافظة على تسلسلها المنطقي . وكلّ ذلك ناشئ من غنى السيرة وتعقيدها . هذا ، كما أنني استعرضتُ إيرادَ هذه الفذلكة في المقدّمة ، وليس هنا . حيث يُبرّر الكاتب خطّته . ولكنني صرفتُ النظر أيضاً عن ذلك . لأنني هنا سأخاطب قارئاً أكثر تهيؤاً لاستيعاب الإشكاليّة ، بعد أن قرأ الفصول السابقة .

بعد هذا التمهيد نعود إلى عمود البحث. وسنشرعُ بوصف المُتغيّر السُّكاني ـ السياسي، الذي تتابعت فصوله ابتداءً من ما يُسمّى في مُختلَف المصادر " فتوح كسروان" . ولقد كُنّا قد أشرنا فيما فات ، إلى أن المماليك عمدوا ، بعد تهجير مَن بقي من أهل" كسروان " وما والاه ، إلى استقدام جماعات من التركمان أسكنتهم هناك . ابتغاءَ مَلء الفراغ السُكّاني . وربما أيضاً لقطع أمل المُهجّرين من احتمال العودة ، مع

تغيّر الأحوال . وهذا أوان تفصيل القول في هذا . وهو يستدعي بيان عدّة أمور.

1 ـ من هم أولئك التركمان ؟

إنهم قبائل كثيرة العدد ، تتكلّم إحدى لهجات اللغة التركيّة الكثيرة . كانت تستوطن " تُركمانستان " ، في " آسية الوسطى " . يعيشون في سهوبهم الواسعة على الرعي . وكانوا قبل أن يدخلوا في الإسلام يُعرفون بالغُزّ . ولكن فرعاً منهم برُز قوّةً عسكريّة ، بقيادة سلجوق بن دقاق . خرجت من وطنها التاريخي ، واستقرّت على شواطئ نهر"سيحون" . ثم أنهم ، بعد أن تكاملت هجرتهم انساحوا في مختلف الأقطار . وسيطروا على "إيران " و " العراق " و " الشام " . حاملين اسم مؤسّس دولتهم . فعُرفوا بالسلاجقة . وفي عصر البحث كانوا قد تلاشوا واضمحلّ أمرهم . ولم يبقَ منهم إلا إمارات صغيرة ضعيفة في "كيليكة " و " آذربايجان " . وصارت الدولةُ الآن لجماعات عسكريّة هي الأخرى ، دون ما رابطة بين أفرادها ، من عسكر وأُمراء وسلاطين . كانوا خليطاً غير مُتجانس . منهم الشركس والمغول والروس ، وربما أوروبيون آخَرون من غيرهم . جمعتهم رابطة المصلحة المُشترَكة . فشكّلوا طبقة عسكريّة سيطرت على البلاد والعباد . أولئك هم المماليك . وفي عهدهم جرت كافة الوقائع التي نتحدّث عنها في هذا الكتاب . وعاد التركمان الكثيرون المنتشرون في كافة أنحاء الرقعة التي تحكمها الدولة المملوكيّة ، عدا " مصر " ، من عباد الله العاديين . عامّتهم رُعاة أغنام . وقد ظلّوا على هذه الحال حتى وقت قريب . ومن بقاياهم اليوم مَن يتعاطون الكُدْية والاستعطاء . إلا مَن استقرّت به الحال منهم ونسي أصله البعيد .

2 ـ فرصتهم التاريخيّة الأخيرة .

كانت واقعة "كسروان " النعمةَ غير المتوقّعَة بالنسبة لهؤلاء الذين ذلّوا بعد طول عِزّ . وكأنها ، بل إنها أتت تصديقاً لقول الشاعر :

مصائب قوم عند قوم فوائد .

ذلك أنهم ، كما قلنا فيما فات ، أُقطِعوا كافة المناطق الجبليّة التي أُجلي عنها أهلُها من "كسروان" وما والاه [1]. بل إنهم ، مع الوقت ، أُوكل إليهم " **تَدَرّك** [حراسة] **ميناء البحر** [في بيروت] **ودروب البرّ من ظاهر بيروت إلى حدود عمل طرابلس** " [2] .

ومع مَزيد وقت غدوا أُمراء حقيقيين ، يبسطون سلطانهم على منطقة واسعة ، تشمل مدينة " طرابلس " والمناطق الجبليّة الموالية لها ، بالإضافة إلى " كسروان " وساحلها و "المتن" ، وقسماً على الأقل من " الشوف " ، شرق "بيروت" . ففي القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد وما بعده كانت كل تلك المناطق محكومةً من قِبَل ثلاث أُسرات تركمانيّة ، هي :

1 . بنو سيفا في مدينة " طرابلس " . يصِفُ المُحبّي أحدَ أُمرائهم ، المدعو يوسف سيفا ، بأنه " **هو الذي أسّس لهم الدولة** " [3] . وقد استمرّ حكمهم لها مدّةَ ثلاثاً وستين سنة [4] .

2ـ بنو الأعمى . أول مَن ولي إمارة " كسروان " من التركمان [5]. والظاهر أن إمارتهم فيها لم تطُل . وأنهم نزحوا عنها بنزوح بني جلدتهم ، كما سنذكر بعد قليل .

3 ـ بنو عسّاف . " أُمراء كسروان " حسب المؤرّخ الصفدي[6] . و " **تركمان**

---

(1) راجع الهامش رقم / 41 في الفصل الأول .

(2) تاريخ بيروت لابن يحيى / 214 .

(3) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ط . بيروت ، دار صادر ، لات: 4 / 503 .

(4) جوزيف اليان : بنو سيفا ولاة طرابلس ، ط. بيروت 1987 م وللمزيد عن هذه الأسرة انظر : الحسن بن محمد البوريني : تراجم الأعيان من أبناء الزمان . تحقيق : صلاح الدين المنجّد . ط. دمشق 1959 م : 1 / 213 . واسطفان الدويهي : تاريخ الأزمنة . تحقيق بطرس فهد ، ط . بيروت 1983 / 445 .

(5) تاريخ بيروت / 29.

(6) خليل بن أيبك الصفدي : لبنان في عهد الأمير فخر الدين . تحقيق أسد رستم وفؤاد البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانيّة 1969 م / 98 .

كسروان " و "**أمارة وأشراف بكسروان** " حسب مُصنّف (قواعد الآداب) المجهول [7] . وهؤلاء خلفوا بني الأعمى على الإمارة . وأخلاف هذه الأسرة اليوم منتشرون في أكثر المناطق اللبنانيّة. ولكنهم، طبقاً للوتيرة اللبنانيّة ، لبسوا صِبغة المنطقة التي انتهوا فيها . فالذين استقرّ بهم الحال في منطقة معمورة بالشيعة ، وهم الأكثر ، غدوا شيعة . وهم ينزلون اليوم في مدينة "بعلبك " وقُراها . ومنهم سُنّة وموارنة . وهؤلاء جميعاً ما يزالون يحتفظون باسم أُسرتهم .

هذا ، بإيجاز ، فيما يعود إلى تطوّر الأحوال بهؤلاء التركمان من وجهة نظر سياسيّة . سُلطويّة . والتي حملت إليهم ما وصفناه بحق بأنه كان فرصتهم الأخيرة .

3 ــ التطوّرات السُكاّنيّة وآثارُها .

لكن ما خُضنا فيه لا يُغني عن الوقوف على ما انتهى إليه تطوّر الحال بهم من وجهة نظر سُكاّنيّة . بل ربما يكون هذا أشدّ خطراً وأكثرأهميّة بالنسبة لبحثنا .

فمن المعلوم ممّا قلناه أعلاه أن أولئك التركمان كانوا رُعاة ، رُعاة أغنام على نحو التحديد . يكسبون لُقمة عيشهم من تتبّع موارد الماء والعشب . ولذلك فإنهم لم ينجحوا في التكيّف مع منازلهم الجديـدة ، بما فيها من مناخ قاسٍ بارد ، وطبيعة جبَليّة صخريّة . حيث تنعدم المراعي أو تكاد . ولذلك سارعوا إلى تركها ، وأخذوا يهجرونها باتجاه السواحل ، حيث المناخ أكثر دفئاً ، مع توفرّالمراعي لمواشيهم .

والحقيقة أن هذه الحركة السّكاّنيّة ، التي قد تبدو للقارئ أمراً هيناً قليل الخطر ، هي من أكثر الأحداث أهميّةً في تاريخ "لبنان" السياسي . بل هي، فيما أرى، مفتاح

---

(7) قواعد الآداب حفظ الأنساب. تحقيق الياس البيطار. منشورات الجامعة اللبنانيّة ، بيروت 1986 / 49 .

تاريخه كما لا يزال مُستمراً حتى اليوم. وأفرزت ما يعسر إحصاؤه من الأحداث الآخذ بعضها برقاب بعض. ومنها، من أسف، مُسلسل الحروب الأهليّة الدّامي ، الذي ماز تاريخَ هذا البلد . وما يزال يتوالى فيما يُشبه الإيقاع الآلي الثابت ، الذي يبدو وكأن ما من سبيل لتفاديه .

والعلّة في ذلك هي في الاختلال السَّكّاني المُتمادي الذي بدأ بإجلاء أهل " كسروان "، بعد تقتيل مَن قُتل منهم. فتوطين التركمان في أرضهم. فنزوح هؤلاء منها. هذا المسلسَل أدّى بدوره إلى المزيد والمزيد: فالموارنة الذين كانوا في مواطنهم التاريخيّة في الأعالي الشماليّة، أي في "بشرّي" وما والاها، انتهزوا فرصة الفراغ السكّاني بعد نزوح التركمان من "كسروان" ، فانطلقوا هابطين باتجاه الجنوب ، حتى وصلوا بعد قرون إلى حدود"فلسطين" . تاركين حيثما عبروا بقايا منهم ، ممّا تتركه أي حركة سُكّانيّة مُماثلة . وخصوصاً في منطقة "الشوف" الدّرزيّة . حيث غدوا في زماننا، أي إلى ماقبل الحرب الأهليّة الأخيرة سنة 1975م، أكثريّة . في حين أن التركمان تابعوا انتشارهم في السواحل ، من " "طرابلس" في الشمال ، حتى "صيدا" في الجنوب . وما عتّموا أن غدوا ظاهرة سُكّانيّة بارزة في "طرابلس" و "بيروت " و " صيدا " وأرياف كلٍ منها .

في هذا الإطار يجب أن نضع ما يذكره مؤرخون محدَثون ، من أن ظهور المسلمين السُنّة في مُدُن الساحل ، يعود إلى الفترة المملوكيّة. لا سيّما منذ القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد [8]. وإن لم يقِفوا على ما وقفنا عليه من سياقٍ تاريخيّ مُتصل . والمؤرخ الذي يُحسِن قراءة التاريخ في وثائقه الموضوعيّة (التقاليد ، العادات اليوميّة ، أسلوب العيش ، اللهجات المحليّة ، أسماء الأسرات ، المذاهب الدينيّة ، أنواع

---

(8) منهم كمال صليبا في : تاريخ لبنان الحديث ، ط . بيروت 1979 م / 14 . وجيه كوثراني في : الاتجاهات الاجتماعيّة السياسيّة في جبل لبنان والمشرق العربي ، ط . بيروت 1987 م / 32 وغيرهما .

الأطعمة المُفضّلة ..... الخ.) يستطيع أن يرى الآثار الباقية من هذا الأصل البعيد . مثلما يقرأ عالِم الآثار تاريخ الأمم السالفة فيما خلّفته من آثار ماديّة . ولكن هذا بحث لن نخوض فيه الآن بأكثر من هذه الإشارة السريعة . وهو يستحقّ دراسة مُستقلة ، وفق منهجنا التاريخي الإنساني . ولعلنا نفرُغ له في يوم من الأيام إن شاء الله .

ما وصفناه من مُتغيّرات سُكّانيّة مُتلاحقة ، حملتْ إلى المسلمين الشيعة ما رأوا فيه ، بحقّ ، تهديداً جِدّيّاً لوجودهم التاريخي . والضغطُ السُكّاني على المُدُن الساحليّة ، الذي كان مدعوماً من السلطة (ولا ننسَ هنا الإمارات التركمانيّة ذات السّطوة) اتخذ شكل ضغطٍ معنويٍّ بالغ الشّدّة . " وأخذوا مُذ ذاك يختفون من أكثر مُدُن السّاحل اللبناني . لتحِلّ محلّهُم جالياتٌ سُنّيّة ، جاء بها المماليك " [9] .

في هذا الإطار من الأحداث ونتائجها ، يجب أن نضع نصّاً ورد لدى المجلسي (ت : 1111هـ/ 1699م) في (بحارالأنوار) . ونقله يوسف البحراني (ت: 1186هـ/ 1754م) في (لؤلؤة البحرين) ومحمد باقر الخوانساري (ت 1313هـ/1895م) في (روضات الجنات) .

يتحدّث أولئك جميعاً عن " أهل السواحل من المُتستّنين " [10] . أي الذين تحوّلوا عن قريب إلى أحد المذاهب السُنيّة . وهو نص هام جداً ، لمن يرصد التحوّلات العميقة التي نشأت على قاعدة الأحداث البالغة العُنف التي حملتها تلك الأيام الانقلابيّة . من حيث أنه يُشير إلى عدد مُعتدّ به من المسلمين الشيعة في "**السواحل**" ، تأثّر بالاجتياح السُكاني العالق ، والمدعوم من قِبَل سُلطةٍ قاهرة ، فأنتج ظاهرةً نجدُها دائماً في مثل هذه الحال وما يُشبهها . هي الذّرائعيّون الذين يُقدّمون مصالحهم على أي اعتبار آخَر.

---

(9) تاريخ لبنان الحديث / 15 . والمؤدّى نفسه نجده لدى عصام شبارو : تاريخ بيروت ، ط . بيروت 1987 م / 114 .

(10) 107/ 185 و146 و 7 / 13 . على التوالي .

فيحلّون ما ينالهم من الأزمة ، عن طريق إعلان انضمامهم إلى الغالِب الأقوى . وبما أن العنوان الأبرز ، والذي يمكن استخدامه في مثل هذا الإعلان هو المذهب ، فإنهم يتخلّون عن مذهبهم إلى مذهب الغالب .

من وجهة نظر نقديّة ، فإنه ما من ريب إطلاقاً في براءة النص . لأنه لا يأتي في سياق حديثٍ عن حجم الوجود الشيعي في المنطقة مثلاً ، أو أي سياق مُشابه ، يمكن أن يكون دافعاً عند صاحبه للاختلاق أو الوضع . لاشك في أن المجلسي الإيراني والبحراني ، الذي يدلّ اسمه على موطنه ، والخوانساري الإيراني أيضاً ، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن تاريخ المنطقة ، أي أنهم كانوا خاليي الذهن تماماً عن التفكير أو معالجة ما نُعنى به الآن. وأصل النص عن المقداد السّيّوري ، تلميذ الشهيد المقرّب . الذي كان ولا ريب عارفاً بالظرف السياسي ــ الاجتماعي الذي اضطرب فيه شيخه .

ثم أن هناك ما يدلّ على أن هذا السلوك الانتهازي لم يكن الارتكاس الوحيد ولا الغالب على " **أهل السواحل** " . يُشير إلى ذلك نصّ ورد لدى ابن يحيى ، تحدّث فيه عن حركة للمسلمين الشيعة في " بيروت " ، وأنهم " أظهروا القيام بالسُنّة " [11]. ونحن لا نتهم هذا النص من حيث المبدأ ، بل يبدو أنه ، من هذه الوجهة صحيح . ولكننا نرى ضرورةَ إجراء تعديلٍ أساسي عليه . يُمليه علينا فهمُنا المُختلف لحوافز وطبيعة هذه " **الحركة** " ، بعد أن وضعناها في إطارها التاريخي الصحيح ، المُناسب لِكلّ ما وصفناه من مسارٍ حدَثي . يأتي هذا الـ "**قيام** " الآن على رأسها .

فهذا الـ " **القيام** " الذي رآه ابن يحيى مذهبياً ، مُوجّهاً إلى السُنّة ، بما هم سُنّة ، نراه نحن سياسياً مُوجّهاً ضدّ السلطة ، مملوكيّة ـ مركزيّة ، بوصفها التي قادت منذ البداية كل ما رأى فيه الشيعة بحق سبباً كافياً للخوف على وجودهم ، ابتداءً من اجتياح " كسروان " ، فتداعياته وقد وصفناها . وتركمانيّة ـ محلّيّة ، عسكراً وجمهوراً ،

---

(11) تاريخ بيروت لابن يحيى / 195 .

بوصفهما مادّة هذا الانقلاب السُكّاني وحاميته .

وعلى كلّ حال ، فإن لابن يحيى عُذرَه الواضح في عدم إدراك ما وراء الحَدَث ، لأنه وقومه لم يكونوا مُكتوين بناره . بل ربما كانوا مُستفيدين منه . ويمكن للذين يؤرّخون للنظام الطائفي في "لبنان" أن ينظروا إلى هذا التزييف ، الذي ربما كان مُتعمّداً ، بوصفه أول بادرة من نوعها رمَتْ إلى تغطية حالة سياسيّة ـ مطلبيّة بغطاء طائفي ، ابتغاءَ تحريض قسمٍ من المجتمع السياسي عليها . ومثل هذا في تاريخ "لبنان " يفوق الإحصاء .

بعد هذا التمهيد نبدأ الدخول إلى عمود البحث .

4 ــ بواعثُ الشهيد على العمل .

تلك هي الصورة القاتمة ، المُنذِرة بما هو أدهى ، التي يستخرجُها الباحث ممّا تحت يديه من مصادر . وهي ، أعني الصورة ، وإن تكن كافيةً لبناء تصوّر في العام . لكنها ولا ريب ، قاصرة عن قول كل شئ . وخصوصاً عن قول ما جرى على الضحايا . وما ذاك إلا لأننا إنما أخذنا أكثر عناصرها عن غيرهم . وهذه ، من أسف ، مُشكلتنا المُزمنة مع التاريخ السُلطوي .إنه لا يُفيدنا فيما يتعلّق بالعباد إلا حيث تتقاطع أخبارهم مع أخبار السُلطة . لأن دأبَ المؤرّخ أن يلهث وهو يتتبّع ما يسطره من أخبارها . في حين يُوجّه عينه العوراء نحو شؤون الناس . مع أنهم هم صانعوا التاريخ وأسياده . ولكن أكثر المؤرخين لا يعلمون .

وذلك هو ، فيما نرى ، الظهير السياسي ـ الاجتماعي الذي تعامل معه الشهيد ، بعد أوبته من رحلته العلميّة الواسعة . ونظن ، نقول : نظن ، لاشكّاً ، وإنما لأننا فيما سنقوله ندّعي العلم بالسرائر ، . أنه الحافز الذي بعثه إلى الفكر وإلى العمل ، وِفق منهج مُتكامل . سيكون علينا أن نصِفه وأن نُبيّن عناصره فيما بقي من هذا الفصل .

حقٌ أن " جبل عامل " ، لم يُصَب إصابةً مباشِـرة في ذلك المُسلسَل ذي الحلقات ، الآخذ بعضها رقاب بعض . لكننا رأينا ، وكأنما رأيَ العين ، أن الشيعة كانوا الخاسر الأكبر ، بل الأوحد ، في كلّ ما جرى منذ نكبة " كسروان ". وغنيٌّ عن البيان أن أعضاء الجسد تتداعى . وأن ما أصاب جزءاً منه نذيرٌ للجزء الآخَربالمصير نفسِه . خصوصاً وأننا قد عرفنا أن قسماً ، بل القسم الأكبر ممّن هُجّروا منه ، قد لجأ إلى " جزين " بلد الشهيد وإلى منطقتها . ثم أن القارئ لرسالة ابن تيميّة إلى السلطان ، الحافلة بضروب التضليل والبهتان ، ليرتاعُ لِما فيها من إغراءٍ صريحٍ بسفك المزيد والمزيد من دماء الشيعة . مع تحريضٍ خاص بأهل " جزين " و " جبل عامل " . **"هم وسائر هذا المذهب الملعون . مثل أهل جزين وما حواليها ، وجبل عامل ونواحيه "**[12] ليعود في خاتمتها إلى تأكيد التحريض ، مع إضافة مناطق أُخرى :

" **تمام هذا الفتح وبركته تقدّم مراسم السلطان بحسم مادّة أهل الفساد [......] وهي قُرىً متعدّدة بأعمال دمشق وصفد وحمص وحلب** "[13] .

وكان " جبل عامل " آنـذاك من أعمال " صفد " .

فنحن نرى من مجموع هاتيك الوقائع الثابتة ، والنصوص الواضحة ، والتحليلات المقبولة ، أنه كان هناك بالفعل في وطن الشهيد بواعث كافية للعمل . تجعل كل الذين يرون في أنفسهم هدفاً فعليّاً أو مُحتمَلاً ، لأعمال مَن يملكون مقاليد السُلطة ، أو يُصغون إلى مثل ما سمعناه من تحريض ، يبحثون عن مخرَج يقيهم الشرور العظيمة التي تلوح تباشيرها. وما مثل هذه الأزمة مَحَكّاً لمعادن الأمم والرجال . وما مثلها هذا الظرف ظرفاً لبروز الأبطال .

---

(12) العقود الدريّة / 185 .

(13) نفسه / 192 .

5 ــ في سُوح العمل : الإعداد ا لفكروي

لسنا نملك صورة واضحة عمّا كان يجري داخل " جزّين " بعد عَوْد الشهيد إليها واستقراره فيها وشُروعه في العمل وفقَ خطّةٍ مُحكمَةٍ أعدّ لها أسبابَها بدقّة. كل ما عندنا أصداءٌ تتجاوب عاكسةً بتجاوبها صورةً مُجتزَأةً ممّا يجري . وهذا من نتائج ضياع ما سجّله تلاميذه ، وأشار إليه أو إلى بعضه مُختصِر(نسيم السّحَر) . ومن المُرجّح جدّاً أن العثورَ على أصل هذا الكتاب الهام، سيُضيف الكثيرَ إلى معلوماتنا عن أعماله في هذا النطاق.وهو أمر سنظلُّ نأمل حصوله إن شاء الله تعالى .

ليس في أعمال الشهيد الأولى، بقدر ما تعطينا إياه الكُتُب التي سجّلت سيرته ، ما يدلّ على أنّــه كان يرمي إلى أمرٍ كبير . وهذا أمرٌ مُتوقّع بالنسبة لامرئٍ كان عليه أن يبدأ من لا شئ تقريباً . ولو انه أُتيح لتلك الأيام ذات الخطر، مَن يُراقبُ ما يجري فيها آنذاك بعين يقِظة ، ويُسجّل أحداثها ، لَما وجد الكثير ممّا يستحقّ التسجيل . فها هو أحد أبناء هذه القرية الهادئة الفقيرة يعود إليها بعد غياب طال زهاء التسع سنوات ، قضاها في طلب العلم ولقاء الشيوخ . ولكن مثل هذا حدث من قبلُ في "المنارة " و " طلّوسة " و " مشغرة " ، بل حتى في " جزين " نفسها [14] ، دون أن يؤدّي إلى كبير أمر .

ثم إذا به يُنشئ فيها مدرسة [15] ، اختار لها مكاناً في أعلى القرية ، حيث يوجد نبع الماء الذي يُغذّي النهر الصغير الذي يشقّها . ولكن مثل هذه المدرسة ، أو أصغر منها حجماً ، قد أُنشئت قبل نصف قرن تقريباً في قرية " مَجدَل سِلِم " غير البعيدة . ثم

---

(14) كتابنا : جبل عامل بين الشهيدين / 67 - 78 .

(15) مرجع الهامش رقم 67 في الفصل الثالث .

قمعَتِ السُلطةُ مُنشئها ، وهو نفسه مُدرّس طلابها [16]. وبذلك انتهت أول أحلام " جبل عامل " ، باليقظــة على الواقع المَرير ، الـذي يسلبُهُ حقَّه الطبيعي في العمل باتجـاه التقـدّم . كما كان المُحتلون الصليبيون من قبلُ يفعلون .

لكن هذا القادم الكبير يأتيه الآن بمجـدٍ غير مسبوق . وهو الذي لم يخرج من " الحلّة " إلا بعد أن غدا من شيوخها وصاحب حلقة . وذلك بالنسبة إلى قومه العطشى خصب وريّ . وهم أولاء الذين عرفناهم مُستفزّين إلى ما يعلو بذاتيّتهم المأزومة بالاحتلال الطويل إلى المعارج التي تهفو إليها أنفسهم . بعد أن انقضت عهودُ الضّيم والهضم والاستلاب والرّيادة البطيئة . وها الآن مَن جاء يقودهم على الصراط المُستقيم .

من هنا ، فيما نحسَب ، انطلق الشهيد . رافعته الأولى مكانتُه العلميّة غير المَسبوقة . التي تتوفرّ الأدلة والملاحظات على أنها أكسبته بسرعة موقعاً عالياً في بلده " جزين " أولُ ، كما تقتضي طبائع الأشياء . وهو هو ذلك البلدُ ذو التاريخ الأكثر عراقة ، بالنسبة لكل ما حوله ، في إنتاج العلماء . ثم ، بالتأكيد ، في " جبل عامل " . وعَبْره في عالم التشيّع القريب والبعيد . الأمر الذي جعل منه قُطب الرّحى ، بين قوم هم بالفعل في مسيس الحاجة إلى قطب يُدبّر أمورهم . ويلمّ ما تشعّث منها في القرون الثلاثة الماضيات . ويُحرّرهم من أزمتهم التي طال استحكامُها .

لكن المُشكلة أن ذلك " القطب " كان وحيداً والمُهمّات ثِقال . نقول هذا مع علمنا بأن من تلاميذه في " الحلّة " ثلاثة من أبناء " جبل عامل " هم :

ـ الأول : علي بن بشارة العاملي الشّقراوي الحنّاط . نسبةً إلى بلدة "شقرا" المعروفة حتى اليوم بالاسم نفسه في " جبل عامل " .

ـ الثاني : عز الدين أبو عبد الله الحسين بن علي العاملي .

---

(16) جبل عامل بين الشهيدين / 78 ـ 89 .

ـ الثالث : حسين بن محمد بن هلال الكركي . نسبة إلى بلدة " الكرك المعلاوفة " في " سهل البقاع " ، شرق " لبنان " اليوم . والتي أنجبتْ من بعدُ سلسلةً من العلماء العاملين في وطنهم وفي مهجرهم "إيران" .

كما أنه استحضر أو تبعه إلى " جزين " ثلاثة من تلاميذه العراقيين ، هم :

ـ الأول : محمد بن الخازن الحائري .

ـ الثاني : محمد بن عبد العلي بن نجدة .

ـ الثالث : المقداد بن عبد الله السّيّوري .

لكننا لا نعرف ما يُذكَر عن أعمال أولئك العامليين الثلاثة . بل لا نعثر على أي إشارةٍ يُفهم منها أنهم رجعوا إلى وطنهم . وقد يكون ذلك راجعاً إلى ضياع كثير من المعلومات عن تلك الفترة . في حين أننا على يقين من أن التلاميذ العراقيين الثلاثة قد تركوا وطنهم ، وتبعوا شيخهم ، وعاشوا معه في " جزين " حتى شهادته . ولا ريب في أنهم عاضدوه في أعماله . كما أنهم أغنوا معلوماتنا عنه [17]. كما أنه لا ريب في أن السيّوري كان أبرزهم . " **كان ، بيّض الله غرّته ، رجلاً جميلاً من الرجال ، جهوري الصوت ، ذرِب اللسان ، مُفوّهاً في المقال ، مُتقناً في علوم كثيرة . فقيهاً مُتكلماً أصولياً نحوياً منطقياً . صنّف وأجاد** " كما شهِد تلميذه الحسن بن راشد الحلّي [18] . ويقول تلميذه هذا : " **ورتّبَ [** يعني السّيّوري **] القواعد للشيخ الشهيد محمد بن مكّي ترتيباً اختاره . وبحثتُ معه شيئاً منها ، فقطع المُباحثة لأمرٍ لم يُطلعني عليه وعن إتمام كتابتها ، وقال ، إني كتبتها لنفسي ، وإني لا أكتبها لأحد** " [19]. وأعتقد أن القارئ العارف يُشاركني التأثّر العميق بما تشي به هذه الكلمات ، من حُزن السّيّوري المُقيم للنهاية الفاجعة لشيخه . وهو الذي غادر " جزين " نهائياً بعد ذلك ، ليموت في " النجف " بتاريخ 26 جُمادى الآخرة

---

(17) مختصر نسيم السّحَر / 32 وبحار الأنوار : 107 / 184 ـ 86 .

(18) آغا بزرك الطهراني : طبقات أعلام الشيعة ، ط. قم ، مؤسسة اسماعيليان لات:139/9 .

(19) نفسه .

826 هـ = 2 / 5 / 1423 م [18] .

نبتغي من إيراد هذه المعلومات عن تلاميذ الشهيد الأوائل ، الإلماحَ إلى أمرٍ نحسّه من سِياقِ أعمالِه . وهو أنه كان منذ أيامه الأخيرة في " الحلّة " على الأقلّ ، يضع الخِطط لِما سينهمك فيه بعد عوده إلى وطنه . وأنه في هذا السبيل استحضرَ معه ، أو ربما بعد أن أتمّ رحلته العلميّة واستقرّ به المقام في "جزّين" ، عدداً من خِيار تلاميذه فيها ، لكي يعاضدوه فيما ينتظره من مهامٍ ثِقال . وعلى رأسها إعداد النّخبة ، التي سيكون عليها بانتشارها المدروس في مُختلف المناطق من "لبنان" ، أن تتولّى زمام قيادة شعبه وتوجيهه وتنظيمه . وهذه آليّةٌ في العمل راكمَ التشيّعُ ورجالُه خبراتٍ طويلةٍ عليها ، منذ أيام الأئمة عليهم السلام .

ولقد كُنّا قد استفرغنا الوسع في الفصل الفائت ، في تعداد أسماء مَن نعرفهم من تلاميذ الشهيد . وانتهينا إلى أن مَن نعرفهم ، على كثرتهم ، هم أقلّ ممّا نعتقد [20].
وأتى الآن أوان تركيب هذه المعلومة في سياق . فمن المعلوم أن البحث إنما هو تقميشٌ فتركيب . وأكبرُ السرّ كامنٌ في التركيب .

إن أول ما يلاحظه المُتأمّل في سيرة الشهيد ، ذلك الحشد من الفقهاء الذي ربّاه ودرّبَه . وهو حشدٌ غير مسبوق في تاريخ " جبل عامل " ، الذي ندُر أن اجتمع فيه من قبلُ فقيهان في عصر واحد . وفي هذا السبيل هيّأ أسباب النجاح . فاستحضر من تلاميذه معه مَن يعاضدوه فيما خطّط له ، كما سبق منّا القول قبل قليل . ثم أنه أنشأ مدرسة وُصفت بأنها "عظيمة " [21] . هي أولى المدارس الكبرى في " جبل عامل " ، وربما كانت المدرسة الوحيدة في تاريخه الحافل . بل إنه عمد إلى تصنيف كتابٍ في الفقه الاستدلالي ، سمّاه (الدروس) ، اي مجموعة الدروس التي كان يُلقيها على

---

(20) انظر مَرجع الحاشية رقم 65 من الفصل الثالث وما قبلها .

(21) انظر مَرجع الحاشيتين 67 و 68 من الفصل السابق .

تلاميذه الناضجين تدريباً لهم على فن الاستنباط [22] . ومن الواضح أنّ جَماعَ هذه عملٌ إعدادي بكامل الأدوات .

هذه الملاحظة ذات وجهين . فهي ، من جهة ، تدلّ على اهتمام الشهيد البالغ بهذا الشأن الإحيائي . كما أنها تدلّ ، من جهة أُخرى ، على أنه كان يزرع غرسَه في أرض خصبة. أي أن الفضل أيضاً في المحل القابل. فما من مُشعلٍ ناراً في رمادٍ بارد ، مهما يكن حطبه جَزْلاً ، ومهما نفخ فيه .

هكذا دفع الشهيدُ التّوقَ المُزمن الكامن في وطنه إلى حيّز الفعل . ونُذكّر هنا بقول أول مَن أرّخ لـ " جبل عامل " الثقافي ، الحُرّ العاملي : " **قد سمعتُ من بعض مشايخنا أنه اجتمع في جنازة في قرية من قُرى جبل عامل سبعون مُجتهداً في عصر الشهيد أو ما** قاربه " [23] . ومهما يكن في هذا العديد أو الوصف من مبالغة ، فإنه يدلّ دلالة مُؤكّدة على حجم النقلة التي تمّت على يده . وما أولئك الرجال الذين تحلّقوا حول قُطب الأوان ، إلا الطليعة التي ستُنبت أمثالها . وستمتدّ في الزمان ، وستنداح في المكان . مؤسّسةً لواحدةٍ من أعظم ملاحم الفكر ، وأشدّها إثارةً للعجب . لأنها نبتت من خارج القوانين المعروفة لنبات أمثالها . فمن المعروف أنّ الناس إنما يصرفون جهدهم إلى شؤون الفكر أو الأدب أو الفن عادةً بعد أن يُحققوا لأنفسهم حدّاً مقبولاً من الكفاية في حاجاتهم الأساسيّة . ولكنّ هذه نمَت وازدهرت وأثمرت في العَوْز والتطويق والحذر . بل واستمرّت حتى بعد القتلة الشنيعة لرائدها ، وكأن شيئاً لم يكن . وفي هذا ما هو أشدّ إثارة للعجب . ودليل لا يُدحَض على قوّة التصميم التي عمرت نفوس أولئك الرجال .

هناك من الأدلّة ما يكفي ، على أن تلاميذ الشهيد وأبناء مدرسته ، قد انتشروا من بعدُ في مُختلف الأنحاء . وأنّهم كان لهم من الأثر في الميادين الفكريّة والاجتماعيّة

---

(22) انظر مَرجع الحاشية 69 من الفصل السابق .

(23) أمل الآمل : 1 / 15 .

والسياسيّة بين قومهم ، ما يستحقّ أن يُفرَد بالحديث . وسنقِف عليه إن شاء الله تعالى .

بيدَ أننا قبل أن ندخل في هذا البحث المُعقّد ، علينا أن نُبيّن أمراً نراه ضرورياً جداً . هو في وجه من وجوهه مُكمل لِما فرغنا منه . حيث بيّنّا أعمال الشهيد في إعداد النُخبة . لكن طغى عليه هناك الاهتمام بالجانب الإعدادي ــ العملاني . وسيكون علينا الآن أن نهتمّ ببيان الجانب الإعدادي ــ الفكري . وهو مُتمّم لذاك العملي . بدون الوقوف عليه لن يكون في وسعنا أن نفهم بعض ما سيكون محلّ اهتمامنا فيما يأتي من سيرته .

هذا الجانب يتعلّق بالفقيه وموقعه من مُجتمعه . فلقد علمنا ممّا سبق بيانه ، أن خطّة الشهيد تعلّقت بإعداد أكبر عدد ممكن من الفقهاء المؤهّلين . لكي يكونوا النخبة ، التي ستوجّه قومها في الطريق الطويل ، المؤدّي إلى بناء مجتمع مُتراصّ . يملك أدوات الصمود ، لتُنجيه ممّا هو مُتوقّع من حلقات ذلك المُسلسل المُهلِك الذي حاق به . ومن الغني عن البيان ، أن أمراً كهذا لن يتأتّى من دون رَسْم حدود واضحة لموقع الفقيه . تكون معلومة عنده وعند الناس .

إن القارئ لمؤلفات الشهيد الفقهيّة ، إن كان يبحث عمّا نبحث عنه ، يُلاحظ أنه أتى بلُغةٍ فقهيّةٍ جديدة ، تدور على مفهوم جديد هو أيضاً . ذلك هو مفهوم (النائب العام) للإمام . مؤدّاه أن كل فقيه اجتمعت فيه أوصاف معلومة يكون نائباً عاماً عن الإمام . والوصف بـ "عام" هنا هو للنائب ــ الفقيه ، وليس للنيابة . وهو آتٍ من أن التنصيص عليه قد ورد في مصادره على أوصاف وشروط . كل مَن اجتمعت فيه اكتسب صلاحيّات قضائيّة وحِسبيّة وتنفيذيّة . وذلك في مقابل النائب الخاص . الذي كان أحد الأئمة ينصّ عليه بالذات . ابتغاء تقديم الخدمات والرعاية للمؤمنين في البلاد البعيدة . حيث لا يتيسّر الاتصال بالإمام .

نصوص هذه " اللغة الفقهيّة الجديدة " كثيرة . وفيما يلي نماذج منها :

" **وفي غيبة الإمام ينفذ قضاء الفقيه الجامع للشرائط . ويجب**

الترافُع إليه . وحكمه حكم المنصوب من قِبَل الإمام خصوصاً " [24] .

" وهـو [أي القضاء] وظيفة الإمام أو نائبه . وفي الغَيْبة ينفذُ قضاء الفقيه الجامع لشرائط الإفتاء. فمَن عدل عنه إلى قضاء الجوْر كان عاصياً " [25].

" والحدود والتعزيرات إلى الإمام ونائبه ولو عموماً . فيجوز في حال الغَيبة للفقيه الموصوف بما يأتي في القضاء إقامتها مع المُكنة . ويجب على العامّة تقويته ومنع المُتغلّب عليه مع الإمكان . ويجب عليه الإفتاء مع الأمن . وعلى العامّة المصير إليه والترافع في الأحكام . فيعصي مؤثِر المُخالف ويفسُق " [26] .

" ويجوز للفقهاء في حال الغَيبة إقامة الحدود مع الأمن ، والحكم بين الناس ، مع اتصافهم بصفات المُفتي . ويجب الترافع إليهم . ويأثم الرادّ عليهم " [27] .

" ويُقسَم [الخُمس] ستة أقسام ، ثلاثة للإمام عليه السلام . يُصرَف إليه إن كان حاضراً ، أوإلى نُوّابه إن كان غائباً " [28] .

واقرأ في (ذكرى الشيعة) نصاً هاماً جداً ولكنه طويل ، على شروط وجوب صلاة الجمعة . حيث يذكرُ تسعة شروط ، أولها " **السلطان العادل أو نائبه** " . يتجه في ختامها إلى انعقادها حتى مع عدم وجود الإمام أو نائبه الخاص " **لأن الفقهاء في حال الغيبة يُباشرون ما هو أعظم من ذلك بالإذن كالحُكم والإفتاء . فهذا أولى** " [29] .

---

(24) الدروس الشرعية : 67/2 .

(25)اللُمعة الدمشقيّة في فقه الإماميّة. تحقيق مؤسسة فقه الشيعة، بيروت1410 هـ/ 1990 م /89.

(26) الدروس الشرعيّة : 2 / 47 ـ 48 .

(27) اللُمعة الدمشقيّة / 84 .

(28) نفسه / 28 .

(29) ذكرى الشيعة / 320 ـ 21 .

هذه نصوص حافلة بالمعاني والمغازي . تتركنا نعتقد بأن صاحبها يُدير في ذهنه مشروع سُلطة موازية للسُلطة الفعليّة، بل تتقدّم عليها: قضاءٌ مُستقلّ عن النظام القضائي القائم . يفصل الخصومات ، ويُنفذ الحدود والتعزيرات ، ويجب الرجوع إليه حصراً عند الاقتضاء . جهاز إفتاء مُماثل . نظام جباية وصَرْف . هذه بمجملها خطوة هائلة إلى الأمام بالتركيبة الثقافيّة التي خاطبها الشهيد بفتاواه تلك . نقول هذا مع علمنا بأن رُبّ قارئ قد لا يرى فيها كبير أمر . لأنه يعرف أن نظاماً كهذا كان قائماً عاملاً في عصر الأئمة عليهم السلام . وخصوصاً منذ الإمام الكاظم (148 . 183 هـ / 765 . 799 م) . هذا صحيح ، ولكن هذا النظام توقف تدريجياً بعد انقضاء فترة الحضور العلني للأئمة . وبادرة الشهيد الآن هي أول محاولة لإحياء هذه الصيغة بكامل عناصرها . في الإطار السياسي الاجتماعي الذي أصبح القارئ على خُبر منه .

نلاحظ أيضاَ أن الهمّ الأمني حاضر بقوّة في لغة تلك الفتاوى : " **مع المُكنة** " و " **يجب** [....] **مع الإمكان** " و"**يجب** [....] **مع الأمن** " و"**يجوز** [....] **مع الأمن** " . وفي هذا دليل على حالة القلق التي كانت تعمر نفس الشهيد وهو يخطّ فتاواه . ونخال أنه وصيّة ضمنيّة لشعبه بضرورة الحذر وهم يعملون بما أفتى لهم . والعلاقة بين مضمون هذه الملاحظة ، وبين الظرف السياسي الذي صدرت فيه ، غنية عن البيان .

ممّا لا ريب فيه أن جذور هذه الأفكار قد استحضرها الشهيد من "الحلّة" . حيث ساد المنهج الأصولي ـ العقلي ـ الاجتهادي . وحيث شهدنا البدايات المُتواضعة الأولى للتفكير السياسي الإمامي في عصر الغيبة . على يد الرائد الكبير محمد بن إدريس الحلّي (ت : 598 هـ / 1200 م) . ثم طوّرها من بعده المُحقّق الحلّي جعفر بن الحسن بن سعيد (ت : 676 هـ / 1277 م) [30] .

---

(30) للتوسّع في مضمون هذه الملاحظة ، مقالتنا : "عالِم الدين الإيراني ودوره في مجتمعه ". منشورة في فصليّة " شؤون الأوسط " ، العدد 103 ، صيف 2001 م .

هكذا يبدو لنا الآن بكامل الوضوح ، أن الشهيد كان يعمل على نقل شعبه إلى موقعٍ سياسي . ويُحرّك الكتلة الشيعيّة الكبيرة ، والخامدة أيضاً ، في وطنه ، إلى حيث تغدو مالكةً لزمام أمرها ، وقادرة بالتالي على استعادة ما أخذته منها كوارث القرون الثلاثة الماضية . أو ، على الأقلّ ، الصمود لعوادي الأيام ، في ظلّ السياسة المملوكيّة ومُمثليها المحليين .

يبقى أن نقِف الآن على التطوّرات العملانيّة في هذا السياق .

6 ــ أعمال الشهيد تؤتي ثمارها .

ليس في يدنا نصوص مباشرة تؤرّخ للفترة التي نتوقّعُ ان تكونَ الأعمالُ الإعداديّة للشهيد قد بدأت تؤتي ثمارها . وذلك بسبب غياب التسجيلات التاريخيّة الخاصة . أي التي كتبها مؤرخون معنيّون مباشرةً بمراقبة وتسجيل أحداث تلك الأيام ذات الخطر . فـ " جبل عامل " ، الذي كان آنذاك يحبو باتجاه نهضته الآتية ، لم يكن قد أنجب مؤرّخاً واحداً . والتسجيلات الوحيدة التي كتبها مُراقبون محلّيّون ، هي تلك التي يُشير إليها (مُختصِر نســيم السّحَر) على سيرة الشهيد ممّا كتبه تلاميذه . وذلك الغياب مفهوم جداً . فالناس إنما يكتبون تاريخهم ، شعوراً منهم بذاتيّتهم وأهمّيتهم . الأمر الذي لم يتحقّق لـ " جبل عامل " إلا بعد أن اكتسب كيانيّته الثقافيّة . وهنا كتب الحرّ العاملي كتابه الشهير (أمل الآمل) ، الذي أرّخ فيه لفترةِ النهضة من تاريخ بلده ، بالترجمة لأعلامها .

من هنا فإن كل ما عندنا عن تاريخ تلك الفترة ، هو ما سجّله مؤرخون راقبوا الأحداث من خارجها . وهم ، عموماً ، مؤرخون سُلطويون ، إنما يولون تاريخنا شيئاً من الاهتمام فقط حيث تتقاطع الأحداث مع تاريخ السُلطة .

في هذا النطاق ، فإننا نجد ثلاثة نصوص أساسيّة . تتفاوت من حيث أهميّتها .

كما أنها تنظر إلى الحدَث من زوايا مختلفة . ولكنها بمجموعها تُقدّم لنا ملامح تكفي لأن نتصوّر تصوّراً مّا ما كان يجري في تلك الأيام الانقلابيّة .

ـ الأول: ما يذكره أكثر من مصدر عن " **أعوانه** " وعن"**رفيق له** " اسمه عرفة [31]، والضمير في الكلمتين يعود للشهيد . وهو نص غامض وغريب . ما من ريب في أنه يكتم أكثر ممّا يُظهر . فمن هو "عرفة " هذا ؟ وما كانت علاقته بالشهيد ؟ وما هي دلالة أنه كان للشهيد أعوان في مدينة " طرابلس " البعيدة عن " جبل عامل " ؟ وما معنى " **مُعتقده** " في قول المصدريَن معاً : " **وضُربت عُنق رفيقه عرفة بطرابلس ، وكان على مُعتقَده** " ؟ . ومُعتقَده ، عند العسقلاني والحنبلي كلاهما ، هو "مذهب النصيريّة " [32] . فهل نفهم من ذلك أنّ الشهيد مدّ نشاطه إلى منطقة " طرابلس" ، حيث توجد عدّة قرى معمورة بالعلويين الشيعة ما تزالُ حتى اليوم . وأن السُلطة ردّت بأن قتلت " **رفيقه** " عرفة ، في الفترة نفسها التي قتلت فيها الشهيد . بل وأنها حرصت على قتل عرفة في "طرابلس" ، كيما تكون قتلته هو أيضاً بمثابة رسالةٍ مُوجّهَةٍ إلى قومه بضرورة الاستكانة ؟

أسئلةٌ لا نجِدُ سبيلاً للجواب عليها .

مهما يكن ، فإن من المفهوم أن كلمة " **أعوانه** " تُشير إلى فريق عمل ، على شئ من التنظيم على الأقل ، يتلقّى الأوامر من الشهيد . كما أنها قد تعني ، فيما تعنيه ، الفقهاء الجُدد من تلاميذ الشهيد . الذين انتشروا في مختلف القُرى والبلدان .

---

(31) ابن العماد الحنبلي عبد الحي : شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب ، ط. بيروت ، المكتب التجاري ، لات : 6 / 294 ، ابن حجر العسقلاني أحمد بن يحيى : إنباء الغمْر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي ، ط. القاهرة 1388 هـ / 1968 م : 1 / 200 .

(32) في المصدرين تفسيهما : " وفيها قتل محمد بن مكي الرافضي بسبب ما شُهد عليه من الانحلال واعتقاد مذهب النُصيريّة " .

وخصوصاً في المنطقة الساحليّة ومنها " طرابلس " حيث كان وما يزال أقليّة من الشيعة العلويين ، النُصيريّون في لغة النص . مُسلّحين بأفكار شيخهم . ممّا سنعالجه في قراءتنا الآتية لنص التوقيع الذي نشرته السلطة في " دمشق " ، بعد قليل .

أمّا " **رفيق له** " ، فهي تدلّ على معنى عام يصعب تحديده بدقّة ، ولكن السّياق الذي وردت فيه الكلمة ، بالإضافة إلى حرص السُلطة على قتل ذلك " **الرفيق** " في بلده "طرابلس" ، للغرض الذي ذكرناه ، يتركنا نعتقد أن السُلطة كانت في وضع مُلاحقة جماعةٍ أشبه بتنظيم واسع الانتشار .

ــ الثاني : يقول المقداد بن عبد الله السّيّوري ، تلميذ الشهيد المُقرّب ، أنه كان ممّا أُخذ على شيخه ، وأدّى إلى المحاكمة التي انتهت بقتله ، أنه " **كان عاملاً** " [33] . وهي عبارة ذات مغزىً عميق . جاء ت بكلمةٍ من خارج الكلام الدائر على الألسُن : " **عامل** " . هي ، ولا ريب ، قادمةٌ من اللغة الديوانيّة الرسميّة . ممّا يُشيرُ إلى المصدر الذي أتت منه . أعني السُلطة المملوكيّة بالذات . وإننا نعلم ، استناداً إلى المقداد أيضاً، أنّ الكلمةَ كانت من ضمن المحضر الذي تولّى تنظيمَه الخائن تقي الدين الخيامي بحقّ الشهيد . ثم رفعه إلى القاضي المحلّي في " صيدا " أو في " بيروت " [34] . ممّا يُشير ضمناً إلى أنه ، أي المحضر ، كان نتيجه تفاهم أو تنسيق مُسبَق بين الخيامي وبين السُلطة .

في سبيل فهم معنى الكلمة ، رجعنا إلى المصادر المعنيّة بتحديد معاني الكلمات المُستعملَة في اللغة الديوانيّة الرسميّة ، وعلى رأسها ، طبعاً ، (صُبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلشندي (ت : 821هـ / 1418 م) ، حيث وقعنا على التعريف التالي :

---

(33) بحار الأنوار : 107 / 185 ، لؤلؤة البحرين / 146 .

(34) المصدران نفساهما .

" العامل : وهو الذي يُنظّم الحُسبانات ويكتبها . وقد كان هذا اللقب في الأصل إنما يقع على الأمير المُتولّي العمل . ثم نقله العُرف إلى هذا الكاتب ، وخصّه به دون غيره " [35] .

إذن ، فنحن هنا أمام معنييَن للكلمة :

ـ تاريخي مهجور ، ذو مضمون سياسي "**يقع على الأمير المُتولّي للعمل** " ، أي الوُلاة على الأقطار . والتفسير الوحيد المُتصوّر لاتهام الشهيد بتهمة كهذه ، هو الصّلة التي قامت بينه وبين علي بن المّؤيّد الخراساني . اعتبرها الوُشاة ، على سبيل تحريض السُلطة على الشهيد ، نمطاً من تولّي العمل له . وما من ريب في أن تُهمة كهذه ، ستكون كافيةً لتذكير السُلطة المملوكيّة بدور ابن المؤيّد في فتح أبواب " خراسان " أمام تيمور [36] عدوّها اللدود . خاصةً وأنه منذ السنة 783 هـ / 1381 م كان ابن المُؤيّد قد غدا مُجرّد ظلّ لتيمور في " خراسان " . بحيث أنه لن يكون من الصعب تداعي تصوّر السُلطة للصلة بين الشهيد وابن المؤيّد حتى تصِل إلى تيمور نفسه . ولاننسَ أن تيمور كان يُجاهر ، لأسباب سياسيّة ، بالميل إلى التشيّع . حتى أنه عندما فتح " دمشق " بعدُ ، أعلن أنه يأخذ بثأر الإمام الحسين عليه السلام من أهلها[37].

لكن ما يُهوّن من شأن هذه الفذلكة إجمالاً ، أن القلقشندي يُصرّح بأن هذا المعنى التاريخي للكلمة كان مهجوراً في زمانه .

---

(35) القلقشندي : صُبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ط. مصر ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصريّة العامة للتأليف والترجمة والنشر (نسخة مُصوّرة عن طبعة المطبعة الأميريّة) لات : 466/5.

(36) عجائب المقدور في أخبار تيمور / 19

(37) خوُانـد أمير ، غياث الدين بن همُام الدين الحسيني : حبيب السّيَر في أخبار أفراد بشر (بالفارسية) ، ط . طهران 1333 هـ . ش : 3 / 497 ـ 98 .

ــ المعنى الثاني للكلمة " **الذي يُنظّم الحُسبانات ويكتبها** " هو الذي كان معمولاً به في عصر القلقشندي ، الذي هو عصر الشهيد أيضاً . ومن الغنيّ عن الذكر أنه لهذا السبب أدعى للاهتمام . بالإضافة إلى أنه يبدو لنا مفهوماً جداً .

ذلك أننا عرفنا ممّا فات قبل قليل ، أن الشهيد حكم بلُزوم دفع خُمس فاضل النفقة من المكاسب إلى الفقيه الجامع لشرائط الفتوى (نائب الإمام) . وهذا إحياءٌ للعمل بخُمس المكاسب كما كان في أيام الأئمة (عليهم السلام) . وهو تشريعٌ يمنحُ الفقيهَ الحقَّ في جباية ثلاثة سهام من أصل ستة من خُمس فاضِل نفقة كلّ مُكلّف . أي عُشر فاضل النفقة [38] .

---

(38) من المفيد أن تكون لدى القارئ فكرة عن تاريخ هذا التشريع ، لأنه سيُقرّبه من فَهْم أبعاد خطوة الشهيد في هذا النطاق . وعليه نقول :

إن موضوع التشريع في أصل الشرّع هو غنائم الحرب . والنص عليه في قوله تعالى : " واعلموا أن ما غنمتم من شئ فإن لله خُمُسَه وللرسول ولذي القرُبى واليتامى والمساكين وابن السبيل " (الأنفال / 41) . ومنذ الإمام السابع ، موسى الكاظم عليه السلام (148 . 183 هـ / 765 . 799 م) ، على الأقل ، بدأ العمل بخُمس المكاسب . والظاهر أن التدبير اعتمد لتمويل التوجهات الجديدة للأئمة ، بعد انجلاء سنوات المحنة ، التي بدأت بيوم " كربلاء " . تلك التوجّهات التي بدأت معرفيّة . إعداديّة ، على يدي الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام (95 . 148 هـ / 713 . 765 م) . ثم تطوّرت بإضافة تدبيرات ذات طابع تنظيمي اجتماعي . عملت على تنظيم ورعاية شؤون الشيعة المتكاثرين في " العراق " و " إيران " و " آسية الوسطى " . لكنها لم تشمل مَن كان منهم في المنطقة الشاميّة . والحقيقة أن هذا التدبير كان من أنجح وأبرع تعميمات الأحكام وأعودها . خصوصاً وأن الحكم الأصلي ، أعني خُمس مغانم الحرب ، غدا غير ذي موضوع بعد انحسار حركة الفتوح . فإذا صحّ قولنا ، أن الشهيد قد أحيى العمل بهذا التدبير ، فهذا يعني أن المنطقة الشاميّة ، التي لم يكن لها منه نصيب على عهد الأئمة ، كان من حظّها أن يكون لها قصب السّبق لإحيائه من بعدهم ، على يد الفقيه . الأمرُ الذي أصبح معمولاً به من بعدُ على أوسع نطاق .

وعليه هل يمكن القول ، استناداً إلى هذا التحليل ، أن الشهيد قد أنشأ نظاماً خاصاً به للجباية والصّرْف ؟

الجواب على هذا السؤال يقتضي أن نقِف على النص الثالث والأخير ، من بين النصوص التي نعالجها في هذا القسم . أي النصّ التالي .

ـ الثالث : نصّ التوقيع الذي أصدرته السُلطة المملوكيّة بتاريخ 25 جمادى الآخرة 764 هـ / 17 أيّار 1362 م . " **بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرّافضة والشيعة وردْعهم** " [39] . وهو من أهمّ وثائق هذه الدراسة ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق . وقد أورده القلقشندي في كتابه بوصفه ، ويا لحُسن حظنا ، مثالاً وأنموذجاً يُحتذى لِما " **يُكتب في الأوامر والنواهي الدينيّة** " . في سياق عمله الرامي إلى تدريب كُتّاب الدواوين الرسميّة على مُختلَف صنوف التوقيعات والرسائل . ولاشكّ في أنه حين اختاره دون سواه ، لم يكُن معنيّاً أبداً بمضمونه التاريخي ، الذي يحظى عندنا اليوم بالأهميّة الكُبرى . وسنعمل على تحليله وكشْف خبيئه . وسنبدأ بتحديد مَن مِن رجال السُلطة الذي أمر بكتْبه وإذاعته على المُوجّه إليهم .

من المعلوم أن هذا التوقيع ومثله إنما يصدرُعن أعلى مراكز الأمر في الدولة . أي إمّا عن السلطان نفسه ، وإمّا عن أحد نوّابه . وبما أن التوقيع مُوجَّـهٌ خِصّيصاً إلى " **أهل صيدا وبيروت وأعمالهما** "وقد عنونه القلقشندي بـ "**ما يُكتَب عن نُوّاب السّلطنة بالممالك** ". فهذا ينفي أن يكون قد صدر عن السلطان . إذن فالاحتمال الوحيد الباقي ، هو أنه صدر عن نائبه في " الشام " . وقد كان بتاريخ التوقيع الأمير الكبير سيف الدين بَيْدَمُر الخوارزمي ، في ولايته الثانية [40]. وهو نفسُـه الـذي تكـاد المصادر تتّفـقُ عـلى أنّـه

---

(39) صُبح الأعشى:13/ 13ــ 20. وقد أثبتنا النصّ الكامل للتوقيع في الوثائق المُلحَقَة بالكتاب .

(40) محمد بن طولون الصالحي : إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكُبرى . تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط . دمشق 1383هـ / 1964 م / 26 .

الآمر بالمُحاكمة فقتل الشهيد ، في ولايته الثالثة من بين ولاياته الستّ على "الشام" .

وهذه هي النتيجة الأولى التي نخرج بها من دراسة نص التوقيع . وهي نتيجة هامّة . من حيث أنها تُطلّ بنا على الأفكار المُحرّكة لهذا النائب ، ومن هنا ربما تُعيننا على معالجة الإشكاليّات المُحيطة بنصوص واقعة الجريمة .

من الغني عن البيان أن التوقيع هو من صياغة كاتب مُحترِف . لابُدّ أنه أحد الموظّفين في دار النيابة . ومع ذلك فإن مضمونه ، ولا ريب ، يحمل بصمات رأس السُلطة المحلّي ، أي نائب السلطان . وهذا ، إجمالاً ، واضح .

يُمكن قسمة نص التوقيع الطويل إلى ثلاثة عناصر :

ـ الأول : المقدّمة التقليديّة . وهي استعراض لمسيرة الإسلام ، ابتداءً من البعثة النبويّة ، إلى أن " **ظهرت البدِع والضلالات . وضلّ كثيرٌ في كثيرٍ من الحالات** " . ليَصِلَ إلى عَرْض رأيه في الشيعة ومذهبهم ، فيقول : " **وكان من أسخفهم عقلاً ، وأضعفهم نقلاً ، وأوهنهم حُجّةً ، وأبعدهم من الرّشد مَحَجّةً ، طائفة الرافضة الشيعة [....] فأدّاهم ذلك إلى القول بأشياء ، منها ما يُوجب الكفر الصّراح ، ويُبيح القتل الذي لا حَرَج على فاعله ولا جُناح** " . إذن ، هذه هي النتيجة التي يرمي إعلان التوقيع إلى الوصول إليها " **يُبيح القتل** " . أو بالأحرى التهويل به . بشهادة أنه سيقول بعد قليل : " وأردنا أن نُجهّز طائفة من عسكرالإسلام ، وفِرقة من جُند الإمام ، تستأصل شأفة هذه العُصبة المُلحدة ، **وتُطهّر الأرض من رِجس هذه المفسَدة . ثم رأينا** أن **نقدّم الإنذار** ، **ونسبق إليهم بالإعذار ، فكتبنا هذا الكتاب** " . ولو ان السُلطة كانت عازمة أو قادرة على الاستئصال لَما لجأت إلى الإعذار والإنذار . هذا خِلاف كل ما نعرفه عن الأسلوب المملوكي العسكري في معالجة الأمور ، الذي لجأ دائماً إلى أقسى وأعنف الحلول . والظاهر أنّ سببَ عجزها عن معالجة المُشكلة بأسلوبها الأثير ، يعود إلى اتساع رقعة انتشار الشيعة آنذاك ، كما سيصفها نص التوقيع .

ولكن، ماهي تلك "**الأشياء**" التي أدّاهم القول بها إلى" **ما يُوجب الكفر الصُّراح** " ؟

يُسارع نص التوقيع إلى بيانها واحدةً واحدة ، وهي :

ـــ ." **أنهم يسبّون خير الخلق بعد الأنبياء والمُرسَلين** " .

ـــ" **يستحلّون دم أهل السُنّة من المسلمين** " .

ـــ " **يستبيحون نكاح المُتعة ويرتكبونه** " .

ـــ " **يأكلون مال مُخالفيهم وينتهبونه** " .

ـــ " **يجمعون بين الأختين في النكاح** " .

ـــ " **يتديّنون بالكُفر الصّراح** " .

هذه استعادةٌ كاملة لخطاب ابن تيميّة في رسالته للسلطان المملوكي ، التي كتبها تبريراً للأعمال الوحشيّة التي ارتكبها وجماعته في " كسروان " [41] . فكأن الزمان قد دار دوره بعد ستين سنة من تلك الأيام السوداء ، ليرجع إلى النقطة نفسها التي بدأ منها هذا المُسَلسَل ، حيث يتآزر البهتان والعُنف الهمجي . وغنيٌّ عن البيان لقارئ عارف ، وعى قلبه ما قدّمنا به ، من مراجعةٍ نقديّةٍ لرسالة ابن تيميّة ، . أنه باستثناء استحلال نكاح المُتعة ، فإن كل ما أتى به التوقيع من " **أشياء توجب الكفر** " هي بهتان واختلاق .

ـــ الثاني : وصفٌ فريدٌ لمعالم حركة شيعيّة واسعة الانتشار . وهو أكثر عناصر التوقيع أهميّة لبحثنا . وسنقتبس ما نرى أنه موضع الحاجة منه :

> " **وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها ، وصيدا ونواحيها ، وأعمالها المُضافة إليها ، وجهاتها المحسوبة عليها ، ومزارع كلّ من الجهتين وضِياعها ، وأصقاعها وبقاعها ، . قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه ، وعملوا به وقرّروه . وبثّوه في العامّة ونشروه . واتخذوه ديناً يعتقدونه ، وشرعاً يعتمدونه . وسلكوا منهاجه . وخاضوا لُجاجه . وأصّلوه وفرّعوه . وتديّنوا به وشرعوه . وحصّلوه وفصّلوه . وبلّغوه إلى نفوس أتباعهم ووصّلوه . وعظّموا أحكامه . وقـدّموا حُكّامه .**

---

(41) انظر مرجع الحاشية رقم (32) في الفصل الأول .

وتمّموا تبجيله وإعظامه . فهم بباطله عاملــون ، وبمُقتضاه يتعاملون ، ولأعلام علمه حاملون . وللفساد قابلون . وبغير السّداد قائلون. وبحرَم حرامه عائذون. وبحمى حمايته لائذون . وبكعبة ضلاله طائفون . وبسُدّة شدته عاكفون " .

من البيّن أننا في هذا النص أمام كلام يُضمِر وجهين :

ـ فعلٌ . هو ما يصِفه من حركة شيعيّة واسعة الانتشار جغرافياً ، كما أنها متميّزة في أكثرمن وصف .

ـ إرتكاس على ذلك الفعل من قِبَل السُلطة ، هو التوقيع نفسه . مع الأخذ بعين الاعتبار ، أنه يستعيد لغة وذكريات تاريخيّة قاسية .

وسنُعلّق على الوجهين . بادئين بالجانب الجغرافي من النص .

وأول ما نلاحظه هنا سِعة الرّقعة التي انتشرتْ وعملتْ فيها الحركة الجديدة " : **بيروت وضواحيها . وصيدا ونواحيها . وأعمالها المُضافة إليها . وجهاتها المحسوبة عليها . ومزارع كلّ من الجهتين وضياعها . وإصقاعها وبقاعها** " .

والمَعنيّ بـ " **بيروت وضواحيها** " ثم بمزارعها واضحٌ إجمالاً . فالضواحي الجنوبيّة للمدينة كانت وما تزال معمورة بالشيعة .

الإضافة إلى معلوماتنا هي في إشارة النص الواضحة إلى ثقل سُكّاني شيعي في المدينة نفسها . يوحي النص ، خصوصاً بأنه بدأ بذكرها ، أنه كان ثقلاً مُعتبراً يُحسَب له حساب . هذا ، مع ضرورة القول ، كي لا يقع بعض القرّاء في الوهم على حجم "بيروت" آنذاك ، أنها كانت في زمن النص بلدةً متوسّطة على الأرجح . تقتصر على منطقة المرفأ وما يُحيط بها . حيث كل المساجد القديمة . وهذه إشارة إلى مساحة اتساعها سّكانياً.

ثم أن علينا أن نُلاحظ أن النص يُميّز بوضوح بين هذه ، أعني بين " **بيروت وضواحيها** " ، وبين " **مزارع كلّ من الجهتين** " ، حيث يعني بإحدى " **الجهتين** " " بيروت " نفسها . والتمييز يُشير بالضرورة إلى آخَر في ذهن الكاتب ، وطبعاً في الواقع . ونحن

نظن أنه يعني بمزارع جهة " بيروت " قريتي " كيفون " و " القماطيّة " على الأقلّ . وهما كانتا أيضاً منذ زمن غير معلوم منطقتَي سكن شيعيّتيَن . خلافاً لرأي الدكتور كمال صليبا ، الذي حارَ في لُغز هُويّتهما المذهبيّة في مُحيط غير مُجانِس . فانتهى إلى القول ، أنهما نشأتا سَكّانيّاً بتحوّل جماعات شيعيّة إليهما بقصد العمل . ثم استقرّوا فيهما [42] . وهو رأي ارتجالي ، لا سبيل إلى قبوله ، على الأقلّ بسبب العلاقات المتوترة بين سكان المنطقة الدروز ، الذي عرفنا ممّا فات اشتراكهم بقوة باجتياح " كسروان " . ثم هاهو نصُّ التوقيع يتحدّث عن مزارع مسكونة بالشيعة في جهة " بيروت " . ممّا يُشير إلى وجودٍ مُستقرٍ وثابتٍ وفاعلٍ لهم في تلك المنطقة .

أمّا " **صيدا ونواحيها . وأعمالها المُضافة إليها . وجهاتها المحسوبة عليها** " ثم مزارعها وضياعها وأصقاعها وبقاعها . فهي تعني امتداد الخط الساحلي جنوباً . ومثلما لاحظنا قبل قليل ، وسجّلناه بوصفه إضافة إلى معلوماتنا عن وجود للشيعة في " بيروت " ، فإن هذا النص يُضيف إضافةً مماثلة عن وجود للشيعة مذكور في "صيدا ". ثم أنه ، ولا ريب ، يعني ، فيما يعني ، بلدان " جبل عامل " . التي كانت آنذاك تابعةً إدارياً وقضائياً لهذه المدينة .

والظاهر أن مُنشئ التوقيع قد صَدَفَ عن الاسم التاريخي ، ومال إلى هذه الصيغة التي يبين فيها قصْد الاستيفاء ، لأن " جبل عامل " كان قد أصبح بتاريخ النص بُقعة صغيرة نسبياً . على إثر القسمة الإداريّة الجديدة التي نظّمتها السُلطة ، ابتغاء ضبط جباية الضرائب المفروضة على الأراضي [43] . وعلى كل حال ، فإن من الجليّ أن كاتب التوقيع تذاكى في صياغة هذه الفِقرة ، وأراد أن يُظهر لمن يطّلع عليه الطّامّة

---

(42) كمال صليبا : تاريخ لبنان الحديث ، ط . بيروت 1979 / 34 .

(43) لمن يبتغي معرفة تطوّر جبل عامل إسماً ومُسمّى ، نرجو الرجوع إلى الفصل الأول من كتابنا : جبل عامل بين الشهيدين .

الدهماء التي نزلت بالأمّة بهذه الجماعة . ولذلك رأيناه لم يترك مُفرَدة ممّا تُسمّى به البقاع إلا وزجّها : نواحي ،أعمال ، جهات، مزارع ، ضياع ، أصقاع ، بقاع .

ولنلاحظ أيضاً أن لا ذكر هنا لمدينة " صور" في هذا الحشد . ذلك لأنها كانت ما تزال خراباً يباباً ، منذ أن عمدت السُلطة المملوكيّة إلى هدمها إثر تحريرها ، كما قلنا فيما فات [44] .

خلاصة القول، إننا نفهم من مُجمَل الكلام، أن الحركة التي سيصِف معالمها ، قد غطّت الساحل ، من "بيروت" إلى آخر ما تعنيه نواحي "صيدا" ، ومنه ، طبعاً " جبل عامل " .

ما بقي من التوقيع حافل بالألغام . التي ترمي إلى خِداع القارئ له أو مَن يصِل إلى سمْعه . إنه يتركه يعتقد أنه أمام أمر حادث ، لم يكن ثم كان . ونحن نقبل هذا التوصيف ، على عِلاّته ، مؤقتاً ، لأسباب تتصل بمصلحة البحث ، وسنقولها للقارئ بعد قليل . لا أقلّ من تفسير انبعاث السُلطة إلى نشر التوقيع . الذي هو تعبير عن قلقها ممّا يحدث . الذي لو لم تَرَفيه تهديداً جِدّيّاً لحكمها ، لَما خرجت على الناس بهذا التوقيع الرنّان .

لكننا نتحفّظ على قولها : " **قد انتحلوا هذا المذهب** " . لأنه يعني أن التمذهب به أمرٌ حادثٌ جديد ، لم يكن ثم كان ، غير بعيد عن تاريخ إصدار ونشر التوقيع . وكأنها تريد منّا أن نفهم أن انتحال " **هذا المذهب** " هو من جملة ذلك الحادث الجديد . وذلك أمر غير صحيح دون أدنى ريب . إذ ما من شك في أن المعنيين بالكلام كانوا شيعة ، هم وآباؤهم من قبلهم . وما كان هناك من انتحال ولا من مُنتحلين . نعم هم " **أظهروه . وعملوا به وقرّروه . وبثّوه في العامّة ونشروه** ". وذلك عند العارف ماهزّ السُلطة وأقلقها . أو فلنقُل ، إن ما أقلقها في الحقيقة ليس ما أفصحت عنه الكلمـاتُ صراحةً . بل

---

(44) انظر مَرجع الهامش رقم (11) من الفصل الأول .

النتائج السياسيّة المُتوقّعة من هذه الروح الجديدة ، التي تُفصّل الفِقرة الأولى من التوقيع وجوهها ومظاهرها .

وأول ما نقِفُ عليه من ذلك قوله : " **أظهروه** " ، يعني " **هذا المذهب الباطل** " . وغني عن البيان أن الإظهار لا يكون إلا بعد استخفاء . إذن ، فهذا نصّ لا لَبْس فيه على أن المعنيين بالكلام كانوا من قبلُ لا يُعالنون بشعائرهم ومعتقداتهم . يتّقون بذلك تُقاةً . ثم إذا بهم لم يعودوا يبالون بغضب مَن يغضب ، ورضى مَن يرضى . بل يعملون على أن يكونوا هم أنفسهم ، فيما يفعلون ، وفيما انطوت عليه ضمائرهم على حدّ سواء. وما من ريب في أن هذا التبدّل إمارة على حالة جديدة دخلت فيها الجماعة . إعلاناً عن تخلّصها من الإحباط والخوف والاستكانة ، إلى حالة الاعتداد بالنفس والطمانينة ، وربما أيضاً توطين النفس على الصّدام ، إذا لزم الأمر . وتوصيف هذه الحال هو الأكثر أهميّة ممّا نخرج به من تحليل ودراسة نص التوقيع . وما الباقي إلا مَزيد بيان له ، وتعليل لأسباب حدوثه . من القسم الأول ، أي ما فيه مَزيد بيان لِما وصفناه ، قوله : " **وبثّوه في العامّة ونشروه . واتخذوه ديناً يعتقدونه . وسلكوا منهاجه . وخاضوا لجاجه . وأصّلوه وفرّعوه . وتديّنوا به وشرّعوه . وحصّلوه وفصّلوه** " .

وإننا لنفهم من هذا الكلام، أنه يدلّ على حركة عارمة . نالت عقائد القوم . أو ، وفقاً للتصحيح الضروري الذي أدلينا به قبل قليل، ما يُعلنونه ويُجاهرون به من عقائدهم . كما نالتْ حياتَهم ، المَبني على أحكام الشّرع الذي يؤمنون بصحته . بالإضافة إلى كيف ينظرون إلى أنفسهم وموقعهم من المجتمع الذي يعيشون فيه .

هنا أيضاً علينا أن نُلاحظ أن كاتب التوقيع قصد إلى استيفاء كامل الجوانب والأشكال المُتصوّرة للسلوك المَبني على التوجّهات الجديدة : عملوا ، قرّروا ، بثّوا ، نشروا ، اتخذوا ، سلكوا ، خاضوا ، أصّلوا ، فرّعوا . هذا التفريع مُتأثر بأساليب الكتابة في ذلـك الأوان . ولكنه ، أيضاً ، ينِمُّ عن أنه أراد التهويل ، بذكر مُختلف الأنشطة الكثيرة التي توسّلوا بها إلى الخروج عن المسلك المقبول من قِبَل السُلطة ومَن يشدّ على

يدها . مثلما فعل من قبل ، حيث حشد كل ما خطر له من مُفردات جغرافيّة ، ولم يترك مُفردة ممّا تسمى به البقاع إلا زجّها .

ومن القسم الثاني ، أي تعليل ما قد حصل ، قوله: " **بلّغوه إلى نفوس أتباعهم ووصّلوه** " باعتبار أن كل ما وصفه الكاتب في الأول هو نتيجة لأعمال أولئك الذين سمّاهم " **حُكّامه** " . وسنقول بعدُ من هم هؤلاء الحُكّام .

ــ الثالث من عناصر التوقيع . إنذار مُوجّه إلى مَن يقصدهم بالخطاب . من الواضح أنه غرض السُلطة وبُغيتها :

" وأردنا أن نُوجّه طائفة من عسكر الإسلام ، وفرقة من جُند الإمام . نستأصل شأفة هذه العُصبة المُلحدة. ونُطهّر الأرض من رجس هذه المفسدة . ثم رأينا أن نُقدّم هذا الإنذار ، ونسبق إليهم بالإعذار . فكتبنا هذا الكتاب . ووجّهنا هذا الخطاب . ليُقرأ على كافتهم .ويُبلـغ إلى خاصّتهم وعامّتهم . يُعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها ، والمذاهب التي انتحلوها تُبيح دماءهم وأموالهم . وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم " .

الإنذار لوضوحه مُستغنٍ عن التعليق . لكن السؤال هنا : لماذا " **تسبق إليهم بالإعذار** " وهي الدولة التي آثرت دائماً الحسْم بحدّ السيف ، بحكم ذهنيّة رجالها العسكريين ؟

يصعُب القول على نحو الجزم . لكننا نذكر احتمالات :

ــ الأول : حصانة " جبل عامل " الطبيعيّة . وخصوصاً قلبه الفكري آنذاك " جزّين " وهي التي استعصَت في الماضي على الصليبيين .

ــ الثاني : سِعَة انتشار الحركة . وقد عرفنا ممّا فات قبل قليل أنها غطّت رُقعة واسعة جداً ، تمتدّ من " بيروت " حتى أعالي " جبل عامل " . بحيث أن استئصال " **شأفة هذه العُصبة المُلحدة** " بالقوّة يستدعي عملاً عسكرياً كبيراً . وقول التوقيع " **أردنا أن نُوجّه طائفة** من **عسكر الإسلام ، وفرقة من جُند الإمام**" هو للتهوين من شأن المُخاطَبين . وجزءٌ من حمْلة التهويل التي رمى إليها .

ـ الثالث : غياب شخصيّة تحريضيّة بامتياز ، تؤدّي مثلَ الدّوْر الذي تولاّه ابن تيميّة يوم " كسروان " ، قبل ستين سنة . بل ربما كان الصّدى السئ ، الذي تداعى من الأفاعيل الشنيعة التي ارتكبها المُعتدون يوم ذاك ، قد وقف اليوم حائلاً دون الإقدام على عمل مُماثل ، بل أكبر بكثير .

ـ الرابع : الافتقار إلى قرار سياسي ، يصدر عن السُلطة العليا في " القاهرة " . ولنتذكّر أن التوقيع صدرعن السُلطة المحليّة في " دمشق " (نائب السلطان) . هذا ، وقد لاحظنا أن الكتابات التاريخيّة الصادرة في "مصر" في ذلك الأوان ، على تنوّعها ، لم تُشِر إطلاقاً إلى شئ ممّا حرّك السُلطة في "دمشق" . ممّا يدلّ على أن الاهتمام به كان محلّيّاً فقط .

تلك الأسباب أو بعضها ، وربما غيرها ، جعلت السُلطة تكتفي بإصدار ذلك التوقيع . بدلاً عن أسلوبها القمعي المُعتاد والأثير . آملة أن ينفع التهويل والتلويح ، حيث عجزت عن الفعل . الأمر الذي كان له أثره ، فيما يبدو . وسنعود إليه بعد قليل .

والآن ......

ها نحن قد انتهينا من دراسة نص هذا التوقيع ، وكشْف الكثير من خبيئه . ولكننا نرى أن ما بذلناه من جُهد ، على ما فيه من فوائد جمّة ، قد أبعد ذهن القارئ عن عمود البحث . ولذلك فإننا نطرح السؤال التالي :

ما هي علاقة ما انتهينا منه بسيرة الشهيد ؟ ولا ننسَ أننا قد أوردناه من ضمن ثلاثة نصوص أساسيّة ، نقرأ فيها ملامحَ الفترة التي نتوقّع أن أعمال الشهيد الإعداديّة قد بدأت تؤتي ثمارها . وعليه فإننا نقول في الجواب :

ـ أولاً : من الجليّ أن تاريخ صدور التوقيع يتناسب تماماً مع الفترة التي كان فيها الشهيد يعملُ على مشروعه في " جزّين" . بالتحديد بعد زهاء الخمس سنوات من استقراره فيها .

ـ ثانياً : لقد وقفنا قبل قليل على ما يصفِه التوقيع من حالةٍ جديدة شملَتْ جمهور

الشيعة نذكرُ الآن أهمّ معالمها، على سبيل التذكير. من ذلك أنهم غـدوا يُعالنون بعقائدهم وشعائرهم ، بعد أن كانوا يكتمونها. وما من ريبٍ في أن هذا التغيير الجذري لم يحدث دونما عمل منهجي ، تولاّه أكفاء مؤهّلون . أولئك هم الذين أشار إليهم التوقيع بقوله " **حُكامه** " . يعني به حُكّام الدين والشّرْع . " **اتخذوه [** أي مذهبهم **] ديناً يعتقدونه وشَرْعاً يعتمدونه [.......] وعظّموا أحكامه . وقدّموا حُكّامه** " . وهو نصٌّ صريحٌ على صفة هؤلاء الذين ارتادوا وقادوا تلك الحالة الإنقلابيّة ، الذين غدوا قادة مُجتمعهم . جزاءً وفاً للعمل الإحيائي الذين أنجزوه .

ـ ثالثاً : من أين أتى هؤلاء الحُكّام / الفقهاء ؟

نحن نعرف جيداً أنه منذ الغزوات الصليبيّة وتداعياتها ، فإن المنطقة الشاميّة بأكملها عقُمَت عن أن تُنتج فقيهاً شيعياً واحداً . اللهم إلا أولئك السبعة الفقهاء ، الذين كانوا رُوّاد نهضة " جبل عامل " قبل الشهيد [45] . بالإضافة إلى فقيه من " حلب " ، هو السيّد علاء الدين ابن زُهرَة ، الذي درس في " المنارة " ، من قُرى " جبل عامل " على الرائد الكبير طومان بن أحمد المناري (ت : 580 هـ / 1184 م)[46]. وعلى كلّ حال ، فإن العمل الذي وصفه التوقيع يدلّ على مجموعة غير صغيرة من الفقهاء ، غطّوا بنشاطهم منطقة عمليّات واسعة جداً . تنزِع من مَنزَع واحد . وليس في البَيْن إلا الشهيد وطُلاّب مدرسته .

ونحن ، وإن لم نجِد في نصّ التوقيع ذكراً صريحاً للشهيد ، لكننا لا نجِد مندوحةً دون نسبة نَفْخ هذه الروح إليه دون سواه . وذلك لِما ذكرناه أعلاه ، بالإضافة لِما تشهد به وتُشير إليه من منزع فكري ومن حالة تنظيميّة. وإن شئتَ قلتَ تحريضيّة أو مطلبيّة.

---

(45) ذكرناهم واحداً واحداً وترجمنا لهم في الفصل الثالث من كتابنا (جبل عامل بين الشهيدين) / رِهص النهضة ورُوّادها / 61 -104 .

(46) أمل الآمل : 1 / 103 .

لا يمكن أن يكونا قد نشآا عند الناس عفواً ، ومن دون مُنظّر وباعث . وليس في الميدان إلا الشهيد وفكره وعمله . هذا ، فضلاً عن التطابق التامّ بين ما نراه من منزع فكري وحالة تنظيميّة سبق أن عالجناها وبينّا أبعادها [47]، وبين مظاهر سلوكيّة وصفها التوقيع ببسطٍ ودقّةٍ لا مَزيد عليهما .

هذه النتيجة ، التي وصلنا إليها بالتدقيق والتمحيص والمقارنة ، في نص هذا التوقيع الفائق الأهميّة ، تقصُر عن مثلها كافة النصوص التي تتحدّث بلسانٍ أو بغيره عن أعمال الشهيد . والفضل لله سبحانه . وإنني آمل أن تُفيدنا في معالجة ما بقي من إشكاليّات سيرته .

---

(47) انظر الهوامش رقم 24 ـــ 29 من هذا الفصل .

خلاصة الفصل

إن بواعث الشهيد إلى العمل ، أتتْ على قاعدة التحوّلات السُكّانيّة الأساسيّة لدخول العناصر التركمانيّة في الصورة السُكّانيّة لمناطق الشيعة في " لبنان " . وما ترتّب عليها من آثار سياسيّة واجتماعيّة بالغة . حملت إلى الشيعة ما رأوا فيه ، بحقّ ، تهديداً بالغاً لوجودهم . نقرأها اليوم ، بوصفنا مؤرخين ، بشكلين :

ـ الأول : تحوّل بعض الشيعة إلى مذهب الحاكمين التركمان .

ـ الثاني : حركة إحتجاجيّة مُوجّهة ضدّ السُلطتين المملوكيّة والتركمانيّة .

ذلك هو الظّهير الذي تعامل معه الشهيد بعد أن استقرّ به المقام في "جزّين " . مُستفيداً من المكانة العلميّة التي اكتسبها من رحلاته . والظاهر ، بل الثابت ، أنه كان يُعِدّ لأعماله منذ أن كان في " الحلّة " . بدليل أنه استحضر منها عدداً من تلاميذه فيها ، لكي يُعاضدوه فيما كان يُخطّط له .

بدأ عمله بأن بنى مدرسة في " جزّين ". هي الوحيدة في تاريخ " جبل عامل " . سرعان ما شرعت بتخريج الفقهاء . الذين انتشروا في مُختلف أنحاء وطنهم . حاملين أفكار شيخهم . وعلى رأسها مفهوم (النائب العام) للإمام . أي الفقيه الجامع للشرائط . وما له من صلاحيّات في الفتوى وفضّ الخصومات والحدود والتعزيرات ، فضلاً عن التصرّف في الأموال العامّة . هذه الأفكار بمجموعها تُشكّل سابقة منذ انتهاء الحضور العلني للأئمة . وأسّست لسُلطة موازية للسُلطة الفعليّة . ردّت عليه بإصدار توقيع حافل بالتهويل والتهديد . خلافاً لِما هو معروفٌ عنها ، من ميل إلى حَسْم الأمور بالعُنف . وتلك إمارة على عجزها عن التصدّي المباشر . بسبب اتساع رُقعة انتشار الحركة الاحتجاجيّة .

الفصل الخامس

عالَم الشهيد

وسيرته من هذا المنظور

ـ تمهيـد .

1 ـ علاقاته الداخليّة :

أ ـ بالأكثريّـة .

بـ ـ المُتسنّنون .

جـ ـ المُرتدّون .

2ـ علاقاته الخارجيّة :

أ ـ بالسُلطة في " دمشق " .

ب ـ بفقهاء " دمشق " .

ج ـ بعلي بن المؤيّد الخراساني .

خلاصة الفصل

تمهيـد

في هذا الفصل نتعرّف على العالَم الذي خاض فيه الشهيد. وهو بحثٌ طريفٌ غير مسبوق ، ولا غنى عنه لاستيعاب خفايا سيرته الحافلة . بداهةَ أن سيرة كل إنسان هي ثمرة شخصيّته وهي في حالة تفاعل مع الظروف / العالَم الذي تفاعل معه وعمل فيه وعليه .

وربما يخطر لقارئ أن هذا الفصل ينبغي أن يسبق الفصلين السابقَين اللذيَن عالجنا فيهما سيرته وأعماله . لأن العالَم أو الظرف هو الأمر الثابت ، في حين أن السيرة هي المتحرّك . وذاك أسبق رُتبةً من هذه . أو ، فلنقُل، إن هذه مُترتّبةٌ على ذاك . وهو أمر قد يبدو صحيحاً من حيث المبدأ . والحقيقة أننا جرّبنا هذا المنهج . وبالنتيجة وصلنا إلى أن من مصلحة القارئ أن نؤخّر هذا الفصل . ذلك أنه سيكون من العسـير عليه أن يفهم كيف عمل ، ما لم يكُن قـد سبق له أن عرف ماذا عمل. وسيجدُ القارئ الشّـواهدَ الكثيرة على ذلك بعد قليل . ثم أن السؤال بـ : كيف عمل ؟ ينبغي أن يؤخذ فيه بالاعتبار ذلك العالَم أو الظرف الذي خاض فيه . بل هو من ضمنه . أما السؤال : ماذا عمل ؟ فهو مُتحرّر من هذا القيد . وعليه فقد أخّرنا هذا الفصل إلى ها هنا .

هذا من حيث صورة البحث ومنهجه .

أمّا من حيث مادتُه وأساسُه فنقول :

ممّا هو غني عن البيان ، أن امرئً يرمي إلى أهداف خطيرة ، من مثل ما رمى إليه الشهيد ، ويتعامل بقضايا تمسّ حياة ومستقبل جمهور عريض ، لا يُؤمَن أن تتعارض مع مقاصد غيره ، وبالتحديد مع سُلطة مُتمكّنة ، سترى في أعماله وأفكاره خطراً مباشِراً عليها ، . لا غنى له عن استيعاب ذكيّ لمُعطيات الظروف البالغة التعقيد

التي عليه أن يعمل فيها . مقدمة لنسْج شبكة من العلاقات من حوله . تُعينه على ما يروم . وتحميه ومراميَه من أخطار مُختلفة .

من تلك الأخطار ما يتصل ببُنية شعبه المُختَرَقَة ، خصوصاً في المناطق الساحليّة ، حيث حضور السُلطة أقوى ما يكون . وهو الذي كان في ماضيه القريب والبعيد قد خَبِر صنوف الاضطهاد والقمع . ممّا سيترك أثره المُتوقّع على مثله ، فإذا به يميل إلى الدّعة والسُّكون ، ويتهيّب الدخول في كل ما يُعرّضه لكيدها وانتقامها . هذا فضلاً عن أن الصيغة الجديدة للعلاقات التي أتى بها الشهيد ، ومنحت الفقيه الموقع المُتميّز الذي عرفناه ، سيفتح عليه باباً آخرَ من الشرور ، من أولئك الذين كانوا مُستفيدين من الوضع القديم . وهذا من طبيعة الأمور .

ومنها ، بل وعلى رأسها ، السُلطة نفسها . ما كان منها سُلطة مركزيّة ، أي الحكم المملوكي . وما كان منها سُلطة محلّيّة ، أي الأمراء التركمان ذوو السّطوة . وكلاهما سيجدُ في نهج الشهيد وفكره ما يتعارض مع مصلحته . وهذا أيضاً من طبيعة الأمور .

أعتقد أن هذه الفذلكة تكفي ليتصوّر القارئ الموقع البالغ الدقة للشهيد ، وهو يخوض غمرات مُعتَرَكِه . أي أننا لم نخرج من إشكاليّات الفصل السابق . ولكننا هنا سنكون أقرب إلى السياسي من سيرة الشهيد . أمّا هناك فقد كُنّا أقرب إلى الفكري . على أن في كلا الموقعيَن شئ من هذا وشئ من ذاك .

مهما يكن ، فإن من الواضح لقارئ استوعب عناصر هذه الفذلكة ، وما قد غادرناه فيما فات ، من وصف لِما اضطرب فيه الشهيد من إرث تاريخي ومُركّبٍ سياسي ، . أن أكثر ما سنعالجه من علاقاته هو ممّا فرُض عليه فرضاً . فرضه عليه ذلك المزيج الحَرِج من الإرث والواقع . وهذا أيضاً وأيضاً من طبيعة الأمور . وعلى كل حال ، فإن الوقوف على ما يمكن الوقوف عليه من من هذه العلاقات ، بقدر ما تعطينا إياه النصوص المُتاحَة ، هو عنصرٌ أساسي جداً من سيرته . بدونها لن نستطيع أن ندّعي أننا استوفينا كل ما ينبغي أن يُقال عليها .

سنبدأ بوصف علاقاته مع الجمهور الذي كان موضع عمله في " جبل عامل " وفي غيره ، تحت عنوان (علاقاته الداخليّة) . ثم نُثنّي بوصف علاقاته مع السُلطة ، خصوصاً في العاصمة الإقليميّة " دمشق " ، مع عناية خاصة بعلاقته بعلي بن المُؤيّد الخراساني ، كلها تحت عنوان (علاقاته الخارجيّة) .

1 ـ علاقاته الداخليّة .

من الواضح الجليّ أننا حينما نتحدّث على ما هو داخلي من علاقات الشهيد ، فإننا نعني بالدرجة الأولى الجمهورَ العريض الذي كان موضع اهتمامه وعنايته ، أعني الشيعة فيما يُعرف اليوم سياسيّاً بـ " لبنان " بكامل أطيافهم وتوجّهاتهم . وهو جمهور عانى في تاريخه القريب والبعيد صنوف النوازل . وقد استفرغنا الوسع في الكلام على ذلك في الفصل الأول . ونُضيف الآن أن مُعاناته قد تركت آثارها المُتوقّعة عليه . ممّا ذكرناه قبل قليل .

واستناداً إلى ما نعرفه ، وبعضه ممّا قد ألمحنا إليه فيما فات ، فإن ذلك الجمهور كان من أطياف ثلاثة :

ـ الطّيف الأول : **الأكثريّة** ، التي توصَفُ عادةً في الأدبيات السـياسـيّة بـ (الصامتة) . والحقيقة أنها ليست " صامتة " بالمعنى المُباشِر والتامّ للكلمة ، لا في ما نحن فيه ، وليس في أي حال . وإنما يصحّ عليها هذا الوصف لأنها لا تُفصح عن مكنونها وما تتطلّع إليه إفصاحاً منهجيّاً ، على نحو المشروع المُعلَن بأفكار مُحدّدة . وإنما تقِفُ ساكنة ، طاويةَ الضُلوع على ما تنهدُ إليه . ثم لا تتحرّك سياسيّاً إلا وِفق شروطٍ معلومة . في رأسها وجود القيادة الكارزميّة ، التي تتوفّر فيها الصفات التي تجعل الجمهور يتحرّك على هَدْي المشروع الذي تدعو إليه وتعمل عليه . وطبعاً إنّ

من الشروط الأساسيّة لنجاح هذه القيادة ، بل لاكتسابها صفة الكارزميّة ، أن تعرفَ جيداً المفاتيح السلوكيّة لجمهورها (ثقافته ، آماله ، أسباب قلقه) ، وأن تُحسِن الضغط عليها في الوقت المُناسب .

رُبّ قارئ حصيف يتساءل الآن : ولكن من أين لنا أن نعرف كيف جرى التفاعلُ بين مشروع الشهيد وأعماله ، وبين جمهوره (الصامت)؟ وبيننا وبينه أَمَدٌ بعيد . فضلاً عن أننا نعمل على موضوع يطرح إشكاليّات جمّة ، لا تنفكّ تلاحقنا بالأسئلة تِلو الأسئلة . مع نُدرَة مُجحفة بالمعلومات .

وفي الجواب نقول :

حقٌ أنه ليس في يدنا نصوصٌ مباشرةٌ على هذه الإشكاليّة الهامّة . ولكن هذا لن يُعجزنا عن أن نقرأ ما بين السطور ، حيث تضِنّ علينا السطور بذاتها .

ولقد كُنّا وقفنا فيما فات على مانتصوّره من وِقْع عودة الشهيد إلى وطنه على الناس. كما أنّنا وعدنا هناك بتبيان ما نهض من علاقة بين الاثنين[1]. وهذا أوان الوفاء. في هذا السبيل أدعو القارئ إلى العودة بالذاكرة ، أو بالقراءة إن خانته الذاكرة ، إلى عدّة أمورٍ ممّا غادرناه آنفاً، نحتاج الآن إلى قراءة مغزاها، لِما لها من علاقة بما نعالجه الآن، هي :

ـ الأمر الأول : إن عديد تلاميذ الشهيد قد سجّل رقماً غير مسبوق في تاريخ بلده . نعرف منهم ثمانيةً وعشرين تلميذاً بأسمائهم [2] . ونحن على شِبه اليقين من أن هذا الرقم هو أقلّ من الحقيقي ، ربما بكثير . بدليل أنّنا ما نزال نكتشفُ في هذا الباب جديداً كلما أوغلنا في البحث ، أو وقعنا على مصادر جديدة ، أو لم نكن قد التفتنا إليها .

---

(1) انظر مرجع الهامش رقم (55) من الفصل الثالث .

(2) انظر مرجع الهامش رقم (66) وما قبله من الفصل نفسه .

على أن المسألة هنا ليست في مُجرّد العديد ، على ما فيه من أهميّة . بداهةَ أن أولئك التلاميذ يُمثّلون نُخبةً مُنتقاة ، التحقَت بالشهيد قادمةً من مجتمعاتها . رامية من وراء عملها إلى إعداد أنفسهم ليكونوا فقهاء عاملين . هذا ، بالتأكيد ، ليس نزوعاً شخصياً فقط . وإنما هو أيضاً ، وربما أولاً ، تعبيرٌ جماعي لا ينقصه الوضوح ، عن حاجة المُجتمع إلى مَن يتولّى علاج أزمته المُستحكمة . وهو هو ذلك المُجتمع الذي عانى من احتلالٍ أجنبيٍّ طويل ، قطعه عن كل مصادر ثقافته الخاصّة . التي يُمثّلها الفقيه العارف . بوصفه الحامل للثقافة المُنتمية .

بالقياس إلى ما نتصوّره من عديد السكان في كامل الرُقعة التي كانت معمورة بالشيعة آنذاك من " لبنان " ، الذين كانوا لا يتجاوزون يومذاك عشرات الآلاف ، فإن نسبة هؤلاء التلاميذ إلى مجموع السكان كانت نسبةً عالية جداً . يُشبه أن يتدفّق اليوم مئات التلاميذ على شيخٍ للدراسة عليه .

إذن ، فعندما انتهج الشهيد هذا النهج ، وصبّ جهوده على تخريج أكبر عدد ممكن من الفقهاء المؤهلين . وأعدّ للأمر عُدّته ، فاستحضر ثلاثةً من أفاضل تلاميذه من "الحلّة " لمعاونته فيما خطّط له ، وبنى مدرسة ، كما عرفنا ممّا فات [3] ، كان يُعبّرتعبيراً قوياً عن إدراكٍ عميق لديه لأزمة شعبه وسُبُل معالجتها .

ومن الجهة الأخرى ، فعندما أفرز شعبه من أبنائه ذلك العديد غير المسبوق من التلاميذ ، كان يُعبّر ، هو أيضاً ، عن إدراك مُماثل ، وعن التّوق الكامل لديه لاستعادة التواصل المفقود مع ثقافته الخاصّة .

هنا نجح الشهيد نجاحاً باهراً في قيادة شعبه على الطريق الذي اختاره . وما النهضة العامليّة إلا أحد الثمار اليانعة المُباركة لعمله .

ـ الأمر الثاني : كل شئ يدلّ على أنّــه ما إن تهيّأ للشهيد إعـداد عـــددٍ

---

(3) انظر مرجع الهامش رقم (67) من الفصل الثالث .

من تلاميذه ، حتى دفعهم ، أو اندفعوا ، إلى سُوح العمل المُباشر . فانتشروا في مختلف البلدان من وطنهم ساحلاً وجبلاً ، حاملين أفكار شيخهم بين شعبه المُتوجّس خيفةً ممّا تحمله المُعطيات السياسيّة ـ الاجتماعيّة القائمة . وسرعان ما أعطى عملُهُم ثمارَه ، فرفعت الناس صوتها عالياً في حركة احتجاجيّة ضدّ السُلطة المحليّة . التي لم تجد حولاً في المقابل ، إلا أن تخرج على الناس بذلك التوقيع الرنّان ، لكن الفارغ أيضاً . مُنذِرةً بالويل والثبور وعظائم الأمور . وقد استفرغنا الوسع في التعريف بهذه الحركة في خاتمة الفصل السابق . ونحن إنما نقِف عندها الآن لتبيان مغزاها ، بقدر مايتعلق الأمر بإشكاليّة هذا الفصل .

كانت تلك أول مرّة ، منذ انهيار إمارة بني عمّار العظيمة في " طرابلس " ، أي منذ زهاء القرنين ونصف القرن ، . يحظى فيها الشيعة في " لبنان " بقيادة حقيقيّة . تلمّ شعثهم بعد أن عبثت بهم وبمقاديرهم النكباتُ المتوالية عليهم . وترصّ صفوفهم ، وتبُثّ فيهم نمطاً من أنماط الوعي السياسي ــ الاجتماعي المفقود ، وتوجّههم مَطلبيّاً . نقلتهم من موقع الانفعال ، حيث يكونون موضوعاً خاضعاً لفعل وخِطط الآخرين ، إلى موقع الفعل ، أو محاولته على الأقل . نقول هذا ، لأننا لا نعرف بالضبط ماذا كان تأثير تلك "الحركة " على وضعهم إجمالاً . وذلك بسبب الغياب التامّ للتسجيلات التاريخيّة المُستقلّة . بل إننا لولا ذلك التوقيع الذي كتبته السُلطة ونشرته ، لَما عرفنا شيئاً عنها . ولكنّ ما تضمّنه نص التوقيع من وصف عريضٍ مُهيبٍ لها ، يتركنا على شِبه اليقين من أنها لم تضِع كُلّيّاً ، لكننا عاجزون عن التفصيل .

مهما يكُن ، فإن ممّا لا ريب فيه أن أمراً كهذا ، لم يكن ممكناً أن يحدث ، لولا القيادة الجديدة التي حظي بها جمهورُ الشيعة ، بفضل أعمال الشهيد وخطّته المُتقَنة ذات الحلقات . ابتداءً من إعداد الفقهاء ، وتزويدهم بأفكاره ، ونشرهم ، أو انتشارهم ، بين إخوانهم المأزومين ، ليتولّوا قيادَهم وتوجيهَهم .

وأيضاً ممّا لا ريب فيه ، أنه عندما استجابت للشهيد ولتلاميـذه أوسـعُ الجماهير ،

ممّن هم موضوع عمله وعملهم وهمّه وهمّهم ، فإن هذا يعني أنها قد تماهت معهم تماماً واستوعبت مقاصدهم . ونُذكّرُ هنا بأن مُجمَل العمل ، ابتداءً من تاريخ عوده إلى بلده ، في السنة 760 هـ / 1358م تخميناً ، إلى تاريخ " الحركة " في السنة 764 هـ / 1362 / ، ــ قد تمّ في بُرهة خمس سنوات فقط . ممّا يدلّ على أن آليّة العمل في مُختلَف مراحله ، كانت تتحرّك بسرعةٍ قياسيّة .

هنا أيضاً نجح الشهيد نجاحاً يمكن أن نصِفَه منذ الآن بأنه تاريخي .

ــ الطيف الثاني **: المُتسنّنون** . وقد أتينا على ذكرهم في الفصل الرابع [4] . وللتذكير نقول ، إنهم فريق من الشيعة تأثّروا بالضغط السُكّاني والهيمنة السياسيّة للتركمان ، فأعلنوا تحوّلهم إلى مذهب الغالب . وهذه ظاهرة مُتوقّعَة في هذا الظرف ومثلِه .

ونُضيف الآن أن التمعّن في عبارة " أهل السواحل من المُتسنّنين " [5] . وهي للمقداد السّيّوري ، تلميذ الشهيد المُقرّب ، الذي رافقه منذ رجوعه إلى " جِزّين " ، أو بُعيدها بقليل ، إلى أن حُبس في " دمشق " ، وعرف معرفةً مُباشرة الظروف التي اضطرب فيها شيخه ، ــ يدلّ على ثلاثة أمور :

ــ الأول : أن هذه الظاهرة كانت محصورة في المناطق الساحليّة فقط ، أي في مدينتي " بيروت " و " صيدا " وما والى الأُولى منهما خصوصاً . وهذا أمرٌ مفهومٌ جداً. لأن الاكتساح السُكّاني التركماني كان محصوراً في تلك المناطق . كما أن حضورَ السُلطة كان أقوى ما يكون فيها ، وضئيلاً بل وربما معدوماً في أنحاءِ " جبل عامل " .

---

(4) انظر مرجع الهامش رقم (10) من الفصل الثالث .

(5) بحار الأنوار : 107 / 185 .

ــ الثاني : إن تلك الظاهرة كانت قد نشأت حديثاً ، أو على الأقل غير بعيدٍ زمانيّاً بالقياس إلى تاريخ صدور النص ، أو تاريخ شهادة الشهيد . بدليل أنه لو لم يكُن تحوّلهم كان ما يزال حاضراً وماثلاً في أذهان الناس إجمالاً ، لَما سمّاهم المقداد بما سمّاهم به أي : " المُتسنّنون " . وهي صيغة يُفهم منها أن الجيل الذي تحوّل كان ما يزال على قيد الحياة .

ذلك أمر مفهوم أيضاً . ذلك لأن استيعاب السُكّان الأصليين الشيعة للمُتغير السياسي والاجتماعي الجديد ، الذي نشأ بالحضور السُكّاني ــ السياسي للتركمان ، من قِبَل أولئك المُتحوّلين . ومن ثـمّ التماهـي معه ، والتصـرّف بما يناسـبه أو تقتضيه المصلحةُ الآنيّة ، ــ كلٌّ ذلك يحتاج إلى زمنٍ غير قصير . ولا يُعقَل أن يحصل حُصولَ متغيّر وانفعال آليٍّ صِرف ، يحصل فوراً ومباشرةً بعد نشوء سببه أيّاً كان .

ــ الثالث : إن ظاهرة التسنّن في السواحل كانت بارزةً ، أي من أعداد كبيرة . والدليل على ذلك في العبارة نفسها " **أهل السواحل من المُتسنّنين** ". التي تصِف " **أهل السواحل** " وصفاً فيه معنى العموم . ولو انه قال ، مثلاً : المُتسننّون من أهل السواحل ، لاختلف المعنى . ولَما حمل الدلالةَ نفسها . ولذلك فإننا ، وبناءً على قاعدة أصالة صحّة النص ما لم يَقُم دليل على العكس ، فقد فهمنا من العبارة ما ذكرناه . يُؤيّدُ ذلك العديد الكبير للذين " **كتبوا خطوطهم تعصّباً مع يوسف بن يحيى** " ، الذي " **يزيد على الألف من أهل السواحل** ". وهو من ضمن النص الموثوق نفسه الذي كتبه السّيّوري [6]. وهو عديد غير عادي ، بالقياس إلى ما نتصوّره من عدد السكان الإجمالي في ذلك الأوان . يدلّ على ما يُشبه الرأي العام .

---

(6) نفسه . وانظر (مُختصر نسيم السّحَر) في ملحقات الكتاب . حيث يقول : " وكتب [أي في المحضَر] ألف رجل من السواحل ، ممّن كان ظاهرهم التسنّن " .

هنا أيضاً نقول ، هذا أيضاً أمرٌ مفهوم . لأن مَن يفعل ما فعله أولئك المتحوّلون ، يكونُ أكثر اهتماماً بكل ما يدلّ على صدق تحوّلِه . ولذلك فإنه يندفع إلى المُزايدة على غيره . ويتخذُ مواقفَ أكثر حِدّة في المواطن المفصليّة المُتصلة بوضعه الجديد . وهذا واضح .

كل شئ يدلّ على أن هؤلاء " المُتسنّنين " كانوا المُشكلة الأكبر التي عانى منها الشهيد في مشروعه النهضوي . والظاهر أنه وقف عاجزاً تماماً تجاهها . ذلك أنهم كانوا من أعدادٍ كبيرة ، واختراقاً واسعاً للجسم الشيعي المحلّي الكبير. كما أنهم كانوا في المدى الذي تكونُ فيه السُلطةُ أقوى ما يكون . كما أنّهم كانوا مَحميّين من قِبَلها . وبحاجة إلى تقديم الدليل تِلو الدليل ، كلما اقتضى الأمر ، على صدق تحوّلهم . ومن ذلك أنهم لم يستجيبوا الاستجابة المُتوقّعَة لأعمال الفقهاء الجُدُد ، الذين عرفنا أنهم انتشروا في مناطقهم . بدليل أن ذلك الموقف البالغ العداء ، الذي اتخذوه من الشهيد ، إذ " **كتبوا خطوطهم** " ضدّه ، أتى بعد أعوام كثيرة من انفجار" **حركة** " الشيعة الاحتجاجيّة الكبرى . التي وصفها التوقيع الذي درسناه وكشفنا خبيئه في خواتيم الفصل السابق . بل إننا نظن أن تنظيم ذلك المحضَر، بما احتوى عليه من تواقيع كثيرة ، كان بمبادرة وإغراء من قِبَل السُلطة ، المحليّة أو الإقليميّة . وإلا فمن ذا الذي في وسعه أن يجمع هذا العدد من التوقيعات غيرها . وهو دليلٌ إضافيٌ على أن الخطوات الأولى التي اتُخذت لبَدء مُحاكمة الشهيد كان بالتنسيق الكامل معها . يُثنّي على ما وصلنا إليه من تحليل كلمة " عامل " فيما فات [7] .

ــ الطيف الثالث : **المُرتدّون** . والكلمة توحي بمعنى لا يخلو من التباس . لذلك فإنها تحتاج إلى شرح وبيان ، يرمي إلى كشْف معناها ، استناداً إلى ما نعرفه عن الظروف التي عمل فيها الشهيد . والتي أصبح القارئ على خُبْرٍ منها .

---

(7) انظر مرجع الهامش رقم (35) من الفصل السابق .

ومصدر الكلمة هو أيضاً تلميذ الشهيد المقداد السّيّوري ، فيما علّقه على مقتل شيخه . وصف بها الخائنيَن ، تقي الدين الخِيامي بقوله : " **وظُهور إمارة الارتداد منه** " . ويوسف بن يحيى بقوله : " **وارتدّ عن مذهب الإماميّة** " . ونحن نفهم سبب وصفهما منه بهذا الوصف القاسي . وهو التلميذ المُخلص المفجوع بشيخه ، العارف بأنهما هما اللذان فتحا بابَ الشّرور عليه . ولكننا نجدها أيضاً في (مُختصر نسيم السّحَر) ، حيث يصِف الخائنين نفسيهما بقوله : " **ارتدّ عن مذهب الإماميّة** " [8]. بل إن هذا ينسبُ الوصفَ إلى الشهيد نفسه ، حيث يقول أنّه وصف ابن يحيى بقولِه : " **إن هذا الضّالّ قد ارتدّ عن شريعة سيّد المُرسَلين** " [9] . الأمر الذي ، إن صحّ ، يدلّنا على مصدرها الأساسي . كما يمنحها بُعداً مُختلفاً .

فمن المعلوم أن الوصف بـ " مُرتد " فيه معنى الحقيقة الشّرعيّة . وهذا يعني في اللُغة الفقهيّة أنها ممّا أضافه القرآن إلى اللغة الدّارجَة حاملاً معنىً جديداً [9] . هو الكفر بعد الإسلام . ونحن لا نظن أن هذا المعنى هو المقصود في النصوص الأربعة . وحتى عبارة الشهيد ، التي ينبغي أن نقرأها بكامل الجِديّة ، لا تدلّ على ذلك . لأنها تقول أن المَعنيّ بالكلام قد ارتكب ما يُخالف الشريعة " **ارتدّ عن شريعة سيّد المُرسَلين** " . وهذا أمرٌ مُختلف . لذلك فإننا نقترح قراءة أخرى لها تستوعب المعنى الأصلي للكلمة ، الذي يتضمّن حركةً : الارتداد إلى الخلف بعد أن كان قد أعلن القبول واندمج في الحركة الجديدة العالقة . أي أن الكلمة تُرادف أو تُشبه معنى كلمة (رجعي) في لغة الصحافة اليوم . وهو معنى يأول إلى اتجاه يرفض كل فكر أو سلوك يدفع إلى الأمام ، بعد أن كان قد قبِلَه .

---

(8) مُختصر نسيم السّحَر في مُلحقات الكتاب .

(9) وردت الكلمة بهذا المعنى في القرآن مرتين . البقرة / 217 و المائدة / 54 . ويُحتمَل أن الآية / 25 من سورة محمد تدلّ على المعنى نفسه .

لماذا نُصرّ على هذا الفهم ؟

الجواب : لأنه ينسجم مع كل ما نعرفه عن نهج الشهيد والظروف التي عمل فيها ، وأيضاً مع طبيعة الأمور . ذلك أنه بنى نظام علاقات جديداً داخل الجماعة التي صبّ جهده عليها وعلى شؤونها . عماده الفقيه ، بعد أن سلّحه بأفكاره عن صلاحيّاته في الأمور القضائيّة والحِسبيّة وما إليها . وطبعاً ، لا يمكننا أن نتصوّرَ أن المواقع التي ملأها بفكره المُتقدّم هذا كانت فارغة تماماً . بل لابُد من أن نفرض أنه كان هناك شكلٌ ما من نظامٍ للعلاقات له رجاله وقادتُه المُستفيدين منه . ضرورة أن كل مجتمع لابُدّ من أن يُفرزَ من داخله الماديّ والمعنويّ ما يُسيّرُ به شُؤونَه في مُختلف الميادين . وكما في كل حالةٍ انقلابيّة ، فإن أعمالَ الشهيد في هذا النطاق لا بُد أنها قد أدّت إلى حرمان بعض المُستفيدين من وضْع التخلّف السابق . كما هو الأمر في كل ما هو مُماثل . هؤلاء تماهوا ظاهريّاً مع النهج الجديد ، ولكنّهم " **ارتدوا**" عندما تبيّنَ لهم أنّه سيُخلّفهم وراءَه . ولهذا أمثال نراه في كل دعوةٍ .

من هؤلاء تقي الدين الخِيامي ، نسبةً إلى بلدة " الخِيام " ، المعروفة بالاسم نفسه حتى اليوم ، في أعالي " جبل عامل " الشرقيّة . الذي يُسمّيه صاحب (مُختصر نسيم السّحَر) محمد بن تقي الدين الخِيامي البابلي [10] . ويبدو أن "البابلي" منسوب إلى قرية "البابليّة" ، المعروفة أيضاً بالاسم نفسه اليوم . وهي من قُرى الساحل ، بين " صيدا " و " صور " . وإذا كان ترتيبُ النِّسَب يلتزم القواعد المعروفة في هذا النطاق ، فقوله " الخِيامي البابلي " يُفيد أن أصله أو مولده في " الخِيام " ، ثم قطن " البابليّة " . أي أنه حين فعل ما فعل فوشى بالشهيد ، على رواية السّيّوري [11]، أو " **ادّعى النبوّة . وارتدّ عن مذهب الإماميّة . وخرج عن الدين**" على رواية محمد مكّي [12] كان من " **أهل السّــواحل** "

---

(10) مختصر نسيم السّحر ، في مُلحقات الكتاب .   (11) بحار الأنوار : 107 / 185 .

(12) مختصر نسيم السّحَر / نفسه .

الذين عرفنا من الفقرة الماضية خصوصيّة علاقتهم بالسُلطة التركمانيّة المحلّيّة ، ودورَهم في مُحاربة الشهيد . وعليه يبدو أن هذا كان من المُتقدّمين البارزين في هذا الميدان . يؤيّد ذلك قولُ محمد مكي واصفاً تأثيره البالغ في الناس : " **وأكثر القرُى مالت إليه . وجميع الناس الهمج أنكرّت عليه** " [13]. ومحمد مكّي يُغربُ في وصف أعمال هذا الرجل . من ذلك أنّه كلّمَ الناس في جبل عرفات وقت الحج ، فسمعوا صوته . وأنه أظهر البساتين وفيها الأشجار والأزهار . فتصدّى له الشهيد وأبطل سحره . وهذا كلّه ، طبعاً ، غير صحيح . ولكنه يعكس الصورة التي نجح هذا الرجل في بنائها حول نفسه . كما أنه بنى عدة حصون . ممّا يدلّ على أنه كان يُعِدّ لحرب طويلة . وأن الشهيد أرسل ابنه الشيخ ضياء الدين علي على رأس وفدٍ للتفاوض معه . والتقى به في " وادي زِبدين " . ولكن المفاوضات انهارت ، بل وقتل الخِيامي عدداً من أعضاء الوفد . فكتب الشهيد إلى بيدمُر الخوارزمي ، والي الشام ، طالباً منه قمعَ هذا الرجل ، بوصفه مُدّعياً للنبوّة . وبالفعل حضر بيدمُر بعسكره وتلقّاه الشهيد في "الزريريّة " . وهي قرية غير بعيدة عن ساحل " صور" . ولكن الشهيد خشي ، فيما يبدو ، مغبّة القتال . فطلب من الوالي التروّي ومنْح فرصةً أخيرةً للمفاوضة . وكتب إلى الخِيامي طالباً لقاءً شخصياً به . وبالفعل حصل اللقاء . وفي النهاية قُتِل على يد أحد أنصاره السابقين ، بعد أن اكتشف كذبه ومخادعته للناس [14] .

وإني ، وإن عبّرتُ دائماً عن ارتيابي بأقوال محمد مكّي كوصفٍ للحقيقة ، ومع ذلك ، فإن هذه التفصيلات الدقيقة الفائقة الأهميّة لا يُعقَل أن تكون كلها من نسْج الخيال . حتى مع أننا لا نجــدِ أدنى إشــارةٍ إليها في نص السّيّوري البالـغ الإيجاز . بل

---

(13) أيضاً .

(14) أيضاً .

إنّـه يقولُ على نهاية الخِيامي :" **بعد وفاة هذا الواشي** ". وإذا فهمنا من كلمة " وفاة " أنه مات حَتْفَ أنفه ، كما يقتضي معناها ، فهنا يتعارض النصّان ، تعارضاً لا نملك إزاءه إلا أن نقول : الله أعلم بحقيقة ما جرى .

هذا فيما يعود إلى أول " المُرتدّين " .

وثانيهما يوسف بن يحيى . الذي يبدو أنه كان أشدّ دهاءً ومَكراً من سلفه . فلم يعمَد إلى مواجهة الشهيد مُباشَرةً . والظاهر أنه استفاد من تجربة سلفه ، حيث وقفت السُلطة في جانب الشهيد ، على قول محمد مكّي . فاختطّ لعمله خِطّةً تقضي بتحريض الدولة لتتولّى هي قمْعه ، أو لتقِف على الحياد على الأقلّ .

يقول محمد مكّي : " وشرَع في التشنيع عليهم [يعني : الإماميّة] وعلى الشيخ شمس الدين خصوصاً . وأظهر بعض مُصنّفاته (يعني مُصنفات الشهيد) ، ممّا يُظهِر تشيّعه ، كرسالة القُدسيّة ، ورسالة الدُرّة المُضيّة في الأحاديث المَرويّة ، وكتاب جامع البَيْن ، وغاية العالِمين وغير ذلك "[15] .

هذا نصّ في الغاية من الأهميّة لأسباب ثلاثة :

ــ السبب الأول : أنه يُبيّن بما يكفي من التفصيل خِطّة ابن يحيى في مُقارعة الشهيد ، المَبنيّة على إثبات تشيّعه لدى السُّلطة .

ــ السبب الثاني : أنه يقول ضمناً أن الشهيد في كافة أعماله كان يتّقي ، فلا يُظهر تشيّعه حيث يمكن للسُلطة أن تطّلع عليه . وهذا مَلمَح جديد في كل ما يُذكَر من سيرته . يبدو أنه صحيح لِما سنُدلي به بعد قليل .

لكنّ هذه النتيجة تطرح سؤالاً كبيراً : كيف نجمع بين هذه المعلومة ، وبين ما هو ثابت ومؤكّد من نشاطه الواسع في تربية عشرات التلاميذ ، وإنشائه مدرسة ، وتصنيفاته المُتعدّدة ؟

---

(15) أيضاً .

الجواب المُفصّل عند علاّم الغيوب . ولكن ها نحن قد أصبحنا نعرف أنه نجح في إخفاء أعماله ومقاصده مُدّة طويلة . وهذا يدلّ على مقدرة باهرة ، وتنظيم وضبط في الغاية من الدقة . والنصّ التالي يُلقي ضوءاً على ما اختطّه لنفسه من طريقة في العمل ، وهو لمحمد مكّي أيضاً .

قال :

" **وكان قدّس سِرّه إذا حضر في مكان من الشام [** يعني : دمشق **] أو بعلبك أو صيدا يُدرّس ليلاً في مذهب الشيعة للخواصّ من الشيعة تقيّةً . وبقي على ذلك مُدة** " [16] .

والمفهوم من هذا الكلام أنه كان في " جِزّين " يتمتّع بهامشٍ واسعٍ من الحريّة . وأن الناس فيها ، بل في كل "جبل عامل" ، من حيث أتى أكثر تلاميذه ، كانوا في أقصى التضامن معه . ولنُضف هذا إلى ما قلناه في الطيف الأول من هذه الأطياف الثلاثة ، عن العلاقة الحميمة التي قامت بينه وبين الأكثريّة . لم يشذّ عنها إلا مَن ذكرناه في مطاوي هذا البحث .

ويقول الشهيد الثاني في شرحه على (اللُمعة الدمشقيّة) :

" **ونُقل عن المصنّف رحمه الله أن مجلسه في دمشق ما كان يخلو غالباً من علماء الجمهور، لخُلطته بهم وصُحبته لهم . قال ، فلما شرعتُ في تصنيف هذا الكتاب كنتُ أخاف أن يدخلَ عليّ أحدٌ منهم فيراه . فما دخل عليّ أحدٌ منذ شرعتُ في تصنيفه ، إلى أن فرغتُ منه . وكان ذلك من خفيّ الألطاف** " [17] .

والحكاية نفسها ، وإن في سياقٍ مُختلفٍ ، في (مُختصَر نسيم السّحَر) [18].

---

(16) مختصر نسيم السحر / في ملحقات الكتاب .

(17) الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة : 1 / 23 - 24 .

(18) الصفحة / 25 .

ودلالة ذلك في غير حاجةٍ إلى مَزيد بيان .

ـ السبب الثالث : إن النص يأتي على ذكر أربعة كُتُب للشهيد بأسمائها . واحد منها معروف ، وإن يكُن غير مطبوع . ولكن توجد منه على الأقل نسخة خطيّة . يُسمّيه (جامع البين) . وتمام اسمه (جامع البَيْن من فوائد الشّرحيَن) [19] . ولكن الثلاثة الأخريات غير معروفة إطلاقاً . ولم يذكرها الشهيد في الإجازات المُتعدّدة التي صدرت عنه . وهذا أمر مُحيّر حقاً . فلا نحن نجدِ سبباً للقول أن الجميع قد تجاهلوها بما فيهم مُصنفها . ولا سبباً لاتهام محمد مكّي وضمناً البتدّيني ، مؤلف (نسيم السّحَر) ، بالاختلاق أو الاشتباه . وسنكتفي الآن بإيراد هذه الملاحظة . تاركين الأمر لمن يتناول الأمر بعدنا من الباحثين . عسى أن يقعوا على ما لم نقع عليه ، أو يلتفتوا إلى ما لم نلتفت إليه .

إلى جنْب ذينك المُعارضيَن شخصٌ ثالث لا يُذكَر من قِبَل كل الذين ترجموا للشهيد . وإنما تنفرد بذكره المأثورات الشفويّة المُتناقلَة في " جبل عامل ". هو **الشيخ** محمد اليالوشي. نسبةً إلى قرية من قرّاه، في إقليم التفاح ، على ميل من قرية الزريريّة ، هي الآن خراب . وفيها بُرج لا يزال قسم منه حتى اليوم قائماً . اسمها " بُرج يالوش " . والظاهر أنها اكتسبت اسمها من ذلك البُرج . وأول ذكرٍ مُحرّرٍ لليالوشي بالإشارة دون الاسم هو في (أنيس المُسافر وجليس الخاطر) المنشور بعنوان (كشكول البحراني) للشيخ يوسف البحراني (1117 . 1186 هـ / 1705 . 1772 م) ، حيث قال : " **بُرج يالوش الذي ادّعى النبوّة وقتله الشهيد الأول ، وقُتل بسببه قدّس الله روحه** " [20]. إذن ، فهو، أي النص ، يرجع إلى أواسط القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد . وهذا يدلّ على أن هذه الرواية كانت حيّة مُتداولـَة حتى ذلك التاريخ .

---

(19) انظر تعريفاً مُفصّلاً بالكتاب في : الشهيد الأول حياته وآثاره للشيخ مختاري / 151 ـ 54 .

(20) كشكول البحراني ، ط . بيروت 1986 : 1 / 429 .

ذلك الرجل هو الوحيد من بين هؤلاء الثلاثة المُرتدّين الذي يحملُ لقب "**الشيخ** " . والرواية الشفويّة لا تضنّ علينا بالتفسير لهذا الامتياز. فتقول أنه كان من تلاميذ الشهيد أي أنه كان فقيهاً . وهو تفسير كافٍ ومُقنِع . وتُتابع قائلةً ، أن سبب خروجه على أستاذه ، أنه وقع بيَد الشهيد كتاب شعوذة ، فأعطاه لليالوشي ليُتلفه ، فأخفاه وتعلّم منه الشعوذة . فصار مُشعوذاً وادّعى النُبوّة . وأن الشهيد حاربه وقتله . ويُقال أن قبور شُهداء تلك الوقعة ما تزال معروفة في " جبل عامل " قُرب مدينة " النبطيّة" [21] .

أمّا السبب المذكور فهو سخيفٌ وتافه ، ولا يستحقّ الوقوف عنده . والقضيّةُ في سببها المزعوم وفي نتائجها أكبر من ذلك بكثير . والرواية تحمل سِمات التفسير الشعبي الساذج . ولا غرابة في ذلك ، بعد أن عرفنا أنها من المنقولات الشفويّة .

لكن النتيجة مُختلفة جِداً في دلالتها . فهي تدلّ على أن اليالوشي أثار عاصفةً هوجاء في وجه أستاذه ، ممّا اقتضى حرباً سقط فيها الكثيرون . من الذين لا تزال قبورهم بالفعل حتى اليوم حيث ذكر النصّ . كما يُقيم النص نفسه علاقةً سببيّةً بين شكوى هذا اليالوشي وبين قَتْلِ الشهيد . وسنعالج هذه النقطة في الفصل المُخصّص لأسباب قتله ، فيما يأتي إن شاء الله .

فهذا ما يتصل بأولئك الثلاثة " المُرتدّون " . ومنه نُرجّح أن وصفَ " مُرتدّ " لهم لا يُراد منه المعنى القرآني ، الذي يأول إلى الكفر بعد الإسلام . بل معنىً آخَر يعود إلى مُجمَل الوضع الثقافي . الاجتماعي الذي نجح الشهيد في بنائه . وغدا صِبغة المجتمع الشيعي . ثم جاء أولئك الثلاثة ليهدموا ما بناه ، لا لشئ إلا لأنه حرمهم أو لم يمنحهم ، لسببٍ أو لغيره ، المواقع أو الامتيازات أو المنافع التي يطمعون بها . الأمرُ الذي رأى فيه الناسُ ارتداداً أو نكوصاً إلى الوراء نحو مرحلةٍ من تاريخهم القريب والبعيد

---

(21) السيد محسن الأمين : خِطط جبل عامل ، ط . بيروت 1380 هـ/ 1961 م / 200 .

لا يُمكنُ وصفها بأقلّ من أنها أزمـة بكلّ المعاني . فكأنها في قوّة تعبيرها ردّة .

2 ــ علاقاتُه الخارجيّة

نعني بـ " الخارجيّة " كل ما هو غير داخلي . حيث "الداخلي" يعني ، كما عرفنا ، شبكة علاقاته في " لبنان " . سواءٌ منها ما هو من خِطته ، أم ما قد فُرض عليه فرضاً ، بحكم الأحوال القائمة سياسيّة واجتماعيّة . أمّا " الخارجيّة " فتعني ، عمليّاً ، شبكة علاقاته في " دمشق " وبعلي بن المُؤيّد الخراساني .

أ ــ علاقته برجال السُلطة في " دمشق " .

كانت " دمشق " في أيام الشهيد العاصمة الثانية للدولة التي يحكمها المماليك . والتي تتألف من قطرين رئيسين " مصر " و " الشام " . وكان عاملها يُلقّب بـ (الكافل) و (النائب) ، أي نائب السلطنة . تمييزاً له عن غيره من الوُلاة الكُثُر . وإشارةً إلى أنه يأتي بعد السلطان مباشرةً بدرجة .

وكانت " الشام " تشمل ما هو اليوم " سوريّة " و" لبنان " و" فلسطين " و" الأردن " وأجزاء من " تركيّة " . كما كانت مُقسّمة إلى ست ولايات تُسمّى كلٌ منها مملكة . أوسعها رُقعةً مملكة " دمشق " . أمّا الإدارة فكانت مركزيّة ، بمعنى أن القرارات في إدارة كامل شؤون النيابة ينبغي الرجوع بشأنها إلى النائب في " دمشق " .

أمّا جهازُ الإدارة فيها ، فكان يتولاّه ثلاثة أنواع من المسؤولين أو كبار الموظفين ، بإشراف النائب طبعاً . أعلاهم رُتبةً أصحاب السيوف . وهم جميعاً من العسكر المملوكي . يليهم الموظفون المدنيّون ، الذين عليهم تنظيم وضبط وحفظ القيود والسجلاّت وما إليها . ثم أربـاب الوظائف الدينيّة ، الـذين يتولّون شُـؤون الأوقــاف والقضاء ومُختلف الأمور الحِسبيّة .

" جِزّين "، بلد الشهيد، كانت من ضمن مملكة "صَفَد". ولكنها في شؤونها الإداريّة والقضائيّة اليوميّة كانت، مثل كل "جبل عامل"، تابعةً لمدينة "صيدا"حيث مقرّ الوالي والقاضي .

نقول كل هذا ، وإن كان قد يبدو لقارئٍ إطالةً في غير محلّها وخُروجاً على عمود البحث ، لنساعده على أن يتصوّر صعوبة وتعقيد بناء علاقة طيّبة وهادفة مع هذا الجهاز البالغ التعقيد . بما فيه من منازع مُتباينة في مقاصدها وتوجّهاتها وسلوكيّاتها . وفي الوقت نفسه ، ضرورة بناء علاقة كهذه لرجل غدا زعيم قومه ومُوجّههم . من ضمن خِطّة تعمل على إعادة بناء مُجتمعه المُنهَك المأزوم ، بناءً فكرياً واجتماعيّاً وسياسيّاً . هذا ، مع الأخذ بعين الاعتبار، أن أفكار الشهيد وبعض أعماله تسير في اتجاه مُعاكس تماماً للسياسة المملوكيّة ، المبنيّة على مبدأ التفويض . حيث يُبايَعُ عبّاسيُّ النّسَب ، فيما يُزعَمُ ، بالخلافة ، ليفوّضَ مَن وقع عليه الاختيار ، أو فرض نفسه بالقوّة ، من الأمراء المماليك بالحكم . وبهذه الآليّة يغدو سُلطة شرعيّة . وممّا هو غني عن البيان، أن الشهيد حين منح الفقيه ما ذكرناه فيما فات من سُلطات واسعة ، تشمل فضّ الخصومات ، وتنفيذ الأحكام مع المُكنة ، وجباية الأخماس ، كان ضمناً يؤسّس لسُلطة موازية . ومن هنا قُلنا أن من أعماله ما يسير في اتجاه مُعاكس لسياسة الدولة . والأمر نفسه يصحّ بالنسبة لفقهاء السُلطة . الذين لا ريب في أنهم لم يكونوا مُرتاحين لبروز هذا الفقيه الشيعي ، بما يحمل من أفكار ، وبما عمل عليه من خِطة نهضويّة للشيعة .

ومع ذلك ، ويا للعجب ، فقد نجح في بناء علاقة وديّة مع الاثنين . نجح في بناء علاقة مع رجال الدولة. ونجح في بناء مثلِها مع الفقهاء في"دمشق". وسنقول ماعندنا على هذا وذاك .

بالنسبة لعلاقته برجال الدولة في " دمشق " ، فإن أوسع مادّةٍ عليها نجِدُها في (مُختصر نسيم السّحَر) . فهو يُصوّر نائب السّلطنة بيدمُر عند أمر الشهيد ، وحامياً

له في وجه فقهاء المدينة ، أي " دمشق " الذين ما انفكّوا يدبّرون صنوف المهالك له . ولكن النائب كان دائماً لهم بالمرصاد . ليتدخّل في الوقت المُناسب ويُنقذه ممّا يحيكونه له ، أو لينتقم له منهم . فهو يستجيب لطلب الشيخ فيأتي بعسكره إلى "جبل عامل" لحرب خصمه الخيامي [22]. ثم أنه يُخرجه من السجن، بعد أن حُبس فيه مُدّة بسعيهم ، ويُخيّره في الإقامة أينما شاء [23] . كما يهرع مُسرعاً من "القدس" إلى "دمشق" بعد أن علم ، بطريقة إعجازيّة ، بقتله بتدبيرهم ، ويأمر بمعاقبتهم ، وببناء قُبّة عظيمة على قبره [24]. وهذا كلّه يدلّ على علاقة من أحسن ما يكون ، تصِل إلى حدّ الرعاية الشّخصيّة .

لكننا نشُكّ في صحّة تلك المادّة وأكثر . لِما فيها من أمورٍ غير معقولة . كسقوط ورقة بدويّ عظيم في مجلس بيدمُر تُخطره بقتل الشهيد . أو تُجافي ما نعرفه عن علاقة الفقهاء بالسُلطة المحليّة العُليا ، وآليّات عمل كلٍ منهما ، بوصفهما سُلطتيَن مُتوازيتيَن . ونظنُّ أن أساسها من تدبيج السُلطة ، ابتغاء علاج حالة الغضب العام بسبب قتل الشهيد . بتصوير الجريمة من فعل مجهول ودون رضىً منها . ثم تناولَها الخيالُ الشعبي السّاذج في أوساط مُحبّيه ، لأنها مَبعث رضىً وغبطةٍ له ، فأضاف وزيّن . ثم جاء مُصنّف (نسيم السّحَر) فأثبتها ببراءة فيما علّقه على سيرة شيخه . ونذكرُ بهذه المناسبة أنّ مثل هذه الفذلكة المفضوحة حصلت على أثر قتل العثمانيين الشهيدَ الثاني [25] . ولذلك فإننا سنكتفي من هذه المادّة بما قلناه إثباتاً ونقداً ، دون ترتيب أي أثرٍ عليها .

---

(22) مختصر نسيم السّحَر /   في ملحقات الكتاب .

(23) نفسه .

(24) ايضاً .

(25) كتابنا : ستة فقهاء أبطال / 167 - 69 .

المادّة التي تستحقّ منّا أقصى العناية ، فيما يخصّ هذه الإشكاليّة التي نعالجها الآن ، نجدُها في القصيدة التي كتبها الشهيد من سجنه في قلعة " دمشق " ، يُخاطب فيها بيدمُر [26] .

ولنتكلّم أولُ في سند القصيدة ، لأن الإفادة ممّا فيها مُتوقّفٌ على صحّة نسبتها له .

أعلى مَن رواها سنداً ، بقدر ما بحثنا ، الخوانساري في (روضات الجنّات) . قدّم لها بقوله :

" **ليُعلَم أني رأيتُ بخط شيخنا الشهيد الثاني ، على ظهر مجموعة من الرسائل النفيسة ، كانت جميعها بخطه الشريف يقيناً ، روايةَ منظومةٍ أخرى للشيخ الشهيد شمس الدين بن مكّي رحمه الله في بيدمُر، لمّا حبسه في قلعة دمشق** " [27].

ثم يورد القصيدة.

إذن ، فالسند وجادة عن الشهيد الثاني " **يقيناً** " ، على حَدّ قول الخوانساري . وهو سندٌ جيّد . يؤيّده ما في متن القصيدة من خصوصيّات خفيّة من سيرة ناظمها ، بمعنى أننا لا نجد لها ذكراً في كل ما كُتب عنه . لا يطّلع عليها إلا صاحبها . الأمر الذي يجعل احتمالَ نحْلِها وادّعائها عليه ضعيفاً جِدّاً . خصوصاً وأنه لا مصلحة لأحد في عمل كهذا .

ولكن ، ومن جهة أخرى ، وما دمنا نستخدم منهج النقد الداخلي للنص ، فإننا نلاحظ أن القصيدة ركيكة ضعيفة التراكيب ، بالقياس إلى ما نعرفه من شعر الشهيد . وتفسير ذلك غير عسير. ذلك أنه كتبها في ظرف صعب وهو قيد السجن . وقد عبّر عن ذلك الخوانساري تعبيراً طريفاً . حيث سمّاها بـ " القصيدة الفزعيّة " . كما أنه ضمّنها

---

(26) نصّها في الوثائق التي ألحقناها بالكتاب.

(27) روضات الجنات : 7 / 19 .

أموراً اقتضاها المقام وطبيعة الخطاب . ومعلوم أنّ من أسباب قوّة الشعر صدقُه ، وأنّ المُستأجرة ليست كالثكلى . وعليه نقول ، إن عناصر صحة نسبة القصيدة إليه قويّة إلى حدّ كافٍ . فلننتقل إلى قراءة نصّها ، باحثين عن إشارات إلى علاقة صاحبها برجال الدولة في " دمشق " .

ـ أولها: في قوله في البيت الثاني، والخطاب لبيدمُر:

" إني أراعي لكم في كلّ آونةٍ "

وهي تُشير إلى سوابق حصلت بينه وبين النائب ، راعاه فيها الشهيد . أي عمل فيها بما يُسِرّه ويُرضيه . وها هو يُدِلّ عليه بها . وهو معنى عام ، ولكنه يدَلّ إجمالاً على ما قلناه . وإنما لم يذكرها صراحةً لأنه يفترض أن المُخاطَب يعرفها حقّ المعرفة .

ـ ثانيها : في قوله في البيتين الحادي والثاني عشر :

فكُن كمنجك بلّ الله أعظمه وزادك الله عزاً ليس ينحصر

أتى إليه رُواة السؤ إذ أفكوا فحين حقّق أرداهم بما ذكروا

وفيهما أن النائب السابق، الأمير الكبير العادل سيف الدين منجك (ولي : في 25 جمادى الآخرة 754 هـ / 1353 م . يوم عرفة من السنة نفسها) ثم (في شهور سنة 770 . إلى شوال 775 هـ / 1368 . 1373 م) [28] ، . سعى لديه "**رُواة السؤ**" بالشهيد . فناصره وأردى (قتل ؟) السّاعين . وهي تدلّ على علاقة متينة جداً بين الاثنين . والواقعة المُشار إليها غير مذكورة في كل ما كُتب على سيرة الشهيد . وهي صحيحة دون أدنى ريب .

ـ ثالثها : في البيت الثالث عشر . وفيه يستشهد على صحّة ما قاله في البيتين السابقَين بأحد الأمراء . يُشير إليه بـ " نجْل العسكري " . وكان يشغل منصب الحِجابة . وهي من الوظائف الهامّة في الإدارة المملوكيّة . ولم نعثُر ، بعد البحث في مصادر

---

(28) إعلام الورى / 22 و 26 .

الفترة ، على ما يزيدنا معرفةً بهذا الأمير. ولكن استشهادَ الشهيد به يدلّ على أنه كان يأمنُ جانبه على الأقلّ .

ــ رابعها : في البيتيَن ما قبل الأخير. وفيهما يذكر أنه كان من دأبه الحجّ كل عام . وأنه في حِجّته الأخيرة كان في معيّة (محمد شاه) ابن النائب بيدمُر . وهذا يدلّ أيضاً على علاقة متينة بهذا الإبن ، وضمناً على علاقة مُماثلة بأبيه. ذلك أنه لو لم يكُن مقبولاً عند الأب ، لَما أقدم ابنه ، وربما أبوه ، على ضمّه إلى حاشيته في هذا الطريق ، الذي كان تشكيل وفد كهذا فيه يخضع لاعتبارات سياسيّة معروفة .

نخرج من هذه القراءة بمعلوماتٍ طريفة عن الشهيد ، هي من الجانب غير المرئي من سيرته ، كما تعرضُها مختلف المصادر . هي أنه ما بين السنتين 770 هـ / 1368 م و 785 هـ / 1383 م ، أي على مدى خمس عشرة سنة على الأقل ، كانت له علاقات واسعة بأعلى رجال الدولة في " دمشق " . وذلك أمرٌ يجب أن يكون مفهوماً جِدّاً . فالذي يطلبُ ما طلبه ، ويعملُ على ما عمل عليه ، لا يُعقل أن يفترض أنه في جزيرة معزولة . وأنه يستطيع أن يتجاهل السُلطة التي تبسط سُلطانها على كامل منطقة نشاطه .

ومن ذلك أيضاً وأيضاً أنه كان كثير التردّد على العاصمة الإقليميّة " دمشق " . حيث التقى القطب الرازي سنة 766 هـ / 1364 م ، وابن الخازن الحائري سنة 785 هـ / 1383م . وحيث صنّف أشهر كُتُبه (اللُمعة الدمشقيّة) . ثم كان من تصاريف المقدور أن نال فيها درجة الشهادة .

ب ــ علاقته بفقهاء " دمشق " .

فأوّل ما ينبغي علينا أن نُلاحظه ، مع تحفّظنا عليه ، هو ما قاله في (مُختصر نسيم السّحَر) ، بعد أن ذكرَ مَن يُسمّيه " **عبّاد بن جماعة** " أنّه ، يعني عبّاد هذا ، " **كان شريكاً له [يعني للشهيد] في أوايل التحصيل والدرس في المعقول والمنقول ،**

كالنحو والمنطق والأصول ، على بعض الشيوخ في الشام والقدس ومصر والغرب " (29) .
والكلام يأتي في سياق بيان سبب قتل الشهيد بزعمه ، وما كان من دَوْر وسعي لعبّاد فيه . وهو ، إن صحّ ، يضع تاريخاً لبَدء علاقته بفقهاء "الشام" على الأقلّ ، يرجع إلى أيام بَدء الطلب والتحصيل . وهي مرحلةٌ غامضةٌ من سيرة الشهيد ، كما عرفنا ممّا علّقناه على سيرته في القسم الأول من الفصل الثالث .

لكن ما يدعونا إلى التحفّظ الشــديد على هـذا النصّ ، هو ضعفه الشديد من عِدّة جوانب :

ـ الأول : أن الشهيد لم يُذكر أبداً أنّـه قد بدأ التحصيل في تلك البلدان . وهو الذي لم يُخفِ ذكرَ مَن أخذ أو سمع منهم من علماء ومُحدّثي السُنّة . بل إنه أسّس في هذا نهجاً سارَ عليــهِ عليه من بعده كبارُ علماء المنطقة : الشهيد الثاني ، بهاء الدين العاملي ، المُحقق الكركي .

ـ الثاني : أن " عبّاد " ذاك هو ، فيما يبدو لنا ، شخصيّة خياليّة لم توجـد قط . ولم نعثر له على ذكر في كافة كُتُب الطبقات والتراجم التي بين يدينا ، وهي كثيرة وغنيّة .

ـ الثالث : ليس من المفهوم ماذا يعني بـ "الغرب". وقد احتملنا أن تكون قد أصابها التصحيف. فعرضناها على كافة الاحتمالات الممكنة. ولكننا لم نخرج من ذلك بطائل .

خلاصة التدقيق في هذا النص ، أنه لا دليل على الإطلاق على أن الشهيد بدأ صلته بفقهاء "دمشق" في مرحلة مُبكرّة من حياته . وحتى أثناء رحلته العلميّة الواسعة ، بعد خروجه من " الحلّة " ، فإننا لا نجد بين من استجازهم أو قرأ عليهم أي ذكرٍ لفقيه أو مُحدّث أخذ عنه أو سمع منه في " دمشق " . والفقيهان المنسوبان إلى بني جماعة وهي أسرة حمويّة ، نسبةً إلى مدينة " حماة " في شمال " سوريّة " ، ـ لقي أحدَهما في

---

(29) مُختصر نسيم السّحَر / في ملحقات الكتاب .

"مصر" ، والثاني في " المدينة ". كما حرّرنا في القسم الرابع من الفصل الثالث . استناداً إلى ما ذكره عنهما في إجازتيَه لابن الخازن الحائري ومحمّد بن نجدة .

ولكن من المؤكّد أنه كانت له علاقات واسعة وطيّبة بفقهاء المدينة . وذلك استناداً إلى شهادة أحد أكثر العارفين بسيرته ، ألا وهو الشهيد الثاني ، حيث قال في شرحه الشهير على (اللمعة الدمشقيّة) :

" **ونُقِل عن المُصنف رحمه الله أن مجلسه بدمشق ذلك الوقت ما كان يخلو غالباً من عُلماء الجمهور ، لخلْطته بهم وصُحبته لهم . قال ، فلمّا شرعتُ في تصنيف هذا الكتاب ، كنتُ أخاف أن يدخلَ عليّ أحدٌ منهم فيراه . فما دخل عليّ أحدٌ منذ شرعتُ في تصنيفه إلى أن فرغتُ منه** " [30] .

وهو نصّ صريح وغني على :

1 ــ أنه كان له " **مجلس** " ، أي دار ، أو مكان منه ، مُعدّ للزائرين ، يُفتَح لهم عند حضوره في المدينة .

2 ــ أن رُوّاد " **المجلس** " كانوا من كثرة العدد بحيث أنه " **ما كان يخلو غالباً من عُلماء الجمهور** " . وناهيك بهذه العبارة دليلاً على سِعة صلاته بهم . وعلى أن صاحبه كان مقبولاً منهم ، مكيناً لديهم . ومنهم ، ولا ريب ، صاحبه الأثير لديه محمد بن محمد الجَزَري الدمشقي (751 ـ 833 هـ / 1350 ــ 1429 م) [31] . الذي أودع كتابه (غاية النهاية) تلك الشهادة الطيّبة بحقّ الشهيد [32] . وهي أنموذجٌ للانطباع

---

(30) الروضة البهيّة : 1 / 24 .

(31) انظر الترجمة له في : معجم المؤلفين لكحالة ، ط . بيروت ، لات : 11 / 291 ـ 92 . ومنها نعرف أن الجزري عاش الشطر الأول من عمره في " دمشق " ، حيث عرف الشهيد ، وصحبه مُدّة مديدة على حدّ ما قال .

(32) غاية النهاية : 2 / 265 .

الطيّب الذي تركه الشهيد لدى فقهاء " دمشق " . عدا فقهاء السُلطة طبعاً .

نخلُص من كل هذا ، إلى أن الشهيد بنى علاقته بفقهاء "دمشق " بعد أن استقرّ به المقام في " جزّين " . وأنه كان من الدقّة والتحفّظ بحيث أنه كان يُحاذر أن يطلعوا على تصنيفه لكتابٍ في فقه الشيعة . هذا ، مع علمهم أنه " **شيخ الشيعة والمجتهد في مذهبهم** " ، على حدّ قول الجزري . المُهمّ ، كما يُقال ، أن تبتعد العين عن المِخرَز قليلاً .

ج ــ علاقته بابن المُؤيّد

عرضنا فيما فات لبداية علاقة الشهيد بابن المُؤيّد [33] . حيث أشرنا إشارةً سريعة إلى الرسالة الأُولى التي أرسلها إليه ، وقد ضاع نصّها من أسف ، ووعدنا بالعودة إلى الموضوع في محلّه المُناسب . وهو هاهنا ، تحت عنوان "علاقاته الخارجيّة" . خصوصاً وأننا هنا نملك أطروحة واضحة ، تُبيّن دافع ابن المؤيّد لمبادرته غير العاديّة. تضمّنتها رسالته إليه . التي ما يزال نصّها الدقيق ، فيما يبدو ، بين أيدينا . كما أننا الآن نملك من المعلومات عن أعمال الشهيد ما يُساعدنا على تصوّرسببٍ لرفضه العَرْض/ الدعوة ، مع أنه عَرْضٌ مُغرٍ ووجيه .

الرسالة ، بما فيها من فذلكة و توجيه وعَرْض ، تطرح عدّة أسئلة . لا بُدّ لنا ، في سبيل استيفاء كافة عناصر الموضوع ، من فصلها تحليلياً ، مقدّمةً لمعالجة كلّ منها على حِدة . وقد أثبتنا نصّها في عِداد الوثائق التي ألحقناها بمتن الكتاب . وسنبدأ بدراسةٍ على سندها . لأن الاستفادة من المتن تتوقف إلى حدّ بعيد على قوّة سنده . أي إثبات أصل صحّة الرسالة . وهذا واضح .

---

(33) انظر القسم الثالث من الفصل الثالث .

1ـــ في سند الرسالة

بين أيدينا من نصّها ثلاثة نُسَخ خطيّة . أعلاها وأوثقها سنداً ، وربما أهمّها جميعها ، مخطوطة مكتبة مجلس الشورى الإسلامي في "طهران" ، ذات الرقم 4886 [34]. وهي نُسخة من (الروضة البهيّة في شرح اللُمعَة الدمشقيّة) للشهيد الثاني بخط تلميذه السيد علي بن الحسين الصائغ الجِزّيني (ت : 980 هـ / 1572 م) . وهو أحد أجلّ تلاميذ المُصنّف . نسخَها سنة 958 هـ / 1551 م ، أي في حياة شيخه ، وعن نسخة بخطه . وعليها إجازة بخط الشهيد الثاني لتلميذه الناسخ . وقد أورد في أول النسخة نصّ الرسالة .

إذن فالنسخة تتمتّع بقدر كافٍ من الوثاقة ، بالنسبة لمقاييس الوثائق التاريخيّة ، تطمئن إليه النفس .

2 ـــ في تاريخها

الرسالة ، كما وصلتنا ، غيرُ مُؤرّخة . ولكننا نعرف من مُقـدّمة كتاب الشهيد (اللُمعَة الدمشقيّة) أنه كتبه " **إجابةً لالتماس بعض الديّانين** " [35] وليس هو إلا حامل الرسالة نفسها ، شمس الدين محمّد الآوي . هذا ، وقد أشار الشهيد الثاني في مُقدّمة شرحه إلى أن تاريخ تأليف الأصل عام 782 هـ / 1380 م [36] . إذن ، فمن الجمْع بين المعلومتيَن نعرفُ أنّ هذا هو تاريخ كَتْب الرسالة يقيناً .

---

(34) فهرست كتابخانه مجلس شوراي إسلامي ، ط . 1347 هـ . ش : 14 / 28 ـ 29 .

(35) اللمعة الدمشقيّة / 21 .

(36) الروضة البهيّة : 1 / 24.

3 . في مُلابساتها

نعني بهذا العنوان أمرين : لماذا كتب ابنُ المؤيّد الرسالة ؟ ولماذا إلى الشهيد دون غيره ؟

والتساؤلان يتجهان مُباشَرةً إلى سريرة كاتبها. وهذا ومثله أمرٌ يتجنّبه المؤرّخ الحكيم عادةً. لأن السرائر علمُها عند صاحبها، وعند المُطّلع على السرائر سُبحانه. لكن ما يُهوّن الأمرَ علينا ، أن هاهنا سابقة يُمكن البناء عليها . وما من ريب في أن ابن المُؤيّد قد بنى عليها أيضاً .

نُشير بهذا إلى إعلان السلطان المغولي أولجايتو خدابنده محمد (حكم : 703 . 716 هـ/ 1303 . 1316 م) ، وهو ثامن إيلخانات فارس ، تشيّعه وضَرْبه النقود باسم الأئمة الإثنى عشر، عام 708 هـ/ 1308 م [37]. وتبعه جَمْع من العلماء والأمراء . ويُقال أن تشيّعه كان على يد العلاّمة الحلّي الحسن بن يوسف بن المُطهّر. وعلى كل حال ، فإن من الثابت أن العلاّمة انتقل إلى "إيران" حيث أسّس وأشرف على عمل ما عُرف باسم (المدرسة السّيّارة) . لتجوب البلاد ، ناشرةً المعارف الشيعيّة [38]. وبذلك مهّد لسلسلة من التحفّزات باتجاه التشيّع . كان آخرها الدولة الصفويّة ، التي أعادت توحيد "إيران" على قاعدة التشيّع الإمامي .

إذن ، فهذه هي السّابقة التي بنى عليها ابن المُؤيّد . وإذن ، فلا عجب أن يتطلّع هو أيضاً صوبٍ " الحلّة " ، كما فعل سلفه قبل زهاء السبعة عقود . وهو يتأمّل بحكمة ظاهرة في سُبُل إعمال القرار السياسي الذي اتخذه. والهبوط به إلى مُستواه الطبيعي، أي إلى عامّة الناس ، عَبْر التبليغ ، وهو وظيفة العالِم .

---

(37) خواند أمير : حبيب السيَر ط. طهران 1333 هـ . ش : 3 / 191 ـ 92 .

(38) للتفصيل : أعيان الشيعة : 5 / 396 ـ 408 .

هذا فيما يعود إلى أول التساؤليَن .

أمّا لماذا تطلّعَ إلى الشهيد بالذات . مع وجود غيره من أجلّة العلماء الذين كانت " الحِلـّة" تحفِل بهم في ذلك الأوان . ومنهم أساتذة الشهيد وشيوخه ، ممّن أتينا على ذكرهم في الفصل الثالث ؟ ــ فهذا من الجانب غير المَرئي من سيرة الاثنين ، ونظنُّ أنّه سيبقى كذلك ، لأنّه يرجع إلى فترةٍ مُبكّرة من حياة وأعمال الاثنين . يوم كان ابن المُؤيّد يبني دولته العتيدة في "إيران" الطوائفيّة ، عَبْر سلسة من المغامرات الصعبة . وكان الشهيد ، القادم من بلده الفقير المأزوم ، يبني نفسه استعداداً للمهامّ الكبرى التي تنتظره في " جبل عامل " . ولكنها إجمالاً شهادة للإثنين : شهادة لابن المُؤيّد بالتصميم والتخطيط الدقيق ، من موقع العارف بأسرار أزمة بلده وسُبُل معاجتها. وشهادة للشهيد بأنه ، بما لديه من شخصيّة صِداميّة مُبادرة ، أهلٌ للمهامّ الكبرى . كان ذلك ما جمع بين الاثنين . ولكن في الوقت نفسه كان ما فرّق بينهما ، فاختلف طريقاهما ، كما سنعرف بعد قليل .

4 ــ في متن الرسالة

كُتبت الرسالة بلغة عربيّة سليمة ، زيّنتها أبيات شِعر . ممّا يدلّ على مُستوىً جيّد من الاحتراف . ولكن روحها فارسيّة . تُذكّرنا بأسلوب المُنشئين بالفارسيّة في ذلك العصر ، الذين دأبوا على تلميع نثرهم بالشِعر. بما يؤكّد ويتناسب مع معنى النثر. ولا غَرْو في ذلك [39].

(39) يقول زين العابدين مُحبّي في " مشاهير شعراء إيران الناطقين بلغة الضاد " ط . طهران 1382 هـ . ش : 2 / 9 أن الرسالة من إنشاء الشاعر والمُنشئ محود بن يمين (ت : 769 هـ / 1367م) . ولكنه لم يُسند قوله إلى مصدر يُعتمَد .

بعد السلام بثلاثة أبيات أصليّة ، أي أنها نُظمت خصيصاً للرسالة ، تخلُص الصياغة إلى الثناء الطويل على المُرسلة إليه : " **العالِم العامِل ، الفاضل الكامل ... الخ** . " وتنتهي بتلميحٍ كأنه يدقّ على الوترالحسّاس للشهيد: "**مَدّ الله أطناب ظِلاله بمحمّد وآله في دولة راسية الأوتاد** " . وكأن ، بل إن مُمليها يعرف الظروف الصعبة التي يضطرب فيها ، في ظِل دولة أقرب إلى العداء من أيّ شيءٍ آخَر . هوذا إغراءٌ صريح ، يستفيد من المُقارنة بين هُويّة الدولة التي يعيش الآن في ظلها ، والدولة التي بانتظاره . وكأنه يقول ، هنا ، حيثُ أنت ، الحذر والترقّب والمخاطر الكامنة . أمّا هناك فإنه سيمُدّ ظِلاله في "**دولة راسية الأوتاد**" .

تنتقل الرسالة بعدُ إلى وصف أحوال " **شيعة خراسان**" وأنهم " **مُتعطّشون إلى زُلال وصاله** " و " **قد مزّقت شملهم أيدي الأدوار . وفرّقت جُلـّهم بل كلهم صُروف الليل والنهار** " و " **أنهم يسألون الله تعالى شرف حضوره** " . ويخلُص إلى القول : " **نحن نخاف غضب الله على هذه البلاد لفقدان المُرشِد وعدم الإرشاد** " .

وفي الختام التأكيد على المقصود من الرسالة : " **أن يتفضل علينا ويتوجّه إلينا ، مُتوكلاً على الله القدير . غير مُتعلّل بنوعٍ من المعاذير . فإنّـا بحمد الله نعرفُ قَدره ونستعظمُ أمره** " .

من الواضح أن الرسالة صيغت بذكاء . وأن مُمليها كان يعرف جيّدا كيف يُخاطب الشهيد . سواءٌ من حيث إشارته إلى الظروف الصعبة المُحيطة به في بلاده . أم من حيث المكانة العالية التي بانتظاره والواجب الذي يناديه في " خراسان " .

ومع ذلك فقد كان للشهيد وجهة نظر مُختلفة . فاعتذر عن عدم تلبية الدعوة السّخيّة . واكتفى بتصنيف كتابه الطائر الصّيت (اللُمعَة الدمشقيّة) ، وسلّمه للرسول المُنتظِر ، ليوصله للسلطان . ربما ليُعوّض عن حضوره الشخصي . ولكننا ما نشُكّ أنه كان يعرف جيّداً أن لا شئ يُغني عن حضوره أو حضورمثله ليقود ويُوجّه ما بدأه ابن المُؤيّد .

5 ــ في سبب رفض الشهيد

والسؤال المُفتَرَض هنا يتوجّه أيضاً إلى سريرة صاحبه . وهوالأمر الذي عبّرنا فيما فات بوضوح عن حذرنا وتحذيرنا من الخوض فيه . ولكن ما يُهوّن الأمرَ هنا أيضاً ، أننا نفترض أن شخصاً كالشهيد، لم نرَ منه إلا كل دقّةٍ في العمل، وتبصّر في الإحاطة بالظروف المُحيطة به ، وحساب تحرّكاته على ضوئها ، لابُدّ أنه كانت له أسبابه الموضوعيّة الكامنة وراء الرفض .

ما سنحاوله هنا هو اكتشاف تلك الأسباب الموضوعيّة، أو على الأقلّ احتمالات منها . وذلك استناداً إلى ما قد أصبحنا نعرفه ويعرفه القارئ من سيرة الشهيد وأعماله في وطنه. وأيضاً استناداً إلى بعض ما نعرفه من مجاري الأمورفي "خراسان " . ذلك أنه إن كان ثمة أسباب موضوعيّة ، كما نُرجّح ، لرفضه ، فيجب أن تكون في أحد هذين المكانين .

بالنسبة لوطنه ، فإن القارئ الحصيف قد غدا الآن عارفاً بالعمل الكبير الذي قاده الشهيد . بحيث أننا نستطيع أن نقول بكامل الثقة ، ودون أي مُبالغة ، أنه قاد ثورة حقيقيّة ، بالمعنى الثقافي للكلمة . لقد نجح في نقل وطنه وشعبه من حالة الأزمة المُستحكمة التي كانت تُطوّقه وتأخذ بخناقه ، إلى فضاء استعادة الذات والذاتيّة . والحقيقة التي ينبغي أن نُؤكّد عليها ونحن نتأمّل في هذه الإشكاليّة ، أن الرجل قد أصبح الآن في قلب عمل أكبر منه بكثير ، مع أنه هو الذي خلقه . هكذا الأعمال التغييريّة الكبرى ، لا بُدّ أن تصِل إلى تلك اللحظة التي تتجاوز فيها أصحابها وقادتها . دون أن يعني ذلك أبداً أنها قد أصبحت في غنى عنهم . كلاّ ، بل إن العكس هو الصحيح . إنها في حجمها الكبير، ومُقتضيات ضبط مُختلَف الاتجاهات التي ستنمو حتماً في داخلها ، يجعلها بحاجة إلى رعاية أكبر. وقديما قيل إن المُحافظة على القلاع أكثر صعوبةً من الاستيلاء عليها .

امرؤٌ في قلب هذا الموقع الدقيق ، كيف يمكن أن يُديرَ ظهره لكل شئ ويمضي ؟! خصوصاً وأن خطوته في هذا الاتجاه ستكون ، على الأرجح ، خطوة لا رُجوعَ فيها .

هذا احتمال .

أمّا الثاني فهو كامن في الأحوال السياسيّة التي كانت قائمةً في بلاد " فارس " و " ما وراء النهر " .

لقد نجح السربداريون في بناء دولة في " خراسان " و " دامغان " . ولكن كان غير بعيدٍ عنهم تيمورلنك ، القابع في عاصمته " سمرقند " ، يتحفّز لبدء سلسة فتوحاته الواسعة ، التي أدخلته التاريخ بوصفه أحد أعظم الفاتحين . وبالفعل لم تمض أشهُرٌ قليلة بعد تاريخ الرسالة حتى خرج على رأس جيوشه الجرّارة واجتاح " إيران " و " آسية الصغرى " إلى أن وصل إلى " دمشق " . وكانت الدولة السّربداريّة وسلطانها ابن المُؤيّد من أُولى ضحاياه .

لكن ها هنا سؤال يطرح نفسه : هل كان الشهيد على اطلاع على هذه التي كانت عندما تلقّى دعوة ابن المُؤيّد مُجرّد تهيؤات ، كي نقول أنه رفض تلبية دعوته بسببها ؟

السؤال وجيه . والحقيقة أننا حاولنا تكوين فكرة عن الظروف التي كانت سائدة آنذاك في المنطقة ، وخصوصاً ما يتعلّق منها بتيمور ونشاطاته ، بقراءات واسعة في مصادر تاريخها في ذلك الأوان ، لعلها تُعيننا على الإجابة على هذا السؤال ،. فلم نخرج بطائل تطمئن إليه النفس . على أننا نعرف إجمالاً ، أن ما من حَدَث كبير بحجم أعمال تيمور العسكريّة الكبرى التالية ، إلا وتسبقه إرهاصات وإنذارات وإرجافات . ولكن يبدو أن كلّ هذه لم تُلفِت أنظار المؤرخين . أو بالأحرى لم تكن محلّ عنايتهم .

وعلى هذا فإن الاحتمال الأول يبقى الأقوى . والله أعلم .

خلاصة الفصل

بالنظر لمُقتضيات مشروعه وعمله ، فقد وجد الشهيد نفسه داخل شبكة مُعقّدة من العلاقات . بعضها ممّا عمل عليه . والآخر ممّا فرض نفسه عليه فرضاً . قسمناها تسهيلاً لدراستها إلى قسمين :

ــ القسم الأول: شبكة علاقات داخليّة. أي بالشيعة فيما يُعرَف اليوم بـ" لبنان " . وهم كانوا من أطياف ثلاثة :

أ ــ الأكثريّة التي وجّه جهوده إليها . ونشر الفقهاء من تلاميذه في أوساطها . وعمل على تنظيمها وتوجيه نشاطها . فكان منها أن استجابَتْ له .

بـ ــ المُتسنّنون . وهم فريق من الشيعة تأثّروا بالضغط السكاني والهيمنة السياسيّة للتركمان ، فتحوّلوا إلى مذهب الغالب . وهم من أهل السواحل . ولقد كان هؤلاء المّشكلة الأكبر التي عانى منها دائماً في مشروعه النهضوي .

جـ ــ المُرتدّون . وقد ارتضينا لهم هذا الاسم انسياقاً مع مُفردات لغة العصر . وهو لا يعني الكفر بعد الإسلام . وإنما " المُرتدّون " إلى ما تجاوزه الشهيد بالشيعة بأعماله . أي ما يُشبه ما تعنيه اليوم كلمة (الرجعيّون) . وقد كان لهؤلاء قيادات . عملت كل ما في وسعها لمُضادّة الشهيد . وقد وصفنا أعمالهم .

ــ القسم الثاني : شبكة علاقات خارجيّة . أي بمَن هم خارج وطنه . وهي أيضاً من ثلاثة جهات :

أ ــ السُلطة في " دمشق " . التي يبدو أنه بنى معها علاقة طيّبة استمرّت زمناً .

بـ . الفقهاء في " دمشق " . الذين كان معهم في أطيب حال . عدا فقهاء السلطة .

جـ ـ السلطان علي بن المُؤيّد الخراساني. الذي أرسل رسولاً يستدعيه إلى "خراسان " وقد درسنا رسالته إليه دراسة دقيقة. نرجو أن تكون قد نجحت في بيان حوافز الإثنين .

الفصل السادس

لماذا قُتِل الشهيد ؟

تمهيد

1 ـ في الوقائع .

ـ الجمع بين الروايات .

2 ـ الأقوال والمُزاوجة بينها .

تمهيـد

عرفنا في الفصل السابق أن الشهيد بنى من حوله شبكةً من العلاقات الخارجيّة الطيّبة ، نخصّ بالذكر ما كان بالسُلطة في العاصمة الإقليميّة " دمشق " ، وأيضاً بعددٍ جَمّ على الأقل من فقهائها . وكان له فيها مجلس مقصود منهم . وأنه كان يُقيم فيها مُدداً متفاوتة ، وهذا يَدُلّ على أنه لم يكن يخشى منها بأساً ، بل على أنه كان يأمَن جانبها . جانب السُلطة السياسيّة ، وجانب السُلطة الدينيّة معاً .

ثم إذا بـ " دمشق " وكأنّما كلَّها ، بساستها وفقهائها ، تقلِب له ظهر المِجَنّ فجأةً . وتُدبّر له مُحاكمة مُهلِكَة ، تودي به إلى القتل . بل إلى ما هو أشدّ فظاعةً . فقُتِل بالسيف ثم رُجم ثم صُلِب ثم أُ حرِق . كما عرفنا من ختام الفصل المُخصّص لسيرته .

والسؤال : لماذا ؟ ما الذي جرى فحوّل الأمور من حوله على هذا النحو الدرامي ؟ فكأننا نقرأ فصول مسرحيّة مأساتيّة ، قد أحسن كاتبها حبكها . فأتت مُحرّكةً لأعمق مشاعر الحزن والألم .

هو ذا نحن الآن ، بما نطرحه ، نعود إلى الغوص في سرائر البشر. فكأنما كُتب على الباحث في سيرة الشهيد أن يخوض دائماً المياه العميقة . حيث تكثُر المخاطر والمزالق . وهذا دليل ساطع لا ريب فيه على عظمة الرجل . فالذي يُحرّك الأعماق يركب المخاطر، وقد تنال منه . ثم أن مَن يُحاول قراءته من بعده لا يجِدِ مفرّاً من الخوض حيث خاض . ولو انه قنع بالضحل واليسير لاستراح وأراح .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مُرادها الأجسام

لكن ما يُهوّن علينا الأمر، هنا أيضاً ، أن الجُناة ومَن تكلّم بلسانهم ، قد سجّلوا كلاماً كثيراً وهم يُحاولون جاهدين تبرير جريمتهم النكراء . ونحن سنؤدّي عمل قاضي التحقيق . فنقرأ الوقائع التي كانت السبب في انتقاض الأُمـور وبـدء الآليّة المُهلِكَة التي

انتهت بقتله . ونزاوج ونقارن بين أقوال الجُناة ومَن شاركهم بجريمتهم بالرضى عنها . لا لنُدينهم فهم مُدانَوْن على كل حال . وإنما لنكتشف الدوافع الحقيقيّة للجريمة ، الخبيئة وراء الوقائع الظاهرة .

---

1 ــ في الوقائع

في اليد عليها ثلاث روايات أساسيّة :

ــ الأولى : رواية محمد مكّي :

وهي أوسع رواية عُنيت ببيان الوقائع . وهي رواية طويلة جداً تبلغ ما يزيد على الألفي كلمة . بدأها بقوله : " ولقتله أسباب " . ثم شرع في بيان تلك " **الأسباب** " سبباً سبباً . ولذلك فإننا لن نقتبس نصّه ، كي لا نُطيلَ دون طائل . ولكننا سنكتفي بالوقوف على أهمّ ما فيها . ويبدو من طريقة إيرادها ، وخصوصاً من ترتيبها زمنيّاً ، وكأنّه يُريدُ أن يقول أنها كانت ذات صفة تراكميّة.أي أنها بتراكمها قد أدّت إلى النتيجة : القتل . وعليه فإننا سنوردها وفقاً للترتيب الذي جاءت به . تسهيلاً لدراستها فيما يأتي .

1 ــ أن فقيهاً شافعياً اسمه عبّاد بن جماعة ، كان شريكاً للشهيد في أوايل التحصيل . فدفعه الحسد إلى أن اتهمه بالرّفض ، وأخذ يُشنّع عليه عند عُلماء السُنّة وعند الملك بيدمر .

2ــ أدّت مساعي عبّاد إلى حبس الشهيد في القلعة سنةً كاملة . خرج في نهايتها بأمرٍ من السلطان برقوق مُكرّماً مُعظّماً . بعد أن كتب رسالة إلى نائبه في " الشام " بيدمُر ضمّنها قصيدة مدحه واستنصره فيها . هي غير التي أوردناها في الوثائق المُلحقة بمتن الكتاب . وبعد أن نظّم مجلس مُناظرة بينه وبين فقهاء " دمشق " . ظهر منها براءته ممّا أُ لصق به . وخيّره في الإقامة أنّى شاء .

3 ــ انصرف الشهيد بعد ذلك إلى العمل مُطمئناً ، وخصوصاً إلى التدريس . مُوزّعاً وقته بين " دمشق " و " صيدا " و " بعلبك " . إلى أن خرج عليه تقي الدين الخِيامي البابلي . الذي " **فعل أشياء بالسّحر والشعبذة [....] وأكثر القرُى مالت إليه** " . خصوصاً في السواحل . وقد انتهت أعمالُ الخيامي بقتله .

4 ــ على الأثر خرج عليه يوسف بن يحيى . الذي عمد إلى خطّة أكثر دهاءً ،

ابتغاء تحريض السُلطة عليه . فـ " **أظهر بعض مُصنفاته . ممّا يظهر منـه تشـيّعه** " و " **كتب محضراً شنّع فيه عليه بأنه شيعي وعُمدة الشيعة ومرجعها [....] وكتب معه ووافقه على الارتداد عن مذهب الإماميّة والخروج عن طريق الحق سبعون رجلاً من الجبل وألف رجل من السواحل، ممّن كان ظاهرهم التسنّن** ". وعرضوا ما كتبوه على عدد من القُضاة . وعُقِد له مجلس في " القدس " . وبالنتيجة أعلن السلطان برقوق براءته. "**وأمر بردّه إلى الشام** [أي " دمشق "] **وإلى حيث شاء**" . فرُدّ إلى " دمشق " وأقام بها مُدّة من الزمان .

5 ـ في " دمشق " حيكت ضدّه مؤامرة (نلاحظ هنا أن الفاعل مجهول) . فترقّب حضوره إلى المسجد لصلاة الجمعة . وعمـد إلى وضع أوراق في حذائه ، كُتب فيها أسماء العشرة المُبشّرة . الأمـر الذي أدّى إلى ثورة العوام . فقتلوه ثم صلبوه ثم أحرقوه . ثم "**وضعوه في مكان ودفنوه في عصريّة يوم الخميس تاسع جُمادى الأولى سنة111** " [1] .

ـ الثانية : رواية المقداد بن عبد الله السّيّوري :

> **" كانت وفاة شيخنا الأعظم الشهيد الأكرم ، أعني شمس الدين محمد بن مكي ، قدّس سرّه وفي حظيرة القدس سرّه ، تاسع جمادى الأولى سنة ست وثمانين وسبعمائة . قتل بالسيف ثم صُلب ثم رُجم ثم أُحرق، ببلدة دمشق. لعن الله الفاعلين لذلك والراضين به . في دولة بيدمُر وسلطنة برقوق . بفتوى المالكي ، يُسمّى برهان الدين ، وعبّاد بن جماعة الشافعي . وتعصّب عليه في ذلك جماعة كثيرة . بعد أن حُبس في القلعة الدمشقيّة سنة كاملة " .**
>
> **" وكان سبب حبسه أن وشى به تقي الدين الخيامي بعد جنونه وظهور إمارة الارتداد منه ، أنه كان عاملاً . ثم بعد وفاة هذا الواشي ، قام على طريقته شخص اسمه يوسف بن يحيى . وارتدّ عن مذهب الإماميّة . وكتب محضراً شنّع فيه على الشيخ شمس الدين محمد بن مكي ما قالته الشيعة ومعتقداتهم . وأنه كان أفتـى**

(1) هذا التاريخ غير صحيح كما هو واضح . والظاهر أنه من أخطاء النساخة .

بها الشيخ ابن مكي . وكتب في ذلك المحضر سبعون نفساً من أهل الجبل ، ممّن يقول بالإمامة والتشيّع وارتدّوا عن ذلك . وكتبوا خطوطهم تعصّباً مع يوسف بن يحيى في هذا الشأن . وكتب في هذا ما يزيد على الألف من أهل السواحل من المُتسنّنين . وأثبتوا ذلك عند قاضي بيروت ، وقيل قاضي صيدا . وأتوا بالمحضر إلى القاضي ابن جماعة لعنه الله بدمشق . فنفذه إلى القاضي المالكي . وقال له : تحكم فيه بمذهبك وإلا عزلتك " .

"فجمع ملك الأمراء بيدمُر لعنه الله القضاة والشيوخ لعنهم الله جميعاً . وأحضروا الشيخ رحمه الله . وأحضروا المحضر ، وقُرئ عليه . فأنكر ذلك ، وذكر أنه غير مُعتقدٍ له ، مُراعاةً للتقيّة الواجبة . فلم يُقبَل ذلك منه . وقيل له : قد ثبت ذلك شرعاً ، ولا ينتقض حكم القاضي " .

" فقال الشيخ للقاضي ابن جماعة : إني شافعي المذهب ، وأنت إمام هذا المذهب وقاضيه ، فاحكم فيّ بمذهبك . وإنما قال الشيخ ذلك لأن الشافعي يُجوّز توبة المُرتدّ عنده . فقال ابن جماعة : حينئذٍ على مذهبي يجب حبسك سنة كاملة ثم استتابتك . أمّا الحبس فقد حُبست ، ولكن أنت استغفر الله حتى أحكم بإسلامك . فقال الشيخ : ما فعلتُ ما يُوجب الاستغفار . خوفاً من أن يستغفر فيُثبتوا عليه الذنب . فاستغلطه ابن جماعة لعنه الله وقال : استغفرتَ فثبت الذنب. ثم قال : الآن ما عاد الحكم إليّ [....] الحكم إلى المالكي . فقام المالكي وتوضأ وصلّى ركعتين . ثم قال: حكمتُ بإهراق دمك. فألبسوه اللباس وفُعل به ما قلناه من القتل والصلب والرجم والإحراق"[2].

---

(2) بحار الأنوار : 107 / 186 ـ 88 . هذا ، مع الإشارة إلى أن هذه الرواية هي أمُّ كل الروايات الشيعيّة في هذا النطاق . وقد اقتبسها الحر العاملي في أمل الآمل : 1 / 183 والبحراني في لؤلؤة البحرين / 146 ـ 47 وغيرهما .

ــ الثالثة : رواية ابن قاضي شُهبة (ت : 851 هـ / 1448 م) :

" وفي عاشره عُقد مجلس للشمس محمد بن مكي ، العراقي الأصل [كذا !] ، المُقيم بقرية جزّين . وكان له في السجن مدّة . وأُثبت في حقّه محضر عند قاضي بيروت ، يتضمّن رفضه وإطلاقه في عائشة وأبيها وعمر رضي الله عنهم عبارت مُنكَرة ، بل مُكفرّة على ما أفتى به جماعة من الشافعيّة والحنفيّة وغيرهم . فاجتمع العلماء والقضاة بدار السّعادة [أي المقرّ الرسمي للنائب **] ، وادُعي عليه عند القاضي المالكي . فأنكر أن يكون قال شيئاً من ذلك . فتوقف المالكي توقفاً زائداً . فقُدِّر أنهم استدرجوا ابن مكي حتى اعترف وأقرّ ، ظناً منه أن ذلك ينفعه . ثم أتى بكلمتي الشهادتيَن . فسُئل المالكي حينئذٍ الحكم بكفره وإراقة دمه ، فقال : حتى تُفتوا بزندقته بما وقع منه . فأفتى بذلك المالكيّة وبعض الشافعيّة . فلما رأى ابن مكي الجَدّ رجع وقال كلاماً لم يُسمع منه ولم يُلتفت إليه . ثم حكم القاضي المالكي بكفره وإراقة دمه وإن تاب . بعد أن استخار الله تعالى . وجعل حكمَه مُقيّداً بشرطيَن ، أحدهما ألاّ يكون سبقه حكم بإسلامه ، الثاني أن يُنفِذ القضاة حكمه ويوافقه الحنبلي . فحكم الحنبلي أيضاً بزندقته وإراقة دمه ، ونفذه القاضيان . فأُخرج إلى تحت القلعة ، فضُربت عنقه . بعد أن صلّى ركعتين ، وأتى بكلمتي الشهادة [....] ولم يظهر منه خوف ولا جزع . نسأل الله العافية . وهو مشهور بالرفض . لكنه عالم في الأصول والقراءات وغير ذلك "** [3] .

الجمع بين الروايات

أول ما نلاحظه أن روايتي ابن مكّي والسّيّوري أغنى فيما يتعلّق بالأسباب الأُولى ، التي أدّت إلى وضع السُلطة يدها على القضيّة وبَدء إجراءات المحاكمة .

(3) تاريخ ابن قاضي شُهبة . تحقيق عدنان درويش . ط . دمشق ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية 1977 م : 1 / 134 - 35 .

في حين أن رواية ابن قاضي شُهبة أغنى وأدقّ فيما يتعلّق بإجراءات المُحاكمة نفسها . وليس في هذا ما يفاجئنا ، فهذا القبيل من النصوص خاضع لخبرات صاحبه، حيث يدخل عامل المكان . فأنّى لفقيه في "جزّين " أن يطّلع على ما يجري في " دمشق ". وأنّى لمؤرّخ دمشقي أن يعرف تفصيلات ما اضطرب فيه الشهيد في وطنِه .

يتفق المصدران الشيعيّان على وضع القسط الأكبر من المسؤوليّة في عنق قاضٍ شافعي يُسميانه "عبّاد بن جماعة " . فهو الذي بدأ الحملة على الشهيد ، وهوالذي رتب ما جريّات المحاكمة ، بحيث صدر الحكم بقتله . فمن هو عبّاد بن جماعة هذا ؟

الحقيقة أنه لا وجود لشخصٍ بهذا الاسم . وقد تتبّعنا كل المُنتمين إلى أُسرة بني جماعة ، الحمويّة الأصل ، نسبةً إلى مدينة " حماة " في شمال " سورية " ، فلم نقع على شخص منها بهذا الاسم . واتفاق المصدريَن المذكوريَن على الاسم الغلط ، يدلّ على أنه كان ذائعاً على ألسنة الناس المفجوعين بشيخهم في "جبل عامل" . وانسياق البتدّيني ، مُصنّف كتاب (نسيم السّحَر) ، والمقداد السيّوري ، وكلاهما من تلاميذ الشهيد ، مع هذا الغلط يدلّ على ضَعْف صِلتهم بما جرى على الشهيد في " دمشق " . وأنهما استفادا معلوماتهما من الأصداء التي كانت تصِل إليهما من بعيد . وهذا يُفسّر لنا سبب الاختلافات الكبيرة بين روايتيهما ، مع أنه ما من شكّ أبداً في سلامة قصدهما وبراءة نواياهما. الأمر يرجع، بكل بساطة، إلى مَن صادف أن أدار كلّ من الاثنيَن أذُنه إليه ، وأيضاً إلى شخصيّة كلّ منهما. وليعتبر القارئ العبارة الأخيرة إشارةً أقرب إلى الصّراحة إلى بساطة تفكير البتدّيني.ونقداً ضمنياً لكلّ الخيالات غير المعقولة في نصّه.

مهما يكُن، فإننا بالتنقيب في المصادر المُعاصِرة، وخصوصاً في كتاب(الثغر البسّام في ذكر مَن ولي قضاء الشام) لابن طولون الصالحي(ت: 953 هـ/1546 م) ، عرفنا أن الهيئة القضائيّة التي نظرت في قضيّة الشهيد وأصدرت الحكم عليه تألّفت من:

ـ القاضي الشافعي : برهان الدين إبراهيم بن جماعة الكناني. الذي ولي قضاء الشافعيّة في "دمشق" من السنة 785 هـ / 1383م، حتى السنة 789 هـ / 1387 م[4].

ـ القاضي المالكي : علم الدين محمد بن محمد بن محمد الدمشقي . وقد ولي القضاء فيها بين السنتين 779 هـ / 1377 م ، حتى السنة 789 هـ / 1387 م [5] .

ـ القاضي الحنبلي : محمد بن حسن بن قاضي الجبل . ولي القضاء فيها من السنة 767 هـ / 1365 م . ومات وهو قاضٍ سنة 771 هـ / 1396 م [6] .

هذا ، ولم نعرف سبباً لغياب أو تغييب القاضي الحنفي عن هذه الهيئة . وقد كان في ذلك الأوان أحمد بن إسماعيل ابن الكِشك . ولي القضاء فيها بين السنتين 777 ـ 790 هـ / 1375ـ 1388 م [7] .

وإننا ، بعد التأكيد على التساؤل عن سبب غياب أو تغييب القاضي الحنفي عن الهيئة ، نقول :

ـ أولاً : من الثابت والمعلوم أن النظام القضائي كان ، في ذك الأوان ، خاضعاً خضوعاً كاملاً للسُلطة . أي أن القاضي لم يكُن مُمتّعاً بأي حصانة ، ممّا نعرفه في أيامنا . وكان تعيينه وعزله يتمّان بناء على أمر مباشِر من السلطان . والويل كلّ الويل للقاضي الذي لا يُحسن إثبات ولائه المُطلق له .

ـ ثانياً : من المعلوم أيضاً أنه منذ الظاهر بيبرس (658 ـ 676 هـ/ 1259 ـ 1277م) ذلك الداهية الذي وضع الأسُس النظريّة لدولة المماليك ، ـ انفصل القضاء بحسب المذاهب المُعترَف بها . وكان كلّ قاضٍ يختصّ بالنظر في شؤون وخصومات أبناء مذهبه لا يعدوها . ولم يكُن القضاة يتشكّلون ، أو بالأحرى يُشكّلون ،

---

(4) ابن طولون :الثغر البسّام في من ولي قضاء الشام (ط . باسم : قضاة دمشق) . تحقيق صلاح الدين المنجّد، ط. دمشق. مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1956 م / 112 ـ 14.

(5) نفسه / 249 . (6) أيضاً / 284 .

(7) أيضاً / 202 .

بهيئةٍ جامعة إلا بأمرٍ من السُلطة العُليا ، ولأمر جَلَل تحتاج السُلطة فيه إلى غطاء شرعي قوي مبنيّ على إجماع ذوي الشـأن .

ولنتدبّر هاهنا في نص ابن قاضي شُهبة قوله : " **فاجتمع العلماء والقضاة** " [3] . أي أن الهيئة لم تقتصِر على الفقهاء الرسميين ، بل أُضيف إليهم آخرون من غيرهم . ممّا يدلّ على أن السُلطة كانت تسعى إلى الحصول على أقوى قرارٍ مُمكن . وهذا أمر نادر جداً . والحقيقة أنني ، بعـد طول البحث ، لم أعثر على واقعة مماثلة .

ـ ثالثاً : إن اجتماع الهيئة تمّ في " دار السعادة " ، كما صرّح ابن قاضي شُهبة [3] . المقرّ الرسمي لنائب السلطان في " الشام " . وهي بمثابة القصر الرئاسي في أي عاصمة . ومن هنا نعرف أن الاجتماع كان بمبادرة من النائب نفسه . الذي يملك وحده الحق في الدعوة إلى قصره . وهذا واضح .

إذن ، نحن هنا أمام قضيّة سياسيّة كُبرى ، تعاملت معها السُلطة على أعلى مُستوى . وأكاد أقول ، على مُستوى السُلطان نفسه . لولا أن النصوص تعول عن هذا . لأن المخابرات بين السلطان ونائبه تبقى شخصيّة ، وبالتالي طيّ الكتمان . ولكن ، من الجهة الأخرى ، فإننا نعرف جيّداً ، أن عملاً يُعَدّ له هذا الإعداد الدقيق ، ليس من المعقول أن يجرؤ نائبه في "دمشق" على التفرّد به .

على أن هذا الاستنتاج لاينفي إطلاقاً ماتنسبه المصادر الشيعيّة من دورٍ كبير للقاضي الشافعي في تدبير نتيجة مُهلكة للشهيد. ها هنا اختلاف في المُستوى : القرار اتُخِذ من قِبَل السُلطة السياسيّة.أمّا آليّة المُحاكمَة فقد تولاّها القاضي الشافعي . وربما في هذا السّياق جرى استبعاد القاضي الحنفي . وعلى كلّ حال فإن المصادر تُزوّدنا بمادّة إضافيّة ، في الغاية من الأهميّة عن القُضاة الثلاثة الذين أصدروا الحكم .

القاضي الشافعي ، الذي تقول المصادر الشيعيّة ، بلسان أو بآخَر ، وبحقّ فيما يبدو ، أنه كان لا يكتم عداءه للشهيد ، ـ كان رجلاً جبّاراً بطّاشاً . قال فيه مُعاصِره ابن حجر العسقلاني : " **وكان بلغه أن بعض فقهـاء البلد غضّ منه بأنه قليـل**

العلم ، ولا سيّما بالنسبة للذي عُزِل به ، وهو أبو البقاء ، فأحضر بعض مَن قال ذلك ونكل به . ثم أوقع بآخَر ، ثم بآخَر" [8] . إلى غير ذلك . وممّا تجدُر بنا ملاحظته هنا أن هذا القاضي ، الذي وُلِد ودرس وولي القضاء وغيره من الوظائف في " مصر" ، . قد وُلّي على قضاء " الشام " قبل أشهُرٍ قليلة من بدء إجراءات المحاكمة . ولم يلبث في منصبه هذا إلا نحو سنة [9] . ممّا يبعث على الريب ، في أنه إنما جيء به لغرض مُحدّد ، بينما كان الشهيد قيد السجن تُدبّرله التدابير . فلما قضاه أُعيد إلى حيث كان . وليس ذاك الغرض إلا إدارة مُحاكمة الشهيد ، بحيث تؤدّي إلى ما أدّت إليه .

أمّا القاضي المالكي ، الذي يقول ابن قاضي شُهبة أنه ادُعي على الشهيد عنده ، فقد وُصف بأنه " **كانت له عناية بالعلم . مع قصور فهم ونقص عقل** " [10] .

وأمّا الحنبلي ، الذي حكم بزندقة الشهيد وإراقة دمه . وعلى حكمه هذا استند المالكي في حكمه النهائي ، فقد وُصِف بأنه " عنده مُداراة وحبّ للمنصب " [11] .

هذه هيئة أنموذجيّة للغرض الذي يُراد منها ، جرى تشكيلها بدهاءٍ كبير . بحيث جاء على رأسها قاضٍ لا يتورّع عن البطش والتنكيل . كما عُرِف بعدائه الشديد للشهيد . إلى جنبه اثنان أحدهما قاصر الفهم ناقص العقل . والثاني عنده مُداراة وحبّ للمنصب . إذن ، فما من عجب في أن يُسيّرهما الشافعي كيف يشاء . أولهما عن طريق صفاته الشخصيّة . والثاني عن طريق " مُداراته " للسُلطة طبعاً وحبّه للمنصب . كما أن علينا أن نُلاحظ هنا أمراً يبدو لأول وهلة أنه غير ذي بال ، هو أن إجــراءات

---

(8) الدُرر الكامنة : 1 / 39 .
(9) قضاة دمشق / 113 .
(10) نفسه / 249 .
(11) أيضاً / 286 .

المُحاكمة بدأت بالادعاء على الشهيد عند القاضي المالكي. مع أن الشافعي هو أعلى القُضاة رُتبةً، كما هو معلوم. والمقصود من هذا ، فيما يبدو لنا ، أحد أمرين أو كلاهما:

ـ إمّا إظهار حياده وسلامة طويّته . والحقيقة التي ينبغي مُلاحظتها هنا ، أن دوره لم يظهر إلاّ بعد أن قطعت الإجراءات شوطاً باتجاه الإدانة . " **فاستغلطه ابن جماعة لعنه الله ، وقال : استغفرتَ فثبت الذنب** " ، على حدّ رواية السّيّوري . الأمر الذي أشار إليه ابن قاضي شُهبة أيضاً ، مع إغفال الفاعل ، فقال : " **فقـُـدّر أنهم استدرجوا ابن مكـّي حتى اعـترف** " .

ـ وإمّا لأن المالكي لا يقبل توبة المُرتدّ ، خلافاً للشافعي .

هذا كلّه فيما يرجع إلـى الوقائع .

2 ـ الأقوال والمُزاوجة بينـها

ونعني بـ " الأقوال" ما سجّلته مُختلف المصادر، ممّا أُخذ على الشهيد أثناء المُحاكمة . ثم بُني الحكمُ عليها .

باستعراض المصادر التي بين يدينا ، سجّلنا الأقوال التالية :

1 ـ محمد بن محمد الجزري(ت:833 هـ / 1429م):"أنه قامت عليه البيّنة بآرائه" "[12].

2 ـ ابن قاضي شُهبة (ت : 851 هـ / 1447 م) :" **كان له في السجن مُدّة . وأُثبِت في حقّه محضَرٌ عند قاضي بيروت ، يتضمّن رفضه وإطلاقه في عائشة وأبيها وعمر رضي الله عنـهم عبارات مُنكَرَة بل مُكفّرة** " [13] .

3 . ابن حجر العسقلاني (ت : 852 هـ / 1448 م) : " **قُتل محمد بن مكـّي الرافضي بدمشـق ، بسـبب ما شُهد عليه من الانحلال واعتقاد مذهـب النصيريّة واسـتحلال**

---

(12) غاية النهاية : 2 / 265 .

(13) تاريخ ابن قاضي شهبة : 1 / 134 .

الخمر الصّرف ، وغير ذلك من القبائح " [14] .

4 ـ ابن العماد الحنبلي(ت: 1089 هـ / 1678 م) : " **فشُهِد عليه بدمشق بانحلال العقيدة ، وإعتقاد مذهب النصيريّة ، واستحلال الخمر الصّرف ، وغير ذلك من القبائح**" [15] .

من الواضح أن نصّ ابن العماد منسوخ نسخاً عن العسقلاني . وإنما أثبتناه لأنه بيّن أن معنى " الانحلال " بأنه " انحلال العقيدة " .

من الممكن ، طبعاً ، أن تتداخل هذه الأسباب . فتكون ، أو بعضها ، وجوهاً لمقصود واحد . ولكنها حتى في وضعها هذا تعكس لنا الزاوية التي أُتيح أو اختار المؤرّخ أن ينظر منها إلى الواقعة . وعلى كل حال ، فإننا سنترك تحليل النصوص يجلو لنا الأمور .

الرفض كسبب للحكم ذكره ابن قاضي شُهبة والعسقلاني . لكن الأول أضاف إليه : " **إطلاقُه في عائشة وأبيها وعمر رضي الله عنهم عبارات مُنكرَة** " . في حين أضاف العسقلاني : "**الانحلال واعتقاد مذهب النصيريّة واستحلال الخمر الصّرف وغير ذلك من القبائح** " .

ومن المعلوم أن الشهيد قد وُصف بالرفض في غير مصدرٍ من المصادر غير الشيعيّة ، في غير معرض الكلام على سبب قتله . وعلى كل حال ، فإن تشيّعه لم يكُن خفيّاً في "دمشق " على أحد . مع أنه كان يصِف نفسه بـ " الشافعي " . وقد أشار صاحبه الجزري إلى ذلك إشارةً في غاية الوضوح .

ونُرجّح أن "**إطلاقه في عائشة وأبيها وعمر** " ، أي بالسّبّ، هي إضافة من عند ابن قاضي شُهبة. بشهادة أننا لا نعثرعلى أدنى إشارة إلى شئ من ذلك لدى العسقلاني ، كما تابعه عليه ابن العماد الحنبلي. وما من شك في أن رجلاً كالشهيد لايمكن أن

(14) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ، ط. القاهرة 1389 هـ/ 1969 : 1 / 200 .

(15) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ط. بيروت المكتب التجاري لات : 6 / 294 .

يهبط إلى هذا المستوى . وهو الذي عمل بجِدّ على بناء صلاتٍ طيّبة بالمراكز العلميّة السُنيّة في المنطقة . وقرأ وحمل عن كثير من علمائها ومُحدّثيها . وظلّ حتى أواخر عمره يُقيم مُدداً في "دمشق " . حيث كسب لنفسه مقاماً علميّاً ممتازاً وتقديراً عامّـاً .
ونُذكّر هنا بشهادة الجزري ، التي قال فيها : " **صحبني [كذا !] مُدّة مديدة . فلم أسمع منه ما يُخالف السُنّة** ". وهذا يدلنا على دقّته وانبساطيّته وتحاشيه الاستفزاز. وهو العارف الخبير بما هو كامن في النفوس . حتى أنه وهو يخُطّ كتابه (اللُمعة الدمشقيّة) كان يحرص كلّ الحرص على أن لا يطّلع عليه أحد .

رجلٌ كهذا لا يمكن أن يلجأ إلى النّيل والسبّ. وعلى كل حال ، فلماذا يفعل ؟ ! وهو الذي سخّر كل ما لديه لقضيّة شعبه المأزوم . وكان في أمسّ الحاجة للعمل بسلام في سبيل بنائه من جديد .

نصِل في نهاية هذا المطاف إلى ما نراه أصدق قيلاً ، من حيث أنه يُعبّر بدقّة عن الاتهام الذي وُجّه إليه بالفعل في بداية إجراءات المحاكمة . وهو انحلال العقيدة ، واعتقاد مذهب النصيريّة ، واستحلال الخمر الصّرف .

من الواضح أن انحلال العقيدة هو معنى غير مُحدّد . لا يُمكن أن يُفهَم إلا من خلال "**اعتقاد مذهب النصيريّة واستحلال الخمرالصّرف** ". وسنُقدّم بعد قليل نظريةً لمغزى هذه التُّهم .

لكن ما يُلفتُ نظرنا هنا هو تناسق هذه الاتهامات وتلازمها . انحلال العقيدة = اعتقاد مذهب النصيريّة ، و استحلال الخمر الصّرف . وليس . مثلاً . شُرب .... . ، باعتبار أنّ الاستحلال مخالفةٌ لضروريّةٍ من ضروريات الإسلام موجب للكفر . هذا أمر لايمكن أن يحدث عفواً . بل إنه ليس من عمل هُواة . لهذا فإنني أميل بقوّة إلى القول بأن ما سجّله العسقلاني ، ثم أخـذه الحنبلي أَخْذَ قابلٍ به ، هو صـدىً أمين لِما بدأت بـه المحاكمة . نظّمه تحالفُ السُـلطة وفقهائها . يؤيّد ذلك ما تذكـره بعض المصادر الشيعيّة ، من أنه أُخذت عليه " **مقالات شـنيعة عند العامّـة ، من مقالات الشيعة**

وغيرهم [16] ، وخصوصاً " **غيرهم** " .

يُضافُ إلى كل ذلك قول الجزري أنه " **قامت عليه البيّنة بآرائه** " . وهذه إشارة واضحة على أن المحاكمة كانت على مسائل فكريّة . ولسنا ندري لماذا سكت الجزريُّ عن هذه " **الآراء** ". ولعلّه آثر هذه الإشارة السريعة مُحافظةً على ذكرى صديقه . فلا يذكر الاتهامات الوقحة التي وُجّهت إليه . وهو الذي لم يُخفِ مرارته لقتله واعتقاده الضمني ببراءته .

لكن هذا يطرح سؤالاً :

تُرى لماذا اختار تحالفُ السُلطة وفقهائها هذه الاتهامات بالذات ؟ من المُهمّ جداً الجواب عن هذا التساؤل لأنّه قد يقودنا إلى بعض المُحرّكات الخفيّة لها .

أميلُ إلى الاعتقاد بأن الجواب يكمنُ في مدى حركة الشهيد . لقد سبقتْ منّا الإشارةُ إلى أن السُلطة حرصت ، في الوقت نفسه الذي قتلت فيه الشهيد بـ "دمشق"، على أن تقتل في "طرابلس" رجلاً سمّته (عرفه) . وُصِف بأنه " **رفيقه [.....]** ، وأنّه " **كان على مُعتقده** " [17] . يعني مُعتقد الشهيد . ومُعتقد الشهيد في سياق النص هو النصيريّة . إذن ، فكل شئ يوحي بأن (عرفه) هذا هو ممّن تُسمّيهم السُلطة وفقهائها نُصيريّة . وأنّ الشهيد قد مدّ نشاطَه لينظم العلويين ، الذين كانوا وما يزالون منتشرين في نواحي " طرابلس " . مُستفيداً من الصلة التاريخيّة بينهم وبين الشيعة الإماميّة . بل من أنهم منهم دون أدنى ريب . ومن حاجة الطرفين لتجميع قواهم في مقابل السُلطة المملوكيّة . وكل شئ يدلّ على أنها قد عمدت إلى أن تقتل (عرفه) هذا في بلده "طرابلس" ليكون قتله بمثابة رسالة مُعمّدة بالدم إلى قومه ، تُنذرهم بأن يخلدوا إلى السكينة ويلزموا الهدوء .

---

(16) أمل الآمل : 1 / 182 .

(17) انظر مرجع الهامش رقم 32 في الفصل الرابع .

لكنني بالنسبة إلى هذه النقطة بالذات ، أشعر بأنها تُخفي أكثر بكثير ممّا استظهرنا منها . وأننا مع هذا التحليل الدقيق لم نفتح أسرارها .

من هو (عرفه) هذا ؟ من المؤكّد أن اسمه ليس مقطوعاً هكذا . فهو حتما من أب وعائلة وينتسب إلى بلد ، شأن كل الناس . فلماذا اقتصر ذكره على مُجرّد اسمه ؟ ما كان دوره حقاً ؟ لا مِراء في أنه كان ذا حضور وأثر مُميّزَين ليُقتل مع قتلة شيخه . أو ، على حدّ تعبير العسقلاني ، " **رفيقه** " .

أسئلة لا نملك عليها جواباً . وإنما نطرحها لكي تبقى حيّة برسم مَن بعدنا . عسى أن يُتاح لهم من المعلومات وأدوات البحث ما لم يقع تحت يدنا .

هكذا نصِل إلى واحدة من أهمّ مفاتيح قضيّة الشهيد . الفقيه والعالِم الكبير . مالئ الدنيا وشاغل الناس في زمانه وإلى يومنا هذا . الذي حمل بكامل الجدارة عبْءَ أزمة شعبه التاريخيّة . ونجح رغم كل الصعاب في بناء نهضته . ومع ذلك . ويا للمفارقة المَهولة . فإنه قُتل بتهمة الارتداد . تحت شعار " **اعتقاد مذهب النصيريّة واستحلال الخمر الصّرف** " .

لقد أرادت السُلطة بجريمتها الغبيّة أن تُسكتَ الشهيد وأن تُعيدَ عقاربَ الساعة إلى الوراء . ولكن هيهات . لقد خطا ببلده وقومه الخطوة التي لا عودة عنها : أسّس لحركة علميّة مُستقلّة ، مُتصلة بأعماق الثقافة الخاصّة . بدأت فوراً تُعيد إنتاج نفسها ، بإنتاج مُثقفين مُنتمين / عضويين. اتجهوا فوراً إلى العمل في مُختلف الميادين الفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة . ومنحَ البُنية الثقافيّة المحليّة ، التي كانت في حالة تحفزّ لاستعادة الذاتيّة، فكرها السياسي الخاص بها . فزوّدها برؤية . ووضع أمامها هدفاً ، وإن يكُن بعيداً . وبذلك أغلق إلى الأبد الهُوّة التي ظلّت فاغرةً زهاء الخمسة قرون من الاستلاب والعجز عن الانطلاق . ولم يعُد في طوْق أحد أن ينتزع منها هذا المكسب التاريخي .

سيُسجّل التاريخ أن "جبل عامل" اجتاز مأزقه التاريخي بفضل بطلٍ فردٍ من أبنائه.

بالإعداد الدقيق ، والتخطيط الذكي ، والعمل الدائب في أكثر من ميدان دفعةً واحدة ، وبالمُداراة ، وبناء العلاقات الإيجابيّة تحت أصعب الظروف وأقساها . وما عتّمت هذه البقعة ، التي لم تكُن من قبلُ شيئاً مذكورا ، أن غدت ، بفضله وبفضل تلاميذه من بعده ، وطناً لصفحة جديدة تماماً من التاريخ الثقافي لوطنه . وباباً مُشرَعاً نحو النهضة . هي ، في بعض وجوهها ، استمرار لمرحلة سابقة . يتجلّى هذا الاستمرار في وحدة كيان شدّت عُراه الوحدة التاريخيّة الثقافيّة . المأزومة بالاحتلال الأجنبي وكل مانتج عنه . وكان من فضل الشـهيد وتلاميذه من بعده ، أن أغنى ذلك الشعور العميق بالوحدة . فغدا على يده وأيديهم مشروعاً ، بعد أن كان تراثاً مأزوماً .

وممّا يجدُر بنا التنويه به دائماً ، أن الصيت البعيد الذي يتمتّع به الشهيد حتى اليوم ، بين الناس في "جبل عامل" ، ما هو إلا صدىً يخترقُ القرون ، عن الوشيجة المتينة بين البطل وبين شعبه المُطوّق بفضله . وهو بذلك يعكس فهمَ الناس الصادق والعميق لإنجازاته . بأفضل ممّا تعكسه التسجيلات الهزيلة التي كتبها مثقفون ، ومنهم بعض تلاميذه .

خلاصة الفصل

لا مِراء في أن واقعة قتل الشهيد ، في رحبة أو تحت القلعة بـ " دمشق " ، بوصفها حَدَثاً حصل في زمان ومكان معلومين ، هي أشبه بجبل ثلج غارقٍ في الماء ، لايظهر منه للناظر إلا جزء ضئيل . في حين يحجب الماء القسم الأكبر منه عن الأنظار . ما رآه الراؤن منها هو الإجراءات العلنيّة للمحاكمة ، كما جرت في مقرّ نائب السلطان ، ثم واقعة القتل والتمثيل بالجثمان الطاهر.

ما من ريب في أن هذا الجزء المَرئي هو نتيجة لِما جرى تحضيره سِبقاً وسلفاً على يد تفاهم السُلطة وفقهائها . وتولّى إدارته القاضي الشافعي برهان الدين إبراهيم بن جماعة الكناني . الذي جرى نقله من "مصر" إلى " دمشق " لهذا الغرض ، حينما كان الشهيد قِيدَ الحبس . بينما شُكّلت هيئة المحاكمة من قاضيين أخريَن ، هما الحنفي والمالكي . اللذان عُرفا بضعفهما . بالإضافة إلى جَمْع غير معروف العدد والأسماء من فقهاء المدينة . واستُبعد عنها القاضي الحنفي ، خلافاً للأصول المَرعيّة ، لأسبابٍ غير معروفة . وإن كنّا لا نشكّ في أنها لمصلحة استصدار الحكم المُهيّأ سلفاً على الشهيد . والذي لم يكن بحاجة إلى أكثر من تظهير . ومن هنا نُسجّل للمصادر الشيعيّة مراقبتها الدقيقة لِما يجري ، رغم بُعدها عن مُضطرَب الأحداث . وذلك إذ أجمعت على وضع القسط الأساسي من مسؤوليّة الجريمة على عاتق ابن جماعة دون سواه . مع أن مَن سجّلوا لنا ذلك لم يكونوا يعرفون اسمه . ونحن نرى في هذا، خلافاً لِما قد يبدو للوهلة الأولى ، نقطةً إيجابيّة . لأنها تدلّ على أنهم كانوا أكثر اهتماماً بما يفعل . وليس بمَن هو .

يبدو أن تفاهم / تحالف السُلطة وفقهائها ، بعد أن تمّ له ما أراد ، قد انهمك في الإعفاء على آثار ما ارتكبه . وهذا أمر طبيعي ومُتوقّع . فمن ارتكب ما رتكبوه سيكون

أكبر همّه أن ينجو من مغبّة ما فعل . قرأنا ذلك في أمرين :

ـ الأول : فيما سجّله محمد مكّي ، ببراءة تامّة ودون أن يقصد طبعاً ، من وقائع خياليّة من سيرة الشهيد وكيفيّة قتله . حيث يؤكّد على أن السُلطة كانت دائماً في جانبه ، تُناصره وتُعاضده وتحميه . وأن المسؤول عن قتله هي جماعة مُضلّلة هائجة مجهولة . وأن رأس السُلطة غضب أشدّ الغضب لِما جرى ، وأوقع العقاب بالفاعلين . وهذا يعني ضمناً أنه لم يكُن هناك مُحاكمة ولا مِن يُحاكِمون . وما من ريب في أن هذا المشهَد (السيناريو) العجيب لم يكُن من بُنات أفكار محمد مكّي الذي اختصر (نسيم السّحَر) أو البتديني مُصنّفه . وإنما التقطه هذا من الأفواه وسجّله ، بعد أن نشرته أجهزة السُلطة ، دون أن يلتفت إلى مغزاه الحقيقي .

ـ الثاني : أن السُلطة حرصت على أن تقتل علناً في " طرابلس " في الوقت نفسه رجلاً اسمه (عرفه) ، كلّ شئ يدلّ على أنه من الشيعة العلويين . وذلك بذريعة أنه من أعوان الشهيد . فإذا نحن جمعنا بين هذا ، وبين ما هو ثابت من أن محاكمته قد جرت على قاعدة اتهامه بالارتداد . أي عمليّاً ، بحسب قولها " اعتقاد مذهب النصيريّة واستحلال الخمر الصّرف " . ـ نكتشف أن الإعداد لِما بعد الجريمة كان يجـري أثناء المحاكمة وبعـد ارتكابها فـوراً .

الفصل السابع

" أمّا ما ينفعُ الناس فيمكثُ في الأرض"

(صدق الله العظيم)

ماذا مكث من أعمال الشهيد ؟

- تمهيد

1 . المشهد في " جبل عامل " قبل الشهيد .

2 . المشهد نفسه بعد الشهيد .

التأسيس العملاني لسُلطة الفقيه

خلاصة الفصل

تمهيد

نرمي في هذا الفصل إلى مُعالجة أمرٍ نراه ذروة البحث ، وأحد أهمّ إشكاليّاته ، إن لم يكُن أهمها على الإطلاق . وهو على كلّ حال ثمرة ما وصلنا إليه في فصوله الستة السابقة . هو : ما الذي بقي حتى الآن من أعمال الشهيد ؟ وقد اقتبسنا كلمة " مكث " في عنوانه من قوله تعالى : "وأمّا الزبد فيذهب جُفاءً وامّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" (الرعد / 19) .

قُتِل ابن مكّي . وعلى الأثر أطلق الناس عليه في " جبل عامل " ، بمبادرةٍ حُرّة منهم ، لقب " الشهيد " على الإطلاق . وهذا أمر قد يبدو طبيعياً جِداً أزاء ميتته النضاليّة. وهو كذلك بالتأكيد. ومع ذلك فإننا نرى أنّ في الأمر ما يستحقّ التأمّل ، خصوصاً وأنّه وشعبُه ينتمون إلى مذهب لا يشكو أبداً من نُدرة الشهداء .

وأول ما يخطرُ لنا على بال ، ونحن نتأمّل في هذه البادرة الشعبيّة الذكيّة والبديهيّة ، أنها أتت جزاءً وفاقاً من شعبه ، الذي طوّق عنقه ، إذ نقله من وضع الأزمة المُستحكمة ، إلى وضع النهضة المفتوحة على المُستقبَل . وقد صنّفنا كتابَنا (جبل عامل بين الشهيدين) لوصف هذه الحركة من الماضي وأثقاله ، نحو المستقبل وإنجازاته .

لكن علينا هنا أن نُلاحظ أمراً . هو أن الشهيد ومعاصريه لم يروا النهضة كما أزهرت وأثمرت من بعده . الحقيقة أنه زرع النهضة . أطلق تفاعلاً مُتسلسلاً أدّى إليها . وكان من حُسْن التوفيق أن وُجد من تلاميذه مَن رعى زرْعه . وعلى يد هؤلاء أصبحت شجرة مُثمرة ، ما نزال نتفيّأ ظلالها ونجني طيّب ثمارها .

إذن ، فعندما توّجه الجمهور بذلك اللقب ، كان يُعبّر عن شكل من أشكال الإدراك الأوْلي ، أي الذي يرى ما تأول إليه الأمور . وهذا ليس غريباً على العقل

الجَمْعي . الذي قد يُرى أدنى من مُستوى التحليل والتركيب . مُفتقراً إلى القُدرة التي يملكها الباحث المُتمرّس على تركيب المعلومات تركيباً منطقيّاً . عاجزاً عن التعبير عنها بكلمات مُنمّقة مدروسة بعناية . ولكنه مع ذلك يتجه مُباشَرةً إلى غرضه ، فيُعبّر بموقف أو حتى بكلمة ، كما هنا ، عمّا يقتضي من الباحث صفحاتٍ وصفحاتٍ من الكلام المُستند إلى البحث والتنقيب والتركيب والصياغة . هذه المقدرة التي عبّر عنها المأثور : (ألسنةُ الخلق أقلامُ الحق)

على أن هذا لا يعني أبداً أن العقل الجَمْعي معصوم في هذا النطاق . كلاّ بل ربما وقع في الخطأ . وأبرز مِثال على ذلك حيث يجري التلاعب بوُجدانه . إذ ذاك ربما منح ولاءَه وضميرَه لغير مَن يستحقّه. ولهذا في تاريخنا وتاريخ غيرنا أمثالٌ كثيرة .

غايتنا في هذا الفصل أن نلتحق بتلك المُبادرة الجَمْعيّة . ابتغاءَ نقلها من مُستوى الفعل العفوي ، المُستند إلى إدراك آني ، نفتقر إليه الآن لبُعدنا عن ظرفه الزماني ، . إلى مُستوى المنهج الذي يعمل عليه المؤرّخ . وهذا يُشبه ، على مُستوى درجة الإدراك ، الانتقال من التصوّر إلى التصديق ، كما يقول المنطق الأرسطي . حيث الفارق شاسع ، سِعتَه مابين العلم والجهل .

هذا يقتضي أن نسعى إلى معرفة ما كان قبل الشهيد ، خصوصاً في وطنه . لنُقيم على ذلك ما قد عرفناه من أعماله . وبالمقارنة بين ما كان وما هو كائن يُمكننا أن نكتشف الحركة . بل وأن نُتابع تداعيات إنجازه الكبير والأساسي ، أعني إطلاق النهضة في " جبل عامل " ، على نطاق العالَم الشيعي . وبهذا نكتشف أيضاً علّة جانبٍ ممّا للشهيد من حضور مُميّز في التاريخ الثقافي الشيعي .

إذن ، فإن أمامنا في هذا الفصلان مُهمّتان رئيستان :

ــ الأولى : تأثيره الباقي في وطنه .

ــ الثاني : وعَبْر ذلك تأثيره الباقي في عالَم التشيّع الإمامي إجمالاً .

1 ـ المشهد في " جبل عامل " قبل الشهيد .

عرفنا ممّا فات أن "جبل عامل " قـد رزح تحت الاحتلال الصليبي زُهاء القرنين من الزمان . بل أن الاحتلال قد رافقه منذ لحظة نشاته ، أي منذ أن تشكّل سُكّانيّاً بعد أن كان في حالةٍ تُشبه الفراغ ، في أوائل القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد ، من مِزَق الجماعات التي كانت تنزل وادي "الأردنّ " ومن بعض أجـزاء " فلسطين" ومدينة " صور" وما والاها . أثناء ليل ذلك الاحتلال الطويل كان أبناؤه مقطوعين انقطاعاً تامّاً عن كل مصادر المعرفة ، التي لا غنى لشعـبٍ عنها ،كيما يُتابع آليّة النّقل الثقافي الطبيعيّة من جيل إلى جيل .

هذا الوصف يطرحِ سؤالين .

ـ الأول : ما كانت هُويّة أولئك النازحين المذهبيّة ؟ هل كانوا من الشيعة ؟

ـ الثاني : ماذا حصل لثقافتهم الذاتيّة ، أيّاً كانت ، أثناء سنوات الاحتلال الطوال ؟

ونحن إنما نطرح السؤالين ليس لأننا نملك الجواب عليهما ، على نحو مؤكّد منصوص عليه . بل لأنه لابُدّ لنا من طرحهما لحاجة البحث إليهما . فضلاً عن أننا نملك مُؤشّراتٍ وإيماءاتٍ ، نرجو أن تُساعدنا في طريق الوصول إلى ما نروم .

بالنسبة للسؤال الأول نقول :

ما من ريب في أن أكثر أولئك النازحين ، على الأقلّ ، من نُزّال "جبل عامل" ، كانوا من الشيعة بدليل :

1 . أننا نعلم علم اليقين ، أن أوسع المناطق عُمراناً وأكثرها سُكّاناً في " وادي الأردنّ " الخصيب ، أعني مدينة "طبريّة " ، فضلاً عن عشـرات القرُى والمزارع المُطيفة ببحيرتها العذبة ، كانوا جميعاً من الشيعة[1]، بالإضافة إلى أهل "صور" ونطاقِها الواسع.

(١) للتوسّع والتوثيق انظر مرجع الهامش رقم (3) من الفصل الأول .

ويبدو أن هؤلاء كانوا مادّة النازحين الأساسيّة . لأنهم الأقرب من " جبل عامل " .

2 . أننا نعلم أيضاً أنه ما إن بدأ انجلاء ليل الاحتلال ، حتى رأينا نُخبةً مُختارةٍ من أبناء الجبل تنفر إلى "الحلّة " . ليتفقهوا في الدين . ثم ليرجعوا إلى قومهم [2] . ولم نشهد أحداً من غير الشيعة ، في ذلك الزمان والمكان ، قد فعل ذلك أو ما يُشبهه . فهذا دليل على أن عامّة "جبل عامل" في ذلك الأوان كانوا من الشيعة . ثم أنه ما من ريب في أنهم لم يكتسبوا التشيّع اكتساباً بينما كانوا تحت الاحتلال . بداهة أن أمراً كهذا لا يمكن أن يحدث بنفسه . أعني دون دعوة ودُعاة . وأنّى لأولئك المساكين ، فيما كان لهم من حياة زريّة ، أن يفرغوا أو يُتفرّغ لهم .

فهذا دليل على أن أولئك كانوا أصلاً من الشيعة الإماميّة .

أمّا بالنسبة للسؤال الثاني .

فنحن نعرف من قواعد التاريخ والاجتماع البشري، أن قوماً يقعون ضحيّة انقطاع باتٍ مُفاجئ ، لايمكن أن يبقوا على الحال التي كانوا عليها في أوقات الأمن والسلامة . والقطع مع الوطن هو أقسى أشكال القطع وأكثرها مضاءً . فالوطن ليس مُجرّد الأرض التي صادف أن عاش الناس عليها . بل إنه خزّان الذاكرة ومزرعة المستقبل . وعندما ينقطع أهله عنه . فكأنهم ، بل إنهم ينقطعون بالفعل عن كل ما يتصل بماضيهم ، ومنه ثقافتهم الخاصة وعناصر هُويّتهم أمام أنفسهم .

هكذا فعندما اضطُرّ أولئك الناس إلى ترك أوطانهم في "الأردنّ" و "فلسطين" ، واللجؤ إلى "جبل عامل " ، لم يكونوا يُفكّرون بغير النجاء بحياتهم من سيوف الغُزاة الصليبيين. أمّا الغُزاة أنفسهم ، الذين لحقوا بهم إلى موطنهم الجديد ، فقد كانوا يسعون للحصول على مَن يعمل لهم ، ويُنتج لهم حاجات مُجتمعهم الجديد . بعد أن تخلّوا عن

---

(٢) هؤلاء هم رُوّاد النهضة قبل الشهيد . وقد أحصيناهم ، وذكرنا ما نعرف عن كل واحد منهم في كتابنا (جبل عامل بين الشهيدين) / 68 ــ 104 .

التفكير التطهيري ، الذي كان سِمة أعمالهم العسكريّة الأولى . فجعلوا من البشر الذين يعيشون في القُرى والمزارع مُجرّد عبيد أرض (أقنان) . يملكهم عمليّاً مالك الأرض بحق الفتح . وعلى هذا النحو عاشت أجيال بعد أجيال من أهل "جبل عامل" . تحيا وتموت لغير ما هدف إلا منفعة المُحتلّ .

هكذا تأسّس على القطْع الأول مع الوطن بالنزوح القسري ، قطعٌ آخَر مُتمادٍ أكثر عُمقاً . هوذا مُجتمع يعيش دون أن يملك الحدّ الأدنى من مُقوّمات وأدوات النقل الثقافي بين الأجيال المُتعاقبة . الذي يتولاّه ويقوده المُثقّف المُنتمي . والمؤسسات الثقافيّة في المجتمعات المُتقدّمة .

مثل هذا، بل أقلّ منه بكثير ، حصل من قبل ومن بعد لمُجتمعات شيعيّة في " آذربايجان " و" كيليكية " و" الأناضول" وشرق " أوروبة " وجنوب " العراق " وسواحل "سوريّة " والتلال المُتاخمة لها . الجماعات الصفويّة الأولى في " أردبيل " ، وامتداداتها الكبيرة في " كيليكية " و "الأناضول " و" ألبانيا " ، سُكان منطقة " البطائح " في أهوار جنوب " العراق " ، الجماعات التي تُعرَف بالعلويين اليوم في " سوريّة " . هؤلاء كلهم في الأساس شيعة إماميّة . أدّى انقطاعهم عن الأتصال بالمراكز العلميّة إلى حصول اختراقات عميقة في البُنية الثقافيّة . قادت إلى خروجهم بدرجات مُتفاوتة عن الخط الكلامي ـ الفقهي للتشيّع الإمامي . وشيوع عقائد وسلوكيّات غريبة بينهم .

وإننا وإن كُنّا نفتقر إلى أدنى تصوّر لِما حصل لأهل " جبل عامل " أثناءَ فترة الانقطاع الطويلة . أي ما بين نزوحهم عن أوطانهم الأصليّة في أنحاء " الأردنّ " و " فلسطين " ، في أوائل القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد ، إلى بدء أعمال الشهيد بينهم في أواسط القرن الثامن / الرابع عشر . إلا أننا ما نشكّ أبداً في أن هذا الوضع قد ترك أثره المُتوقّع . ذلك أنه من غير المعقول أن تُحافظ هذه الجماعات المأزومة على كامل نقائها الفكري ـ السلوكي في غياب المُثقّف المُنتمي (هنا : الفقيه ، المُبلّغ ، المُرشِد) .

من هنا فإننا ننظر بكامل الجدّيّة إلى ما تقوله مُختلف المصادر، عن التأثير البالغ لمَن عارضوا الشهيد على البسطاء من الناس لمهارتهم في بعض الشعوذات المُسمّاة سحراً [3]. وأن الشهيد اضطر لدفع سحرهم بسحر مُقابل [4] . ويقول محمد بن فهد المكّي (ت: 871 هـ / 1467م) أن الشهيد أقام مُدّة في "الحويزة" [5] حاضرة "الأهواز " . وهي منطقة عُرفت بممارسة السحر والمخاريق . وعلى هذا بنى مصطفى كامل الشيبي فقال :"**ويبدو أن الشهيد الأول كان من تنوّع الثقافة بحيث اشتملت الموضوعات التي درسها حتى على السّحر. الذي ذُكِر لمناسبة إبطاله سحر مُدّعي النبوّة في جبل عامل** " [6].

---

(3) يقول محمد مكّي : " ... إلى أن خرج [خارج] وادّعى النبوّة ، وارتدّ عن مذهب الإماميّة . وخرج عن الدين . وكان اسمه محمد بن تقي الدين الخيامي البابلي . وفعل أشياء بالسحر والشعبذة . ممّا يُتعجّب منه غاية العجب . وأكثر القرى مالت إليه . وجميع الناس الهمج انكرّت عليه . لِما رأوا منه من إظهار العجايب " ومن ذلك أنه كلّم الناس وهم على جبل عرفات وسمعوا صوته . وأوهم ببساتين غير موجودة فيها الأزهار والثمار . مختصر نسيم السحر .

(4) نفسه . ويقول الخوانساري : " وفي بعض الحواشي المُعتبرة على شرح اللمعة ، عند بلوغ الكلام في باب المُحرّمات من المكاسب إلى قول المصنف رحمه الله " وتعلّم السحر " . ثم إتباعه من الشارح المرحوم بقوله " ولا بأس بتعلّمه ليتوقّى به أو يدفع سحر المُتنبّي به ما صورته ، كما دفع المصنف قدس سرّه نبوّة محمد الجالوشي لمّا ادعى النبوّة في جبل عاملة ، وبلغ أمره ما بلغ . فقتله المصنف رحمه الله " . روضات الجنات : 7 / 4 .

(5) لحظ الألحاظ في الذيل على طبقات الحُفاظ،ط .دمشق 1347 هـ / 1928م / 168 .

(6) كامل مصطفى الشيبي : الفكر الشيعي والنزعات الصوفيّة حتى القرن الثاني عشر الهجري ، ط . بغداد 1386 هـ / 1966 م / 156 (وانظر الصفحة / 322) . ولكنه حمّل هذه المعلومة أكثر ممّا تحمل ، حتى على فرض صحتها ، فقال : " ولا بد أنه كان ، وحاله هذه ، عارفاً بالتصوّف وممارساً له " . دون أن يلتفت إلى أن التصوّف ليس صِرف معرفة ، وإنما هو بالإضافة إلى ذلك اتجاه فكري ـ سلوكي . أمّا أنه كان عارفاً بالتصوّف ، فليس بالأمر الغريب على الشهيد . ولكن الإشكال في لا بُدّيّة أنه كان ممارساً له .

مهما يكُن ، فإن ما نودّ التأكيد عليه هنا ، هو أن شيوع الأعمال الموصوفة بالسحر في " جبل عامل " في ذلك الأوان ، ووجود مَن يتعاطونها ، وتأثيرهم البالغ على الناس ، ــ كلّ ذلك إمارة على اختراق كبير وأساسي لمفهوم الناس عن دينهم ووظيفته . بل وإمارة على انحـدار مفهوم الديـن عند فريق واسـع جِدّاً منهم إلى مُستوى الأديان البدائيّة . وهذا أمر طبيعي جِداً بالنظر إلى ما عاناه الناس من انقطاع أجيال عدّة مُتتابعة منهم انقطاعاً تاماً عن كل مصادر المعرفة ، وغياب الفقيه العارف المُرشد . ونحن نعرف جيّداً تأثير هذا الانقطاع من أمثالٍ عِدّة ، ممّا أشرنا إليه قبل قليل . والحقيقة أن ما ذكرناه من أمثال يقول لنا ضمناً ، أن تأثير هذا الانقطاع لم يكُن ينقصه لكي يُصبح نموذجاً كامل العناصر إلا مَسْحة من الغلوّ . قد تتفاوت في عمقها وحجمها من حالةٍ إلى حالة . ولكنها موجودة على كلّ حال .

هذا فيما يعود إلى المشهد في " جبل عامل " قبل الشهيد . وغنيّ عن البيان أنه مشهد لم يكُن يُنبئ بخير .

2 ــ المشهَد نفسه بعد الشهيد .

من كلّ ما سبق نعرف أن "جبل عامل" كان يتجه بخُطىً مُتسارعة في الطريق نفسه الذي سار فيه أكثرُ ما نُسمّيه بـ (التشيّع الشامي) . وهو إطلاقٌ فيه شئ من التجوّز في التعبير. لأنه في الحقيقة يشمل أيضاً التشيّع في "الأناضول" و "كيليكية" وشـرق " اوروبة " : "ألبانيا" و "البوسنه" . وما ذلك الاتجاه إلا خضوعاً للعوامل نفسها . وما هي إلا فقدان الاتصال بالمراكز العلميّة في"العراق " ، بوصفها المُؤهّلَة وحدَها . لإنتاج المُثقّف المُنتَمي / العُضوي (وهو هنا : الفقيه) ، الذي يتولّى التواصُل الثقافي بين الأجيال ، بالإضافة إلى التّسامي بالثقافة نفسها . هذا ، بالإضافة إلى تأثير مُرجّح للشلمغاني محمد بن علي ، المعروف بابن أبي العزاقر(ق : 322 هـ / 933 م) فيمـا

يخصّ المناطق الأربع المذكورة [7] .

كل أعمال الشهيد تدلّ دلالةً أكيدة على أنه بنى حِراكه في كافة الميادين على إدراكٍ مُفصّل وواضح للوضع الداخلي في وطنه ، وأيضاً لِما يُحيط به من صعوبات عملانيّة وسياسيّة . وقد قُلنا ما عندنا على هذا كلّه في الفصلين الرابع والخامس . حيث وصفنا نهجه في العمل وشبكتي علاقاته الداخليّة والخارجيّة ، وأسلوبه في تفادي ومُعالجة المُشكلات المنظورة والفعليّة .

وعندما استحضر عدداً من أفاضل تلاميذه من " الحلّة " لمعاونته فيما قد صمّم العزم عليه ، وبنى في بلده "جِزّين " مدرسة وُصفت بأنها " عظيمة " ، ووضع كتاباً دراسيّاً على الأقل هو كتابه (الدروس) المُخصّص للمتقدّمين من طلاّب مدرسته [8] ـ ، عندما فعل كل ذلك ، فهذا يعني أنه قد سبق له وأن شخّص الداء . وأعدّ للعلاج عُدّة مُتكاملة . فكأننا ، بل نحن بالفعل أمام مُربّ خبير مُتمرّس لم يترك أدنى تفصيل من العلاج الناجع للصُدفة أو الحظّ .

---

(7) من المسائل التي وجّهها أهل " ميّافارقين " ، حاضرة " ديار بكر " إلى السيّد المرتضى (ت : 436 هـ / 1044 م) مسألة : " ما يشكل علينا من الفقه نأخذه من رسالة علي بن موسى بن بابويه أو من كتاب الشلمغاني ، أو من كتاب عُبيد الله الحلبي ؟ " . انظر : رسائل الشريف المرتضى . تقديم وإشراف السيّد أحمد الحسيني ، إعداد السيّد مهدي الرجائي ، ط . قم 1405 هـ : 1 / 279 .

هـذا ، ومن المعلوم أن الشلمغاني عاش مدّةً غير قصيرة في المنطقة حيث يبدو أنه ترك تأثيراً غير قليل . بدليل أن كتبه (والظاهر أن المقصود في السؤال أشهر كُتُبه " التكليف ") كانت ، بشهادة السؤال ، ما تزال مُتداولَة بعد زهاء قرنين من مقتله . أضِف إلى ذلك أن " ميّافارقين " هي من مواطن الغُلاة الأولى .

أنظر الترجمة له في : ياقوت : معجم الأدباء ، ط . مصر ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، لا ت : 1 / 236 ـ253 . وطبقات أعلام الشيعة (نوابغ الرواة) / 289 .

(8) انظر مرجع الهامشين (21) و (22) من الفصل الرابع .

والحقيقة التي آن أوان الإدلاء بها ، بالنظر إلى ما اجتازه البحث من إشكاليّات مرحليّة ، هي أن الشهيد قد نجح نجاحاً نادر المِثال في التأسيس لثورةٍ حقيقيّةٍ على الصعيد الثقافي . وبالنتيجة نقل بلده "جبل عامل" من موقع المأزوم في أخصّ شؤونه ، أعني ثقافته الخاصّة ، إلى موقع المُبادِر الفاعل الذي يُشِعُّ من حوله إلى مسافات بعيدة . ومُذ ذاك أصبحت هذه البقعة ، التي كانت من قبله غير ذات شأن بكلّ المعاني ، اسماً بارزاً في الفكر والمكتبة والأعلام الشيعيّة ، وما تزال بحمد الله حتى اليوم .

هذا فيما يعود إلى أوّل ما نراه قد مكث من أعمال الشهيد .

الأمر الثاني التأسيس العملي لسُلطة الفقيه . وبيانه يستدعي التقديم له بما يلي :

منذ العام 260هـ/ 873 م ، عام وفاة آخِر السفراء الأربعة للإمام المهدي عجّل الله فرجه ، كان الفكر السياسي للتشيّع الإمامي مُحاصَراً في المسافة المُستحيلة بين سُلطة الإمام والُسلطة الغصبيّة. أي أن أي سُلطة شرعيّة ، حتى في أهون الأمور، في ظلّ غياب إمام العصر، كانت في حال عطالةٍ كاملة . بحيث أن كلّ مَن يتصدّى أو يتولّى سُلطة فهو غاصب لحقٍ شخصي للإمام . وعلى ذلك بُنيَت مجموعة من الأحكام . منها مثلاً ماعن الشيخ الطوسي (ت: 46هـ/ 1067م) وهو رائد الاتجاه الفقهي الاجتهادي ، حيث رجّحَ الحكم بحفظ أخماس المكاسب إلى حين ظهور الإمام الغائب . بوصاية المُكلّف بها إلى مَن يثِق به من أخوانه المؤمنين أو دفنها في الأرض. وحصَرَ إقامة الحدود والتعزيرات بالإمام أو الوالي من قِبَله [9] . وما تلك الفتاوى وأمثالها إلا إمارةٌ من إمارات ثقافة الترقّب والانتظار. التي بسطت سُلطانها على كامل الفكر السياسي والاجتماعي الإمامي في ذلك الأوان ، بل ولعدّة قرون من بعد .

---

(9) النهاية في مُجرّد الفقه والفتاوى ، ط. بيروت 1390هـ / 1970 م / 200 و691 على التوالي.

أول مُحاولة لاختراق تلك المسافة التي وصفناها بأنها " مُستحيلة " ، والتأسيس لسُلطة ليس على رأسها الإمام المعصوم ، هي ما نجده لدى رائد الاتجاه العقلي في التفكير الفقهي ، وأول فقيه كبير أنجبته " الحلّة " ، حيث تلقّى الشهيد فيما بعد . ذلك هو محمد بن إدريس الحلّي (ت : 598 هـ / 1200 م) .

والحقيقة التي يكتشفها المُتمعّن في الفكر الفقهي لابن إدريس ، أن مُوجّه تفكيره في هذا النطاق ، هو قضيّة تأسيس شكلٍ ونمطٍ من سُلطة فعليّة ، تؤدّي غاية الشريعة ، أي تحول دون استمرار التعطيل ، دون أن تتضارب مع المبدأ الرئيس الذي هو سُلطة الإمام الغائب . وفي هذا السبيل وضع بدايات فكرة ما عُرف فيما بعد بـ (النائب العام) للإمام [10] ، في مُقابل النائب الخاص المنصوب منه شخصياً .

هكذا شقّ ابن إدريس ، المؤسّس الأكبر لمدرسة " الحلّة " ومنهجها الأصولي العقلي ، الطريق اللاحب أمام سُلطة الفقيه . بحيث أصبحت سالكةً أمام أخلافه من فقهاء " الحلّة " . وهو تطوّر ظلّ ثابتاً من بعده . بحيث يمكن أن نعتبره إحدى السّمات البارزة لمدرستها ومنهجها الأصولي العقلي .

من ذلك أننا نجد في كتاب (شرائع الإسلام) لأبي القاسم جعفر بن الحسن بن سعيد الهُذلي الحلّي (ت : 676 هـ/ 1277 م) إشارةً تدلّ على نُضج مُصطلح جديد . نقرأها في عبارة ذات وِقع غير مسبوق ، هي (إمام الأصل) [11] . التي تسمحُ

---

(10) يُسمّيه "القائم بإذنه في ذلك " يعني في إقامة الحدود . انظر كتابه : السرائر ، ط . إيران ، طبعة حجريّة ، لات ، باب (في إقامة الحدود) / 161 . واقرأ أبواب (في الخُمس) / 115 ، و (في الحكم بين الناس) / 161 و (في تنفيذ الأحكام) / 469 و (في الحكم في الحدود) / 471 وانظر دراستنا عليه في مقالتنا (**عالِم الدين الإيراني ودوره في مُجتمعه**) المنشورة في فصليّة (شؤون الأوسط) الصادرة في بيروت ، العدد 103 ، صيف 2000 م .

(11) شرائع الإسلام في معرفة الحلال والحرام ، ط. بيروت 1409هـ/ 1988 : 3 / 278 .

لنا أن نتصوّر أن في ذهن الكاتب مُصطلحٌ ثانٍ مُوازٍ ، اقتضى التقييد في العبارة ، هو (إمام الفرع)، أي الفقيه. الذي منحه الحقّ في أن يتولّى صرْف سهم الإمام من الأخماس[12] . وهي المسألة التي رأينا فيها ابن إدريس ومَن قبله يتوقّف فيها عند قول السّلف .

المغزى الأساسي الذي نخرج به من هذا التتبّع ، الذي لم يقف إلا على المحطّات الرئيسة منه ، هو أن التأمّل والاجتهاد في الموضوع لم يتوقف منذ ابن إدريس . وإن يكُن يدلّ أيضاً على أن التطوّر بطئٌ جِداً . وذلك بحكم حاجة المؤسّسة الفقهيّة إلى هضْم وتمثّل ما أدخله من تجديد جذري على موقعها ووظيفتها في مُجتمعها .

أفضنا في الحديث على هذا ، مع أنه خارج عمود البحث ، لنُتيح للقارئ الحصيف أن يُقارن بين المستوى الذي كان عليه العمل الاجتهادي في هذا الشــأن في " الحلّة " ، وبين البَوْن الذي دفعه إليه الشهيد في " جبل عامل " .

ولقد قُلنا ما رأينا أنه يجب أن يُقال على نهج الشهيد في العمل ، ومن ضمنه الإعداد الفكروي ، في القسمين الخامس والسادس من الفصل الرابع ، تحت عنوان (في سُوح العمل ، الإعداد الفكروي) و (أعمال الشهيد تؤتي ثمارها) . وها نحن نُلخّص النتائج التي وصلنا إليها هناك ، مع إضافة بعض المُلاحظات التي تبدو لنا ضروريّة ،ـ معونةً للقارئ على ربط الأشياء بمآلها :

ـ تربية وإعداد العشرات من الفقهاء .

ـ منحهم صلاحيّات واسعة غير مسبوقة . تحت عنوان النائب العام للإمام .

ـ نشْرهم في مختلف المناطق ، بوصفهم وكلاء أو أعوان للشهيد .

ـ إنشاء نظام للجباية ، وضمناً للصّرْف والإنفاق ، يتولاّه أولئك الوكلاء ، بإشراف شيخهم .

---

(12) نفسه : 1 / 515 .

هذا ، بمُجمله ، يعني أمريَن اثنين :

ــ الأول : إنشاء سُلطة مُوازية للسُلطة السياسيّة الفعليّة .

ــ الثاني : استعادة وتأصيل التجارب السياسيّة التي عمل عليها الأئمة عليهم السلام منذ الإمام الكاظم (148. 183 هـ/ 765. 799 م) . وتابعها من بعدهم السُفراء الأربعة للإمام الغائب .

هذا النهج أدّى لأول مرّة ، منذ انتهاء فترة الحضور العلني للأئمة عليهم السلام ، إلى تحريك الكتلة الشيعيّة المحليّة ، الكبيرة ولكن أيضاً الخامدة ، إلى موقع سياسي فاعل . قامت بعمل اعتراضي واسع على سياسة السُلطة التركمانيّة المحليّة ، المدعومة من السُلطة الإقليميّة في " دمشق " . وكان حِراكها السياسي من القوّة والاتساع ، بحيث أن تلك السُلطة بشقّيها لم تملك إزاءه أكثر من إذاعة توقيع مملؤ بالتهديد والوعد . دونما ذكرٍ لأي إجراء عملي في المقابل .

أعتقد أن القارئ الذي وعى قلبه ما قلناه منذ أن بدأنا ما نحن فيه ، ليس بكبير حاجة الآن إلى دليل على حجم الخطوة العمليّة الواسعة ، التي خطاها الشهيد باتجاه فقهٍ سياسيٍّ فاعل . حقٌ أنه استقى الفكرة ، ولا ريب ، من منبعها . أي من "الحلّة " ، حيث أقام زهاء السبع سنوات يدرس ويُدرّس ويُصنّف . ومن المُرجّح أن فكرة أو مبدأ سُلطة الفقيه ، أو حلّ مُشكلة مفهوم الشرعيّة في غياب الإمام ، ظلّ يتقدّم ويزداد نُضجاً ، بالقياس إلى ما عرفناه عنه أيّام ابن إدريس والمُحقق الحلّي ، أي قبل زُهاء القرن من الزمان (والمسألة على كلّ حال تحتاج إلى مَزيد بحث وتنقيب) . نقول كلّ هذا ليعرف القارئ السبيل الذي سلكته الأفكار الجديدة ، وأن نفسّر جهوزها للتنفيذ والإعمال على يد الشهيد .

مهما يكُن ، فإن من المُؤكّد أن الشهيد بما فعل ، قد دفع سُلطة الفقيه عمليّاً إلى أعلى مُستوىً بلغته حتى ذلك الأوان . بعد أن اجتازت مراحل تطوّرها النظري البحت ، على شئ من الاستحياء ، في" الحلّة ". وهذه نقلة نوعيّة ذات خطــر . تابعها التشيّعُ

الإمامي فيما بعد بكامل الاهتمام ، في " جبل عامل " وفي " إيران " وغيرهما من مواطن الشيعة الإماميّة ، إلى أن وصل بها إلى ما عُرف فيما بعد بـ (ولاية الفقيه) . وندعو القارئ الراغب في متابعة البحث إلى قراءة كتابنا (الهجرة العامليّة إلى إيران في العصر الصفوي . أسبابها التاريخيّة ونتائجها الثقافيّة والسياسيّة) [13] .

الآن نسأل :

ما الذي كان يمكن أن يحدث على مستوى التشيّع كلّه ، وليس فقط على مُستوى وطن الشهيد فقط ، لولاه ولولا أعماله ؟ (السؤال الثاني قد أجبنا عليه ضمناً ، فيما سبق من هذا الفصل) .

هذا سؤال كبير . فضلاً عن أنه خطيرٌ منهجيّاً .

إنّ أخطر سؤال يمكن أن يوجّهه أو يواجهه المؤرّخ هو: ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم ...؟ هوذا الرجم بالغيب . ذلك أن كلّ ما لم يحدُث لسببٍ أو لغيره سيحلّ محلّه حادثٌ ما . لأن السلوك الإنساني لا يتوقّف عند نقطة غياب البطل . بل سيتابع سعيه . أمّا بأي اتجاه ، وعلى يد مَن ، وماذا سيفعل ؟ فهذه هي نقطة الغيب . خصوصاً وأننا نعرف أن مُحاولة الشهيد الناجحة في إطلاق النهضة في بلـده ، مسبوقةٌ بمحاولة مُعاصِرة كانت تشقّ طريقها بنجاح . لو لم تقمع بيد السُلطة المملوكيّة ، بطلها جمال الدين إبراهيم بن أبي الغيث البخاري (ح : 736 هـ / 1335 م)[14].الأمرُ الذي يجب أن نفهم منه أن الأمرَ لم يكُن مرهوناً فقط بالبطل ، وإنما أيضاً بالمحل القابل والدواعي القائمة والظّرف المؤاتي .

لذلك فإننا سنقصُرُ كلامَنا في الجواب على الدّور والمسرح ، بعد أن استوفينا الكلام على الشخص / البطل . أي أن السؤال سينتقل إلى " جبل عامل " وما كان لــه

---

(13) ط . بيروت ، دار الروضة 1410 هـ / 1989 م .

(14) انظر الترجمة له في كتابنا : جبل عامل بين الشهيدين / 78 ـ 89 .

من دور تاريخي . وبذلك سنؤدّي البطل/الشهيد حقّه أيضاً . ولا ننسَ أننا نرمي من ذلك إلى الإجابة على السؤال الثاني الذي أنهينا به التمهيد لهذا الفصل :

ما كان التأثير الباقي للشهيد وأعماله في عالَم التشيّع إجمالاً ؟ وإن كنّا قد طرحنا السؤال نفسه قبل قليل من الجهة الأخرى . والمؤدّى واحد . وعليه نقول :

الحقيقةُ التي ينبغي أن نبدأ منها مُعالجة موضوع السؤال ، هي أن التشيّع في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد كان شبه مُحاصَر في مراكز أساسيّة معدودة لا يعدوها . ثلاثة منها في " العراق" هي "النجف" و "كربلاء" و"الحلّة " . واثنتان في "إيران" هما " قُم " و" كاشان ". إلى قرىً أقلّ أهميّة تطيفُ بكلٍ منها . أمّا في المنطقة الشاميّة وما والاها ، فقد كان في حالٍ مُتقدّمة من الإنهاك ، نتيجة الكوارث المتوالية التي نزلت به . وقد وقفنا على ذلك فيما فات من هذا الكتاب .

الحقيقة الثانية هي أن نهضة " جبل عامل " كانت مُنعطفاً تاريخياً يستحيل وصف تأثيره في حركة التشيّع في العالم . لسعته أولاً ، وثانياً لأن ربط التفاعلات الثقافيّة المُتداعية المُتمادية بأسبابها المُباشرة أمرٌ غير سهل . ولكننا على الأقلّ نطرح سؤالاً هو : كيف يمكن أن نتصوّرَ انتشاره الكبير في " إيران " و " الهند " لولا الدور الذي أدّاه عُلماء " جبل عامل " في هذا النطاق ؟ ولنعتبر هذا السؤال دعوةً ثانية لقراءة كتابنا (الهجرة العامليّة .....) . دون أن ننسى تأثيره غير المكتوب حتى الآن في سواحل " الخليج الفارسي " وجنوب " العراق " .

إن تكُن حركة الشهيد قد فشلت في أوانها فشلاً شخصياً ، بالنظر لأنها انتهت بقتل بطلها ، فإنها نجحت تاريخياً نجاح الدعوات الكبرى . التي تنتهي غالباً بمأساة . لكن الزمن وحده يكشف أن قتل البطل كان أشبه بتفتّق البذرة في جوف الأرض : موتاً آنيّاً شخصيّاً ، وحياةً مُستقبلة جماعيّة ، في الآن نفسه .

خلاصة الفصل

رمينا في هذا الفصل إلى بيان ما مكث من أعمال الشهيد . الأمر الذي اقتضى بيان ما كان عليه " جبل عامل " من قبل . وهو الذي رزح تحت احتلال أجنبي طويل . بعد أن نزح سُكّانه من مواطنهم الأصليّة في "وادي الأُردنّ" و " فلسطين". ممّا شكّل قطعاً مُزدوجاً . أدّى إلى انحلالٍ ثقافيٍّ عميق ، رصدناه في شيوع أنماط من التديّن البدائي . أي أن " جبل عامل " كان يسيرُ في الاتجاه نفسه الذي سار عليه من قبل أكثر التشيّع في المنطقة الشاميّة وما والاها .

اعتمد الشهيد خطّة مُحكمة أحسن الإعداد لها . رمت إلى تصحيح المسار الذي كان ينحدر إليه بلده . وبالنتيجة نجح نجاحاً نادر المثال في التأسيس لثورة حقيقيّة على الصعيد الثقافي . وجعل من بلده اسماً بارزاً في الفكر والمكتبة والأعلام الشيعيّة . وفي سياق عمله هذا أنجز أول اختراق عملي للمُعضلة التاريخيّة للتشيّع ، المُتمثلة بغياب أي فكر سياسي. منذ انتهاء فترة الحضور العلني للأئمة عليهم السلام . وبذلك بدأ مساراً جديداً تماماً ما زال يتطوّر حتى اليوم .

الخاتمـة

ها نحن قد وصلنا إلى نهاية المطاف في سيرة رجل عظيم . أعتقد أن البحث والكتابة عليه هي من إحدى أمتع التجارب التي يمكن أن يختبرَها الباحث . وكثيراً ما سيطر عليّ شعور أثناء عملي عليها ، أن جزءً من جاذبيّته الشخصيّة الفريدة ما يزال حيّاً في القليل القليل الذي تركه لنا السلف عنه .

لقد سعيتُ في الفصول السبعة للكتاب إلى كتابة سيرة مُفصّلة للشهيد الأول محمد بن مكّي الجزيني رضوان الله عليه . وهو مطلب سعَتْ إليه من قبلُ أجيالٌ من الباحثين . من تسجيل الفضل لأهله أن نقول أنّ رائدَهم هو المرحوم الشيخ محمد رضا شمس الدين . الذي توفي في "النجف الأشرف" سنة 1377 هـ / 1957 م رديماً ، بعد أن سقط عليه سرداب بيته . وإن أنسَ فلا أنسى لحظة استخرجتُ مع بعض الرفاق جثمانَه النحيل من تحت الركام والرمال . حيث بدا لي مثل طفلٍ صغيرٍ نائم ، مُرتاحٍ إلى نومته الأبديّة . رحمه الله ، وجمعنا به في دار كرامته .

إن سيرة كلّ إنسان هو تفاعلٌ حيّ بين الظرف الذي عاش فيه بكامل عناصره ، وبين ارتكاسه عليه . والإبداعُ كلّ الإبداع هو في الارتكاس الناجح ، الذي يأخذ في الاعتبار كامل المُعطيات القائمة ، بالإضافة إلى الإمكانيّات الكامنة في موضوع عمله ، التي عليه أن ينقلها من القوّة إلى الفعل . من الكمون إلى العمل . هذا أشبه بعمل الطبيب النطاسي ، حين يُشخّص الداء بمعرفة وذكاء . ثم يصِف الدواء الناجع ، الذي يدعم الجسم المريض وهو يكافح في سبيل الشفاء . وهذا يُلخّص لنا دورَ الشهيد ، حين عمل على إطلاق النهضة في بلده المأزوم المُثخَن بالجراح . وبذلك نقله من حالٍ إلى حال . ما نزال حتى اليوم ننعم ببركته .

إن التحدّي الكبير الذي واجهتُه دائماً في عملي على إشكاليّات الموضوع الجمّة ، هو اللّحاق بوجدان الجمهور المعاصر للشهيد وموضوع عمله في "جبل

عامل ، حيث اتّخذ بمبادرةٍ حُرّةٍ منه أعجبَ وأجملَ مُبادرةٍ يمكن تصوّرها ، فمنح بطله المقتول ، بكلّ صدق وبساطة لقب (الشهيد) . هكذا ، على الإطلاق ، وكأنه أول شهيدٍ له يسقط وهو يناضل . كان ذلك بمثابة وسامٍ فريدٍ منه . وتنويهٍ بالفضل الذي طوّق به عنقه . وفي النهاية دفع حياته على مذبحه .

إننا نعرف جيّداً كم أن إطلاق النهضة في مُجتمعٍ مُتخلّف عمل مُعقّد ، يقتضي جهود هيئات مُتمكّنة خطّةً وعملاً ، ويقتضي من المؤرخ معرفةً تامّة بآليّاتِها. وعليه فقد صرفنا أكبر الجُهد هنا على وصف أعمال الشهيد في هذا النطاق وفي كافة الميادين . ووصفناه وهو يُعِدّ نفسه ويُخطّط ويُفكّر ويعمل ويُحرّض ويُداري ويُدافع . وأعتقد أنني استنفدتُ في سياق عملي كلّ النصوص تقميشاً وتركيباً وتحليلاً . وهو أمر يحصل لأول مرّة . ومع ذلك فإنني لا أجِد أدنى غضاضةً في أن أعلن أنني لست راضياً تماماً عن عملي . ذلك أنني أحُسّ ان النتيجة ، أي النهضة ، أكبر بكثير من كل تلك المُقدّمات . أي أن هناك عنصر مفقود في البين ، لا بُدّ أنه ساهم فيها . ولكن كل الآليّات التي وظّفناها في عملنا لم تكن كافية لقراءته .

هل ذلك العنصر المفقود هو حضور البطل الشخصي وجاذبيّته ، أو ، كما نقول في لغة الصحافة اليوم : كارزميّته ؟ وهذه أمور يصعُب أن نقرأها في النصوص .

هل هو تفصيلات من أعماله لم تُفلح النصوص المحليّة في حفظها لنا . وهي التي ، على كلّ حال ، لم ترَ في بطلها إلا الشهيد المظلوم ضحيّة المؤمرات المحبوكة ؟

أم هل هو كلّ ذلك ، بالإضافة إلى حوافز الناس المشبوبة ، والكامنة أيضاً ، التي نجح الشهيد في تحريرها . وقد رأيناها بمختلف أشكالها : إقبالاً على مدرسته . وانضباطاً وطاعةً لوكلائه وأعوانه . وثورة شاملةً على السُلطة وسياستها ؟

أسئلةٌ ستبقى برسم البحث والباحثين .

في هذا السياق من التساؤلات أقول :

إنني أعلّق أهميّة كُبرى على العثور على نسخة لكتاب (نسيم السّحَر) ، الذي تكرّرت الإشارة إليه فيما فات . عسى أن تُعيننا على كتابة سيرةٍ أكمل لأحد

أعظم أبطال تاريخنا الثقافي . وعلى الرغم من كلّ الأسباب التي تبعث على اليأس من هذا الأمل ، فإنني أحبّ أن أعتقد أن هناك في مكان ما من "العراق" أو "إيران" أو "البحرين " ، أو حتى في "إستامبول " نسخة منه ، راقدةً في الظلام ، أو لا يعرف مالكُها قيمتها الفائقة . وإذا صحّ ظني ، وساهم هذا النداء في اكتشاف النسخة العتيدة ، فسأكونُ أسعدَ الناس بذلك .

في الفصل الأخير من الكتاب (ماذا مكث من أعمال الشهيد ؟) ، ركّزتُ الكلام على ملمحين اثنين . أولاهما إطلاق النهضة العامليّة وتداعياتها . وثانيهما أول فقه عملاني مبني على إعمال سُلطة الفقيه ، الذي فتح باباً لتطوير ما زال ناشطاً . وطبعاً كان من الممكن أن نمضي في التفريع على هذين الملمحيَن . فالنهضة العامليّة ما تزال تتفاعل حتى اليوم . مُنجبة ما لا يحصى من النتائج على مختلف الصّعُد ، ثقافيّاً و سياسيّاً واجتماعيّاً . ممّا يصلح أن يكون تتبّعه موضوعاً للبحث برأسه . والأمر نفسه يصحّ بالنسبة للملمَح الثاني . وعليه فقد اكتفيتُ بوضع ما هو أشبه بعناوين للبحث . تاركاً الأعماق لمن يحب أن يخوضها من أهل البحث والنظر .

المُلحقات

(وثائق البحث)

1 ـ مُختصَر نسيم السّحَر .

2 ـ رسالة ابن تيميّة إلى السلطان .

3ـ نسخة توقيع بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة والشيعة .

4 ـ وصايا الشهيد .

5 ـ قصيدة الشهيد يخاطب بها الأمير بيدمُر .

6 ـ رسالة علي بن المُؤيّد للشهيد .

7 ـ آخِر سماع للشهيد من شيخه محمد بن مُعيّة .

8 ـ إجازة فخر المُحققين للشهيد .

9 ـ إجازة شمس الأئمّة الكرماني للشهيد .

بضع صفحات من
مختصر (نسيم السّحَر)

اختصرها

محمد مكي بن محمد بن شمس الدين بن الحسن بن زين الدين

من سُلالة الشهيد الأول

(كان حياً سنة 1169 هـ / 1755م)

من

(نسيم السّحَر)

لمحمد بن علي بن الوحيد البتدّيني

أعدّها للنشر ووضع لها المقدمة والتعليقات

د. جعفر المهاجر

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد

يُشرفني أن أقدّم للباحثين المهتمين بالتاريخ الثقافي الشيعي الإمامي هذه النشرة للمخطوط المحفوظ في مكتبة مدرسة السيد البروجردي رضوان الله عليه في " النجف الأشرف " تحت الرقم 399/8 . راجياً أن يجدوا فيها ما أتوقعه من نفع جزيل .

(وصف المخطوط)

يتألف ما وصل إلينا من المخطوط من ثماني أوراق ، كُتبت على الوجهين . قياسها 19سم × 14،5 سم . مسطرتها بين عشرين واثنين وعشرين سطراً . خطها غير منسوب . بهامشها الكثير من الهوامش ، المكتوبة بالخط نفسه . ممّا يدل على أن الأصل والهوامش كلاهما لكاتب واحد ، وأنّ النسخةَ هي نسخةُ الأصل . أوله ، بعد البسملة والتحميد : " قد نقلت مختصراً من كتاب (نسيم السحَر) في أحوال الشهيد الشريف محمد بن شرف الدين مكي بن حامد بن محمد بن طاها بن علي المُطّلبي العاملي الجزيني " . وآخره : " حِكَمٌ ونصايح مضمون آياتٍ وأحاديث " . والظاهر أن ما بقي منه مفقود ، ونظن أنه غير كثير .

أمّا كاتبه فإنه غير مذكور . ولكننا نجد على الغلاف الداخلي للمخطوط مقدّمة إجازة من مجهول لـ " الشيخ محمد مكي بن محمد بن الشيخ شمس الدين بن الحسن بن زين الدين ، من سُلالة الشهيد الأول " . ممّا يبعث على الظن القوي بأنه صاحبه . بل وبخطّه أيضاً ، بشهادة الحواشي الكثيرة ، المكتوبة بالخط نفسه ، كما أشرنا أعلاه . إذن فهذه النسخة هي نسخة الأصل على الأرجح . وسنورد فيما يلي أدلّة إضافيّة على أن كاتبها الأول ، أيّاً كان ، هو عاملي الأصل على الأقل .

(موضوع المخطوط ونقده)

يُعلم من الاقتباس الذي أثبتناه أعلاه أن الموضوع المُعلَن للمخطوط هو اختصار لكتاب آخر اسمه (نسيم السحر) . الأمر الذي يطرح علينا اليوم أكثرَ من سؤال عن الأصل الذي اختصره محمد مكي . فما هذا الكتاب ، ومَن مصنفه ؟

أمّا الكتاب فلم نعثر على ذكر له في كل ما تحت يدنا من مصادر . الوحيد الذي أشار إليه هو المرحوم الشيخ محمد رضا شمس الدين في كتابه (حياة الإمام الشهيد الأول) ، حيث قال : " نسيم السحَر في حياة الشهيد الأول من حين مولده حتى قُتل . للفاضل المحقق . هكذا رأ يت . الشيخ أحمد بن الوجيه (أو الوحيد) العاملي من قرية زبدين " . ولكن الشيخ شمس الدين ، الذي عرفتُه معرفةً وثيقةً أوائل الدراسة في " النجف الأشرف" ، لم يقُل لنا أين (رأى) هذه المعلومات البالغة الأهميّة [1] . مع أنه أظهر في كتابه حرصاً مكرّراً على إسناد المعلومات . وإنني أظن أنها سماع ، ممّا كانت تحفل به الحياة العلميّة في " النجف الأشرف " في تلك الأيام الزاهرة [2] . ومع ذلك فإن ملاحظته لا تخلو من فائدة كما سنرى .

ذلك أن محمد مكي في مختصره هذا يأتي على ذكر اثنين من آل الوحيد ، ولكنه ينسبهما إلى "بتدّين" : "البتدّيني" . و "بتدّين" هذه هي قرية قُرب "جزين " ، تُعرف اليوم باسم " بتدّين اللّقـش " [3]. أولهما محمد بن علي بن الوحيد البتدّيني . وهو ينقلُ

---

(1) حياة الإمام الشهيد الأول / 395 . طُبع ضمن مجموع باسم (بهجة الراغبين في مؤلفات الشيخ محمد رضا شمس الدين) ط. بيروت ، دار المحجّة البيضاء 1424 هـ / 2003 م .

(2) أتمّ الشيخ شمس الدين كتابه بتاريخ 3 شوال 1376 هـ / 3 آذار / مايس 1957 م .

(3) ذكرها الشيخ إبراهيم سليمان في : بلدان جبل عامل / 76 ، ط . مؤسسة الدائرة 1415 هـ / 1995 م سمّاها " بتدين اللّقس " ، جميع أهلها مسيحيون موارنة . وانظر : أنيس فريحة : معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية ، ط. مكتبة لبنان / 11 .

عن " مجموع له قد كتبه بخطه جميع أحوال الشريف الشهيد شمس الدين محمد بن مكي ، من حين مولده إلى حين قتله " [4] . وثانيهما حسين بن محمد الوحيد البتدّيني ، الذي كان من طلاّب مدرسة الشهيد في "جزين" [5] . ومع أن محمد مكي لم يذكر على نحو التصريح أن مُختصره هذا هو لمجموع محمد بن علي البتدّيني ، ولكنه بعد أن قال إن هذا المجموع فيه أحوال الشهيد " من حين مولده إلى حين قتله" تابع قائلاً : " وقد ذكرناها [أي تلك الأحوال] جميعاً من غير اختصار" . أي أنه اختصر غيرها . وهذا كلام في قوّة التصريح بمصدر مُختصَره . وسنراه بالفعل بعد قليل وهو يقتبس من كتاب ابن الوحيد هذا نصاً طويلاً فيه ذكر أحوال الشهيد .

من هنا فنحن نُرجّح بقوّة أن كتاب (نسيم السّحَر) هو من تصنيف محمد بن علي بن الوحيد البتدّيني . وليس " أحمد بن الوجيه (أو الوحيد) العاملي من قرية زبدين " ، كما قال الشيخ شمس الدين . ومع ذلك فإن الفضل يعود إليه ، رحمه الله ، في وصولنا إلى هذه النتيجة . فهو الذي وضع بملاحظته في يدنا طرف الخيط ، وقدّمنا خطوة إلى الأمام . الأمر الذي أتاح لنا التمعّن في نص محمد مكي ، وخصوصاً فيما اختصره وما لم يختصره من الأصل . بحيث وصلنا إلى ما وصلنا إليه من ترجيح . ونحن نأمل أن يعثر أحد الباحثين على الأصل الكامل لكتاب (نسيم السحَر) . وبذلك ، ربما ، نتجاوز هذه التساؤلات . وذلك أمل يُعزّزه وصول صدىً عنها إلى الشيخ شمس الدين في " النجف " قبل خمسين سنة .

مهما يكن ، فإن ما وصل إلينا من المختصر يمكن قسمته نقديّاً إلى قسمين :

ــ القسم الأول : من الورقة الأولى حتى نهاية السطر الخامس من الورقة 6 / ب من الأصل = الصفحة الأولى حتى نهاية السطر السابع عشر من الصفحة 26 من نشرتنا .

---

(4) انظر فيما يلي نشرتنا للمخطوط ، ص / 26 .

(5) نفسه / 28 .

ـ القسم الثاني : من نهاية القسم الأول إلى آخر ما وصلنا منه .

ومع أن الكاتب واحد وغرضه واحد في القسمين دون ريب ، فإن القارئ يلمس فرقاً واضحاً في المنهج وطريقة التفكير بين الاثنين ، انعكست بشكل قاسٍ على مادة السيرة . فكأننا نقرأ سيرتين لشخصين .

في القسم الأول يبدو الشهيد ، أشبه بأبطال القصص الشعبيّة . بطلٌ تُحرّكه نوازع خيّرة ، جَماعها طلب الخير للناس. سلاحه معرفة لا حدود لها، واستعداد للتضحية طلباً لرضى الله سبحانه. في مقابل أعداء تحركهم نوازع شريرة : الحسد والغيرة وطلب الجاه والسلطان . هم اليالوشي وابن يحي والقاضي ابن جماعة . وهو دائماً ينتصر عليهم بالحجّة البالغة ، أو بالتمكّن من المعارف السّريّة ، أو بكرامة إلهيّة . وبذلك يتخلّص من المؤامرات التي يحيكونها له ، أو يُخلّص الناس من الخداع والتضليل . ولكنه أخيراً يفوز على أيديهم بدرجة الشهادة ،لأن الله تعالى شاء له ذلك فأطاع وامتثل .

حق أن هذه الصورة تتجاهل كافة المعطيات التاريخيّة الموضوعيّة التي اضطرب فيها الشهيد وعمل في قلبها . كما أفرزت أضدادها ومعوّقاتها ، مثلما هو الشأن دائماً في هذه الأحوال. ولكن هذا لا ينتقص أبداً من قيمتها وأهميتها . هو ذا الجانب الآخر ، غير المرئي ، من شخصيّة صاحب السيرة ، وهي في حالة تفاعلٍ مع الجمهور الذي أحبّه وعرف فضله . ومهما تكن هذه الصورة ساذجة غير موضوعيّة ، حافلة بالأخطاء الكبيرة [6] ، فإنها تُبيّن لنا ما يعجزُ التاريخ الرسمي عادةً عن بيانه .

---

(6) مثل وصفه لبيدمر بأنه " خليفه" (الورقة 3/ آ من الأصل) وهو سيف الدين بيدمر الخوارزمي . ولي الشام ست مرات ، ثالثها من سنة 775 هـ / 1372 م حتى 778 هـ / 1376م (محمد بن طولون الصالحي : إعلام الورى بمن ولي الشام من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط. دمشق 1383 هـ / 1964 م / 25 ـ 30) . ومثل قوله أن الشهيد قُتل سنة 1186(الورقة 6 / ب من الأصل) ولا تفسير عندي لهذا الخطأ . وأيضاً زعمه أن الشهيد لقي العلاّمة الحلّي في " النجف " . وهذا توفي سنة 726هـ /1326م .

أعني وُجدان الجمهور في وطن الشهيد . الذي عانى طويلاً من وطأة الاستلاب والاضطهاد المعنوي، بالاحتلال الصليبي [7] ، ثم بمختلف صنوف الاضطهاد التي عانى منها الشيعة في المنطقة ، منذ أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . ممّا وفيناه حقّه بالكلام فيما فات . وجاء الشهيد بمشروعه ليمنحهُ الهُويّةَ الجامعة . ونجح في ذلك أيما نجاح . ولذلك فإنه بعد أن قُتل منحه لقب الشهيد على الإطلاق. مع أنه الجمهور الذي ينتمي إلى ثقافةٍ لا تشكو أبداً من قِلّة الشهداء. خلاصة ما أريد قوله هنا ، أن البتديني ، إن كان هو بالفعل كاتب (نسيم السّحَر) ، قد أودع هذا القسم من كتابه صورة الشهيد كما أفرخت ونمت في وجدان الناس . أعني صورة البطل الشعبي المُنقذ والهادي . والجمهور ليس مؤرخاً لكي نُطالبه بالصدق الموضوعي بحسب مقاييسنا . إنه أمين فقط على وُجدانه .

أمّا القسم الثاني ، فهو عبارة عن ست نقولات ، عن ستة من تلاميذ الشهيد . اثنان منهما من معارف تلاميذه والمُجازين منه . ثلاثة من تلك النقولات مُقتبسَة عن رسائل أو كُتُب ضمّنها مصنفوها ما يتعلّق بالشهيد .

أولهم : محمد بن علي بن الوحيد البتدّيني ، الذي رجّحنا أعلاه أنّه مُصنّف (نسيم السّحَر) . وهذا الاقتباس هو الذي وعد مُختصِرُهُ بإيراده بنصّه دون اختصار . وهاهو يفي بوعده هنا تحت عنوان " ما ذكره الشيخ الأفضل المجيد محمد بن علي بن الوحيد في مجموعه . هكذا صورة ما ذكره " . وعلى هذا بنينا فيما فات أنه هو مصنّف (نسيم السّحَر) .

ثانيهم : محمد بن عبد العلي بن نجدة الكركي (ت : 808 هـ / 1405 م) .

---

(7) انظر كتابنا : جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي ، ط. بيروت ، دار الحق 1421 هـ / 2001م.

الذي يُسمّيه محمد بن علي النجدي . وهو من أقرب تلاميذ الشهيد إليه وأخصّهم به . كما أنه أحد اثنين من أهل "الكرك" ، التي ستصبح بعد قليل حاضرة علميّة هامّة ، تتلمذا للشهيد. وقد ضمّن " في مجموعته التي رواها عن شيخه" مديحاً بحقه ختمها بالترجمة له . وذكر فيها أبناءه الثلاثة ، والإجازة التي كتبها لهم مع أختهم فاطمة ، المُلقّبة ست المشايخ . وهذا الجزء من المجموعة هو الذي اقتبس منه مصنف (نسيم السّحَر) .

ثالثهم : الحسن بن سليمان الحلّي (ح : 802 هـ / 1399 م) . وهو أحد اثنين حلّيين التحقا بالشهيد من وطنهما " الحلّة". تتلمذ للشهيد وأجازه مع عدد من تلاميذه في "الحلّة " سنة 757 هـ / 1355 م . ثم التحق به وعاش معه في "جزين" ولم يفارقه إلى أن استشهد. ذكر شيخه " في آخر رسالة قد ألّفها " ، وعنها اقتبس مصنف (نسيم السّحَر) .

الثلاث الباقيات ، اثنتان منهما لمحمد بن أحمد الموسوي البعلبكي ، الذي يصفه بـ " السيّد الجليل النبيل " ، وحسين بن محمد الوحيدي البتدّيني ، الذي يصفه بـ " الصالح الزاهد العابد " . وهما في كرامتين للشهيد . والثالثة قطعة من إجازة من الشهيد لمحمد بن الخازن الحائري . وهؤلاء الثلاثة لا ذكر لهم في المصادر التي تُعنى بإحصاء تلاميذ الشهيد .

المخطوط إجمالاً في غاية الأهميّة . فهو يبسط سيرة مختلفة للشهيد عن كل المصادر الأخرى . من ذلك : علاقته بالسلطة ، المحليّة في " دمشق " والمركزيّة في "القاهرة" ، وكيفية مقتله وما جرى عليه قبل ذلك . والأهم من ذلك أعماله في وطنه ، التي نجد إلماحات مُضيئة عنها فيما اقتبسه صاحب هذا المختصر عن محمد بن علي بن الوحيد . وقد استفدنا من كل ذلك في عمارة السيرة التي علّقناها للشهيد .

(عملنا على المخطوط)

رمينا في هذه النشرة إلى تقديم صورة أقرب ما تكون إلى النسخة التي بين يدينا أصلاً وهوامش . هكذا يجد القارئ أن صفحات النشرة مقسومة إلى ثلاثة أقسام : في

الأعلى المتن . أدنى منه الهوامش التي علّقها كاتبه ، مع بيان موضعها من الصفحة في النسخة . لعلاقة ذلك بفهم الصلة بين مضمون الهامش ومضمون المتن . وفي الأسفل التعليقات التي رأينا أنها ضروريّة أو مفيدة للقارئ .

لم نُحوّر في لغة النص ، لاعتقادنا أن كل نص هو كائن ذو روح . وأنّ من حق القارئ أن يلامسها كما عبّر عنها كاتبه . وحتى عندما رأينا أن فهم النص يقتضي تصحيح بعض الأخطاء الإملائيّة ، فقد أشرنا في الهامش الأسفل إلى ما رسمه كاتب الأصل . كما أننا لم نُعلّق على وجهة نظر الكاتب حول هذه النقطة أو تلك من سيرة الشهيد . على الرغم من أن فيها الكثير جداً ممّا يُغري الباحث بالتعليق والمقارنة والتمحيص . خصوصاً إذا كان خبيراً عارفاً بما في المصادر الأخرى من وجهات نظر مُختلفة . بل آثرنا أن يكون ذلك من ضمن سياق شامل ، توضع فيه مختلف وجهات النظر على بساط البحث . وتجري محاكمتها وفقاً للأصول المُعتمدَة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

نحمدك اللهم على ما هديتنا إلى سلوك طريق الرواية . ونشكرك اللهم على ما أنعمت به علينا من نظمنا في سلك درب الدراية . ونُصلّي على نبيّك المُنقذ من الضلالة والغواية وآله البالغين في نشر صحائف الحديث أقصى نهاية .

وبعد .

فمن نِعم الله المتواترة وآلائه المتكاثرة الاجتماع مع الأكمل الأنبل ، ذي الفهم النقاد والفكر الوقاد ، مصباح المجتهدين ، وإقبال السالكين ، الأفضل البهي ، والنحرير الألمعي ، شرف الدين محمد مكي بن محمد بن الشيخ شمس الدين بن الحسن بن زين الدين . من سُلالة الشهيد الأول العاملي المطّلبي . وفّقه الله سبحانه لارتقاء معارج العلوم والمعارف ، وتحرير النُكت واللطايف . في البحث والمذاكرة والتدقيق والتحقيق والإفادة والإستفادة في كتاب تهذيب الأحكام . المشتمل على النقض والإبرام . فظهر لي من ذلك ، وسلوك تلك المسالك ، توقّدُ ذهنه الثاقب ، وتصويب إدراكه الصايب . وكونه أهلاً لتحمّل الرواية ، وسلوك طريق الدراية......

يبدو أن هذا النص هو مقدّمة إجازة لمحمد مكّي المذكور . كُتبت على الغلاف الداخلي للأصل . أثبتناها لعلاقتها بصاحب الأصل وكاتبه .

[1 / آ] بسم الله الرحمن الرحيم

قد نقلت مختصراً من كتاب نسيم السحر في أحوال الشهيد الشريف شمس الدين محمد بن شرف الدين مكي بن حامد بن طاها بن علي المطلبي العاملي الجزيني 0 فإنه قد ذكر فيه أولاً آباء الشهيد محمد بن مكي وأجداده من الطرفين 0 ثم ذكر تاريخ ولادته وكيفيّة حاله بعد أبيه ببلدة جزين ، وابتداء شروعه في العلم ، وسفره إلى الأمصار ، وسعيه في الأقطار لتحصيل العلم من العلماء الأعلام ، والتفكر في ملكوت العلم العلاّم. وذكر ما جرى بينه وبين الكرماني من المباحث اللطيفة والمناظرة الشريفة ، لمّا ورد بغداد ، وكان ذلك في المدرسة النظاميّة 0 وما جرى بينه وبين العلاّمة الفاضل

هوامش :

ـ (أعلى الصفحة) : يظهر من هذه الرسالة أنه قد رُوي في صيغة قتل الشهيد بغير ما ذُكر في هذا الكتاب يكون مجملاً ، أو لعدم اطلاع مَن روى0 والله أعلم 0

ـ (أعلى الصفحة موازياً للبسملة) : الشيخ شمس الدين محمد بن مكي 0 فهو شريف من طرف أمه 0 فهي من بيت مُعيّة ، بنت السيد محمد الحسني بنت مُعيّة 0

ـ (بموازاة السطر الثالث ، مع خط يُشير إلى أنه إضافة إلى " الكرماني " : المشهور عبد الأئمة القرشي

ـ (تبدأ بموازاة السطر التاسع) : قد نقل بعض الثقات أن اجتماع الشهيد كان [000] العلاّمة 0 وكان العلاّمة في مجلس الدرس 0 فلمّا دخل الشهيد والعلاّمة يدرّس ، حينئذ فاعترض الشهيد مُستفهماً فأجابه العلاّمة ، فاعترض الشهيد حتى جرى بينهما قرب عشرين مسألة 0 فقطع العلاّمة الدرس حينئذٍ وتوجّه إلى الشيخ شمس الدين وأجابه 0 ثم اعترض ثم أجابه ثم اعترض فأجابه 0 فرضي الشهيد إلا في يسير 0 وأنه نوى بعد الزيارة يرجع إليه للدرس. فقضى الله وقدره قد نفذ 0 سمعت أيضاً من ثقة 0 سمعت من ثقة 0

جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي من المباحث البهيّة والمسايل الرضيّة0 وذلك في الحضرة الحايريّة 0 قال فإن الشريف شمس الدين محمد بن مكي قدّس سرّه لمّا ورد الروضة الشريفة المقدّسة الحايريّة لزيارة مولانا وسيدنا أبي عبد الله الحسين عليه السلام لم يكن من قبل ذلك قد رأى الفاضل العلاّمة قدّس سرّه 0 فلما رآه جرى بينهما من المناظرة والمطارحة 0 وأجاب كل واحد منهما جواباً عن قوله بأدلة عقليّة ونقليّة أولاً وثانياً وثالثاً فرضي الشهيد من العلاّمة ، إلا في بعض المسايل فبقي متردداً [1]0 والعلامة قدس سرّه لقد تعجّب من الشريف الشهيد شمس الدين محمد بن مكي قُدّس سرّه لقوة حدسه وبلاغته واستحضاره [2] وقد اعتمد ونوى [3] الشهيد بأنه إذا قُدّر زار الأمير عليه السلام يرجع إلى عند شيخ المشايخ العلاّمة في الحلّة 0 ففي الأيام التي كان الشهيد بها في النجف عند الأمير فإذا قد مات العلاّمة قُدّس سرّه ودُفن في النجف 0 فتألّم الشهيد لذلك كثيراً 0 ثم أن الشهيد قد سافر إلى الحلّة واجتمع بعلمائا وقرا [4] على فضلايها 0 وبقي مدة في العراق ، حتى اشتهر في ساير الآفاق أكثر من شيوخه على الإطلاق 0 فبينما هو في الحلّة إذ قد ورد عليه مكاتيب من علي بن مؤيّد [5] سلطان العجم ، وفيها الحث والالتماس منه على الحضور لديه للتشرّف بقدومه والانتفاع بعلومه 0 وأكثر في التلطّف والتودّد له فيها 0 فأجابه واعتذر له بما يناسب الحال والمقال 0

---

(1) في الأصل : متردأ 0

(2) في الأصل : واستحظاره 0

(3) في الأصل : ونوا 0

(4) في الأصل : وقرى 0

(5) نجم الدين علي بن المؤيّد العلوي . آخر ملوك الأسرة السربداريّة، التي حكمت خراسان ودامغان 0 حكم : 766 ــ 783 هـ / 1364 ــ 1381 م 0 وكان شيعياً إمامياً 0 ضرب السكّة باسم الاثنى عشر إماماً. وكان يخطب بأسمائهم (انظر: عجائب المقدور في أخبار تيمور/ 20) 0

ثم أنه بعد إقامته بالحلّة عزم على الرحيل إلى بلد الله الأمين ثم إلى بلده جزّين 0 فتعرّض له حينئذٍ بالعراق السّادة الكبار والعلماء الأخيار ، فتمنوا دوام صحبته الشريفة ومطارحته اللطيفة ، والتمسوا منه السكنى والإقامة ، وسلّموا [1 / ب] له بالإمامة فأبى إلا الانطلاق [6] وعقد للرحلة حبل النطاق . فتودّع من أولئك الأجلّة وزيارة الأئمة سادة الأمة 0 ورجع بعد زيارة بيت الله الحرام وزيارة سيد الأنام إلى بلده جزّين ، معدن الكرم والعلم والدين ، فأقرّت به عيون العباد والمحبين ، وأقبلت إليه أهل البلد ، وحضر لديه الخاص والعام . وسار ذكره في الآفاق . وصار فضله لا يخفى كالشمس في رابعة النهار . ولم يزل مشيّداً لدين الله ، وفي أكثر السنين حاجاً بيت الله ، إلى أن قتل ذبيح الله .

قال، ولقتله أسباب ، وهي أن رجلاً علماً فاضلاً بزعمه ، من علماء الشافعيّة ، وهو عبّاد بن جماعة ، كان شريكاً له في الدرس في أوايل التحصيل والدرس في المعقول ، كالنحو والمنطق والأصول ، على بعض الشيوخ في الشام والقدس ومصر والغرب . فلما رأى طيران الشهيد في زمان قليل إلى معارج الكمال في العلوم كلها العقليّة والنقليّة ، وعلم أنه قد حاز من العلوم الأدبيّة واليقينيّة بأوفر نصيب . وضرب في ساير العلوم بقدحي المعلّى والرقيب 0 ورأى رجوع الناس إليه في التدريس والاستفتاء في الشام وغيرها 0 ورأى ملوك زمانه قد أقبلت عليه ، وجميع الأحكام الشرعيّة قد رُدّت

هوامش :

ـــ (ادنى الصفحة) : والتمس منه فضلاء الحلّة أن يبيّن مشكلات الإرشاد في أيام تدريسه (باقي الهامش مُشوّش) 0

---

(6) عبارة : " فأبى ..... الخ. " وردت في الهامش مع إحالة إلى موضعها من السياق 0

إليه . وهو بين العام والخاص على الطريقة المحمودة . وقد طلع من أفق العالَم كواكب ذكره المسعودة . وركب متن الشريعة الغرّاء . ولزم المحجّة البيضاء . تحرّك عرق الحسد والعصبيّة في نفسه الخبيثة . فسعى بالفساد ، وبالغ في التشنيع بين العباد على الشريف الشهيد شمس الدين محمد بن مكّي . وقد دفع أموالاً كثيرة . وبذل أجناساً غزيرة لتعلو كلمته وتنفذ شوكته وتستقر أحكام الشريعة إليه بانفراده . فلم يحصل على طائل . ولم يرجع إليه في الشام شخص يُعتبَر . ولا أقبل عليه أحد بالخير يُذكر . فاشتد لذلك غضبه ، وغلظ حسده ، فاتهمه حينئذٍ بالرفض ، وشنّع عليه عند علماء السنّة وعند الملك بيدمر. وأظهر ذلك في المجالس والمجامع المعتبرة في الشام وصيدا وحوران وبيروت وطرابلس وغير ذلك. وشدّد في ذلك ، حتى أنه قد استعان بكبار الشام . فضيّقوا عليه أنه لا يخرج من الشام أبدا. وحُبس في القلعة خوفاً من أن يخرج من أيديهم وينطق بأقاويلهم الباطلة وخيالاتهم الفاسدة عند جميع الخلق في الأقطار . [... ...] [7]

هوامش :

ــ بموازاة السطرالرابع: فيه لطيفة شريفة هي سنة تاريخ قتله قدّس سرّه [يعنى بحساب الجمل].

ــ بموازاة السطر الرابع عشر : قيل أن ابن جماعة كتب إلى الشهيد هذا الشعر رداً على الشيعة في صحّة المتعة :

قالوا الروافض نحن أطيب مولداً قولٌ جرى بخلاف دين محمد
نكحوا النساء تمتعاً فولدن من تلك النساء فأين طيب المولد

فأجابه الشهيد :

إن التمتّع سُـــــنّةٌ مفروضــةٌ ورد الكتاب بها وسُـنّة أحمــد
وروى الرواة بأن ذلك قد جرى من غير نُكرٍ في زمان محمّد
حتـى أتــى عُمـــر فكـدّر صفـــــو ذاك المـــــــــــــوردِ
وباقي النص مشوّش 0

---

(7) كلمتان غير مقروئتين

ولمّا أدخلوه القلعة اختص مجلسه بعلماء الشام ومعتبريها وصاروا [2 / آ] يترددون إليه في كل يوم . وكانوا يناظرونه ، أي يجادلونه[8] ، في كل علم في المعقول والمنقول ، على جميع اختلاف العلوم . فيوضح ما يقولون ، ويكشف عمّا يسترون ويكتمون ، ويُصحّح ما يفسدون . ولم يزل في كل يوم ينشر عليهم لآلي [9] فوايده السنيّة ، وفي كل ليلة يعمّهم بجوامع ألفاظه المُضيّة ، بما يليق بحالهم من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة . رداً على ابن جماعة ، بمحضر الأماجد [...] [10] ما ينسبه إليه من العقائد بما

هوامـش :

ــ بموازاة السطر الرابع : وقد كتب ابن جماعة للشهيد وهو في القلعة رداً على الشيعة في صحّة المتعة .

ــ بموازاة السطر السادس : سنة كاملة (والظاهر أنها إشارة إلى مدة بقاء الشهيد قيد الحبس)

ــ بموازاة السطر السابع من الجهة اليسرى من الصفحة : وكان ورود محمد الآوي في أول الشهر الثاني عشر من السنة التي ضُيّق عليه فيها . وقد كتب له اللّمعة وهو في الحبس في سبعة أيام لا غير .

ــ بموازاة السطر الثامن من الجهة نفسها : وقد كتب علي بن مؤيّد إلى الشريف الشهيد ثلاث مرات . فكتب له وهو في العراق مرتين . وهذه الثالثة في الشام . واتفق أنه وهو في الحبس لا يمكنه الخروج ولا الخلوة . ولولا خوف الإطالة لذكرتُ جميع المكاتبات ولفظها . ولكن مَن أراد معرفة ذلك فعليه بنسيم السحر .

ــ بموزاة السطر الثامن من الجهة اليمنى من الصفحة : بعد ثالث مرّة ، وقيل أكثر .

---

(8) عبارة " أي يجادلونه " وردت في الهامش مع إحالة إلى موضعها من السياق .

(9) في الأصل : لئالي .

(10) كلمة غير مقروءة .

هو أحسن عقلاً ، وبما اتُّفق عليه شرعاً وعقلاً . وبقي في القلعة . فبينما هو في تلك الحال إذ قد ورد عليه مكتوب علي بن مؤيد سلطان العجم وملك خراسان وما والاها ، مع رسوله الصالح العارف الكامل الذكي الأديب شمس الدين محمد الآوي . وكان بينه وبين الشريف الشهيد شمس الدين محمد بن مكي مودّة ومكاتبة على البُعد إلى العراق ثم إلى الشام . فطلب منه أخيراً التوجّه إلى بلاده . في مكاتبة شريفة أكثر فيها من التلطف والتعطف والتعظيم والحث للشيخ الشريف بن مكي. كما قد كان كتب له سابقاً غير مرّة ، فاعتذر إليه وكتب جواباً شريفاً لطيفاً معتذراً ، كما قد كان اعتذر إليه سابقاً . وكتب له مع الجواب رسالةً شريفة ، مُشتملة على المسايل العجيبة والنكات الغريبة والنصايح والمواعظ . بما يناسب حال الملوك في مجالسها . وبما يكون فيه بقاء ملكها . فلما رآها الصالح العارف الأديب شمس الدين محمد الآوي فقال ، هذه الرسالة حسنة جداً ، ولكن لا تصلح ولا تناسب إلا له [11] ولأمثاله . فينبغي أن تكتب شــيئاً ممّا يعمّ نفعه ويكثُـرُ
فعله في كل آن وزمان . لأن قولكم الآن علينا حجّة . ونحن لا يمكن أن نصِلَ إليكم

هوامش :

ـ بموازاة السطر الثاني عشر من الجهة اليمنى من الصفحة : وهذه الرسالة التي كتبها قبل . وجميع ما كتبه لعلي بن مؤيد في اثنى عشر يوماً. اللمعة تمت في سبعة أيام، وتلك في ستة أيام .

ـ بموازاة السطر الثالث عشر من الجهة اليمنى من الصفحة : ولما أخذ شمس الدين ما كتبه الشريف الشهيد وردّ إلى العراق [...] وفي كاشان ، فكتبوها (عدّة كلمات مشوشة) ومن كاشان قد كتب مكتوبات شمس الدين محمد الآوي ومعه شعر يتضمن مدح الشهيد ومصنفاته التي رآها منه . وهي مكاتبة حسنة وشعر بليغ ، قد ذكره في نسيم السحر .

---

(11) عبارة " لاتصلح ولا تناسب إلا له " وردت في الهامش مع إحالة إلى موضعها من السياق .

في كل وقت . فاستصوب كلامه ، واستحسن مقاله . ثم شرع في تصنيف اللُّمعة . فلمّا شرع فيه فلم يدخل عليه أحد [12] ذلك اليوم ، وكذا ما بعده إلى مدّة سبعة ايام . وكان تمامها في سابع يوم . ولم يدخل عليه أحد قط إلا خادم لا يتوقف بمجلسه . فلمّا فرغ في اليوم [السابع] [13]كثُرت الناس عليه والعلماء والوزراء وأرباب الدول كعادتهم رجعوا إليه . فبينما الناس يتردّدون إذ قال له رجل ممّن له مزيد صحبة مع الشريف شمس الدين محمد بن مكي : " إني في كل يوم كنتُ أحبّ الحضور عندك والاستفادة منك . وكلما عزمتُ على أن انقل قدميّ يعرض لي عارض ويمنعني . ورأيتُ مرّة في المنام قائلاً يقول لي ، لا تمضِ[14] إلى عند الشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكي إلا بعد سبعة أيام ، فتعجبتُ من ذلك " . فقال له الشريف الشهيد : " الله عالم السراير ومطّلع على الضماير . ولعل الخير فيما وقع في قضايه وقدره " .

ولمّا انقضت السنة عليه وهو في القلعة [15] ورأى منه الناس ما قد رأوا من الآداب وحُسن العشرة والأجوبة وبليغ الألفاظ [2 / ب] في المجالس . ولم يقع لأحد عليه اعتراض ، ولا صدر عنه شئ يوجب الانقراض ، فأُخبر بيدمر بأن الشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكي قلب بالغ في الانصاف ، والردَّ على بن جماعة وكل بهتان قيل فيه بالأدلّة العقليّة والنقليّة ، بالأحاديث النبويّة والآيات القرآنيّة ، وبأقوال العلماء والحكماء الذين يُشار إليهم في البريّة ، فانظر ماذا ترى . فلما بلغ بيدمر ذلك وعلم كذب الوشات ، وما ابتدعوا العداة ، تعجّب من أمره وحُسن صبره . وقال : " لأي شيءٍ لم يخبرنا بحاله ولم ينبئنا بمقاله ؟! " . ثم كتب له كتابةً من قِبل نفسه ، من غير أن

---

(12) في الأصل : أحداً .

(13) مابين القوسين زيادة اقتضاها السياق .

(14) في الأصل : لا تمضي .

(15) في الأصل : اللقلعة .

يطلب منه أو يلتمس له ، جبراً لخاطره ، وتعظيماً لشأنه ، وجلالة لمقامه ، وتعرّضاً لمطالبه ، وقضاءً لحوائجه .

فقيل للشيخ شمس الدين الشريف الشهيد محمد بن مكي : " ينبغي أن تكتب شرح حالك ، لدفع ما لعلّه أن يقع بك وبولدك او بمالك ، بسبب قول الواشي " . فأبى ذلك . فألحّ عليه فلم يفعل ذالك . ثم قيل له أيضاً ، فحينئذٍ قال : " يجب على المرء أن يسعى بما فيه خلاص نفسه أو صلاح نفسه " . فكتب إليه مكتوباً بما يحسن أن يخاطب به الملوك وأرباب الدول والسلوك ، بما اقتضاه الحال والمقام . ومن ذلك القول البليغ والنثر الفصيح الذي كتبه الشيخ هذا الشعر :

أيا بيدمـــر يا مالـك الناس رحمـةً أجـرني من القوم الوُشـــاة الأعاديـا

رمـونـي بزُورٍ ثـم أفـكٍ وحق مَن جعلـــك مليكـاً حاكماً يـا عمــاديـــا

فاسمكم المحروس خمسةُ أحرفٍ إذا استُبطنَت تجلي القلوب الصواديا

فبر أوّلُ ثم اخر لكل امــــرئٍ فـــي الشـــام حضر وبـــاديـــا

فلا تسمعن ما قيل عنّـي فإنّـنـي بـــرئٌ وربّـي شـاهـدٌ فـي معاديــا

عـليمٌ بأنســاب النبـي وآلـــهِ وأصحـابـُه الأخيـار ذُخـري وزاديـــا

كــذاك كتـــابُ الله أبلـغُ شـاهدٍ وتفسيره ثـم الحديـث رشـــاديـــا

ونحوٍ وصرفٍ [ثم] فقهٍ وحكمـةٍ وأصلين مع [علم] البيان قياديــــا

وشـعرٍ طريفٍ مـع عَـروضٍ ومنطـقٍ

وعـلـم بـديـعٍ آلـــتـي وزنــــاديـــــا

فكُن ناصري يرحمـك ربي على العِـدا

ولـــي راحِمـــاً يرحـمـك يــــومَ التناديـا

وبعد (...) [16] آخر ما كتب من القول البليغ والنثر الفصيح .

---

(16) كلمة غير مقروءة . ومن الواضح أنّ القصيدة مليئة بالأخطاء . والظاهر أنّ كاتبَ نُسختها المجهول قد أملاها من الذّاكرة .

ومضمون ذلك أنه ينبغي التدبر في عواقب الأمور . ومنه أن يعلم ما في الصدور (أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور . وحُصّل ما في الصدور . إن ربهم بهم يومئذٍ لخبير) [العاديات / 9 و 10 و 11] ومنه أنه يجب على العاقل العمل بما ورد في الشريعة المُطهّرة ، التي وردت على لسان نبينا محمد خير البريّة ، صلوة الله عليه وعلى آله وصحبه الأكرمين .

قال ، فلما بلغ برقوق [17] كلامُ الشريف شمس الدين محمد [3 / آ] بن مكي تدبّر حُسن كلامه ، وعلم صدق مقاله ، أمر بأن يحضر جميع علماء الشام ، ومَن كان من أهل الحلّ والعقد ، ويحضر الشيخ شمس الدين محمد بن مكي ، ثم يناظرونه ويُناظرهم بما اقتضته الشريعة المُطهّرة . فحينئذٍ حضروا بأجمعهم ، واجتمعوا بأسرهم في الشام ، وحضر كل مَن لـه شان في الأنام . وجرت بينهم المناظرة ثلاثة أيام . والله شاهد والناس ناظرة . وكانوا القوم في ذل واحتفاظ ، وهو بعلوّ عليهم وارتفاع . وظهرت له الغلبة عليهم . واتضح أن الحق معه لديهم . فعلم بذلك العادل برقوق الملك ، فعظُم لديه ، وتوجّه بكل وجه إليه . وكتب له زيادةً على ما مرّ ، بعد [......] [18] وكلمات منيفة . فمنها هذه : " إلى المولى الفاضل الغوث الكاشف العارف [19][......] [18] في

هوامـش :

ـ أعلى الصفحة : وقد كان الذي أخبره من معتبري أهل الشام . وهو مذكور . وما كتبه في كتاب نسيم السحر .

---

(17) الظاهر سيف الدين برقوق بن أنس العثماني اليلبغاوي . أول السلاطين المماليك البرجيّة . حكم : 784 ـ 801 هـ / 1382 ـ 1398 م .

(18) عدّة كلمات مشوشة .

(19) عدّة كلمات مطموسة بالقلم .

والمغارب ، أسوة الفضلاء المحقّقين ، وقدوة العلماء المتبحرين ، شمس الملّة والحق والدين محمد بن مكي . فإنه يختار ما يشاء ويسكن حيث يشاء ، في الديار الشاميّة ، إن اختار الشام، أو صيدا، أو بعلبك ، أو القدس الشريف . فإنك الفاضل المعظم لدينا ، والصادق المُحقّ لِما ورد منكم علينا . فلتسكن أنتم ومَن معكم أبد الآباد في ديار الفضل . ولتُقم أنت ومَن نُسب إليك أبد الآباد في أمصار العدل . ليُهدى بهداكم السالكون ، ويقتدي بكم الراسخون . فأنت تاج الشريعة، وسراج الحقيقة . أحقّ أن تُتبع . وكلامك أصحّ أن يُستمع " . وخرج من القلعة مُكرّماً مُعظماً .

ثم أنه قيل للشيخ : " ينبغي أن تُقيم في كل مكان ذكراً ، أو في بعضها . الفصل الذي يناسب لرضا الخليفة المؤيّد والمنصور المؤيّد . وكان قدّس سرّه إذا حضر في مكان من الشام أو بعلبك أو صيدا [20] يُدرّس ليلاً في مذهب الشيعة للخواص من الشيعة تقيّةً . وبقي على ذلك مدّةً ساعياً في تشييد الدين ، وإرشاد الناس إلى الحق المبين . مُعيناً الضعيف ، ناصراً للمظلوم ، مُغيثاً للملهوف مؤثراً [21] على نفسه إخوانه ، مُروّجاً للأحكام الشرعيّة ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، راحماً للصغير ، مُوقّراً للكبير . لا تأخذه في الله لومة لايم . إلى أن خرج [خارج] [13] وادعى النبوّة وارتدّ عن مذهب الإماميّة وخرج عن الدين . وكان اسمه محمد بن تقي الدين الخيامي [22] البابلي . وفعل أشياء بالسحر والشعبذة ، ممّا يُتعجّب منه غاية العجب . وأكثر القرى مالت [23] إليه ، وجميع الناس الهمج أنكرّت عليه لما رأوا منه من [3 / ب] إظهار العجايب وأفعال الغرايب . ممّا لو ذكرته لطال .

هوامش : ـــ بموازاة السطر الحادي عشر يسار الصفحة : هذه الأماكن الأربعة أحسن ما يكون في المدن في بلاد الشام ، هي وقُراها حسنة جداً . وجزين بلد الشهيد من قُرى صيدا .

---

(20) عبارة : " من الشام أو بعلبك أو صيدا" وردت بين السطرين ، وكأنها شرح لكلمة " مكان "
(21) في الأصل : مأثراً . (22) في الأصل : " الجبائي " وهو تصحيف (23) في الأصل : مالة .

منها أنه قد كلّم الناس الذين في جبل عرفات في وقت الحج ، وهو واقف على ظهر البرج الذي بناه وتحصّن به . وقيل أنه قد كان عهد إليهم وطوى [24] الهواء على ذلك . فلما رجع الحاج سألهم مَن كان حاضراً أو سامعاً ، فقالوا ، نعم نادانا وقال كذا وكذا .
ومنها أنه قد أظهر يوماً البساتين ، وفيها الأشجار والأزهار . وذلك بالشعبذة . فأُخبر الشيخ شمس الدين محمد بن مكي حينئذٍ ، وكان قريباً لذلك المكان الذي فعل به ذلك ، ولم يعلم أن الشيخ شمس الدين محمد بن مكي في ذلك المكان . فلمّا [25] علم الشريف محمد ، فقال : " أيها الناس لا تعجبوا من أشجاره وأزهاره التي رأيتموها . وانظروا الآن ماذا يُفعل بزروعه وخضره التي توهمتموها . قال ، فأخذ ورقة وقطعها أربعة قطع ، وكتب على كل ورقة شيئاً من الاسماء . ثم رمى تلك الأوراق في الهوا [26] إلى الجهات الأربعة ، الجنوب والشمال والشرق والغرب . فلما رمى تلك الأوراق ، فما كان أقل من لحظة إلا وقد ظهر جراد منتشر من كل ناحية ، وقد غطى الأرض والأفق . والناس ينظرون ذلك . فأكل ما قد كان صنع بسحره وشعبذته ، وكأنها لم تكن .

هوامـش :

ــ بموازاة السطر الخامس عشر يسار الصفحة : وأمّا في بلده جزين وفي قرى جبل عامل لا يوجد أهل السنّة فيُدرّس ما شاء ولكن في تقيّة . وأمّا في المدينة كان ليلاً للشيعة ، والنهار (ثم عدّة كلمات مشوشة) .

ــ وكأنه قصد [...] (خرم في الورقة بمقدار كلمة) مكان مدّة لأجل تعليمهم (أيضاً) على الدين .

---

(24) في الأصل : وطوا .

(25) في الأصل : فلم .

(26) في الأصل : الهوى .

ثم أرسل إليه الشيخ شمس الدين بن مكي جماعة من المسلمين على أن يترك هذه الشعابذة ، ولا تكن من الجاهلين ، ولا تشغل الناس عن الدين بما لا يجوز في شريعة سيّد المرسلين . فلم يرتدع ، ولا لقوله سمع . ثم أرسل إليه ولده الشيخ الصالح النجيب الأصيل الشيخ ضياء الدين [27] ، وأرسل معه أربعين عالِماً من تلامذته الأخيار ، ومعهم جماعة من أولي الأبصار . فلما ساروا إليه لينصحوه ، وبالموعظة الحسنة لعلهم ينفعوه ، وعن جهله يردعوه ، علم بذلك فتلقاهم للقتال في وادي زبدين ، وهي قرية من قرى الشقيف [28] ، ومعه جماعة كثيرة . وشرع يقاتلهم ويتهدّدهم . فقالوا : " سبحان الله . نحن ما أتيناك للقتال ، ولا للشنيع من الأقوال " . فقال : " إني أريد أن أرميكم بالفظيع " [29]ثم غدرهم ، وبسؤ صنيعه قد قتلهم ، إلا خمسة منهم ابن الشيخ شمس الدين محمد ، ضياء الدين علي المذكور . فإنه قد تركهم .

ثم أنه قال للشيخ ضياء الدين: "إرجع إلى أبيك الشيخ الفاضل المجيد وقُل له أن يتركني، وفي أفعالي لا يتعارضني" فلمّا صدرمن المُرتدّ ما ذكرنا، رجع ولد الشيخ شمس الدين محمد بن مكي إلى بلده جزّين، فأخبر أباه بما جرى و بماقال . ثم أخبر أباه أيضا

هوامــش :

ــــ بموازاة السطر الرابع عشر يمين الصفحة : الشيخ ضياء الدين شريف أيضاً من أمّه ، فهو من بني الحسين ، حسيني .

ــــ بموازاة السطر الثامن عشر ، يمين الصفحة أيضا : وقبورهم إلى الآن مشهورة ، يُقال لها قبور الشهدا . في الوادي الذي تحت زبدين . نسيم السحر .

---

(27) أبو القاسم ، ضياء الدين علي . أوسط أبناء الشهيد الثلاثة (ت : 856 هـ / 1452 م)

(28) هذه الملاحظة من الكاتب صحيحة . ممّا يدل على أنه عارف بجغرافيّة جبل عامل .

(29) في الأصل : الفضيع .

بأن جميع قرى البلاد ، من السواحل كلها وما فوقه ، قد مالت إليه وتابعوه على فعله القبيح . ولم يبقَ على طريق الصواب إلا القليل من القرى والأصحاب [4 / آ] .
فتكدّر لذالك وتأمّل وقال : " لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم . إن هذا الضالّ قد ارتدّ عن شريعة سيّد المرسلين . فزجره وردعه عن أفعاله القبيحة وحركاته الشنيعة بالقتال لعلّه يستلزم أن يُقتَل مَن لا يستحق القتل من الجانبين . فإنّا نتأمّل في أمره إن شاء الله تعالى بما يليق . وإن الله بنا لرؤوف شفيق " .

فحينئذٍ كتب إلى الملك بيدمر : " من بعد التحيّة وشرح القضيّة . إن رجلاً من السواحل قد ارتدّ عن مذهب الإسلام . وإنه قد ادّعى النبوّة بعد نبيّنا سيّد الأنام . وفي الصحيح أنه مَن ادّعى النبوّة بعد سيّد المرسلين يُقتَل باتفاق المسلمين . ولقوله عليه السلام ، لا نبي بعدي . ولقوله تعالى (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) [الأحزاب / 44] . وأنه قد أضلّ كثيراً من المسلمين . فيجب على الرؤساء من الملّة الحنيفـــة

هوامــش :

ــ أدنى الصفحة من الجهة اليمنى : السواحل قرى متعدّدة من صيدا إلى مدينة صور .

ــ أعلى الصفحة ، مع خط طولي يصل إلى كلمة " السواحل " في المتن : الساحل غير الجبل . وهو قرب البحر .

ــ أعلى الصفحة من الجهة اليسرى : وإنه لا ينبغي القتال بين المسلمين . فكيف مع الأصحاب والمحبّين . وأكثر القوم أقارب كلهم على الدين القويم . نسيم السحر .

ــ بموازاة السطر الثالث من الجهة اليسرى : فكتب الشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكي إلى بيدمر . نسيم السحر .

. بموازاة السطر العاشر يسارها أيضا : الرافع لأعلام الرايات الدينيّة ، والقامع لمعاند الشريعة النبويّة . خلّد الله ملكه ، وجعل الدنيا [كلمة مشوشة] ملكه بأن يقابلنا بجنوده المشكورة ، وأن يساعدنا بعساكره .

المحمديّة المساعدة والمبادرة على قمع مَن خالف الشريعة المُطهّرة بارتداد ، وإقامة الحدّ على مَن ظهر منه فساد أو عناد . وإن الله تعالى قد منّ عليك بالرياسة الدنيويّة . وإن الله جلّ شأنه قد أنعم على هذا العبد بمعرفة الأحكام الشرعيّة التي جاء بها نبينا محمد سيّد المرسلين صلوات [30] الله عليه وعلى أصحابه أجمعين . فيجب علينا العمل بمقتضى أوامره ونواهيه . وإنه يجب عليكم مساعدة الشريعة الغرّاء لدفع هذا الضالّ .

فالمسأول والمأمول من الخليفة القاهر الباهر والملك الناصر العادل أن يساعدنا بجنوده المشكورة وعساكره المنصورة لردع هذا الضالّ المُضلّ عن الشرع الشريف ، والمُرتدّ عن الدين المحمدي الحنيف " . فركب بجنوده وعساكره [31] بيدمر سريعاً . وأرسل إلى الشيخ شمس الدين محمد بن مكي وأخبره بسيره بجنوده وعساكره . فتلقاه الشيخ شمس الدين إلى وادي الزريريّة [32] . وقال : " ههنا النزول لفصل هذه القضيّة " . فلمّا

هوامــش :

ـ بموازاة السطر الثاني عشر يسار الصفحة : فتلقاه الشيخ شمس الدين محمد بن مكي وجميع أهل جزين وجميع قرى جزين والريحان ومشغرة وأهل النواحي الجبيليّة 0

ـ بموازاة السطر السابع عشر يسار الصفحة : وخالفت نصيحة كل صاحب وصديق . تحتها بمقدار سطرين : قد شيّدتها [يعني الحصون الوارد ذكرها في المتن]

ـ بموازاة السطر الأخير يسارها أيضا : إلى بعد الاجتماع معك منفردا .

ـ بموازاة السطر الثامن يمين الصفحة : لزوم المحجّة البيضاء .

ـ بموازاة السطر الثالث عشر يمين الصفحة : وكان بيدمر بالقدس .

---

(30) في الأصل : صلواة .

(31) عبارة " فركب بجنوده وعساكره " وردت بين السطرين .

(32) الزّريريّة ، أو الزّراريّة كما هو الدائر على الألسنة اليوم ، قرية على التلال المُشرفة على البحر بعد مدينة صيدا جنوباً .

استقرّت العساكر والجنود في المكان المذكور ، أرسل الشيخ شمس الدين محمد بن مكي إلى الرجل المُرتد اليالوشي: "إعلم أنه لا ينبغي منك أن يكون ما قد كان ، ولكن ما قدّر الله يكون وسوف يكون . وأن لنا عليك حقوقاً فلِم تنكرها ؟ وإنك لتعلم أن الله منحنا علوماً لا تعلمها ، من علم السيما والشعبذة وعلم السحر وغيرها [33] . وإني لأسترها وأكتمها خوفاً من الحي القيّوم ، وتصديقاً لنبيّه محمد مخزن أسرار العلوم . وأنت بحقير منه ضللت عن الطريق . وإنك قد خالفت الطريق المصطفويّة ، وملت عن الشريعة المُطهّرة المحمديّة . واعلم بأن هذه الجنود والعساكر قد كانت أرادت السير إليك ، والنزول بخيلها ورجلها عليك ، لسفك دماء ما قد جمعته لديك ، وهدم الحصون التي بنيتها ، جزاءً لِما قد فعلته بسفك دماء المسلمين ، ومخالفة شريعة سيّد المرسلين . ولكن ردّيناها ، وعنك قد صدّيناها إلى بعد الاجتماع بك منفرداً . فإني بنفسي أريد الوصول إليك ، ومعي رجل لا غير . وأنت والقوم الذين لديك [4 / ب] لا تخافوا من أن يقع مني بكم ضير" .

مُلخّص ما كتبه شمس الدين محمد بن مكي .

فلمّا وصل مكتوب الشيخ إليه أبعد القوم ، وبقي منفرداً في البناء ذلك اليوم . ثم سار إليه الشريف الشيخ شمس الدين محمد بن مكي ومعه ولده ضياء الدين علي . فلمّا دخلا عليه في حصنه وقلعته ، فتلقاهما بقلب شديد ، مُصرّاً على ما هو عليه من الحوبة و [....] [34] ارتداده ، وأنه لا تُقبل منه التوبة . ولقد كان قبل دخولهما عليه ، وحال سيرهما إليه ، رجل من المخلصين والذابّين عن الحق القويم والدين المتين ، ومن المقرّبين عند اليالوشي ، لكن من الذين ظاهرهم معه وقلوبهم عليه . قد كان عهد إلى الشيخ فإذا أقبلتَ إليه وتوجهتَ إليه ودخلتَ البرج فإني أكفيكه إن شاء الله تعالى . فإني أشهد بالله أنه مُرتدّ وكاذب في دعواه ، وأنه من الضالّين المُضلين . فلمّا دخل عليه

---

(33) عبارة " من علم السيما ...... وغيرها " وردت بين السطرين .

شمس الدين محمد بن مكي والشيخ ضياء الدين علي قُضي أمره . والله بالغ أمره .

ثم أن الشيخ قد أرسل ولده إلى الجماعة التي كانت مُجتمعة لديه ، وإلى بقيّة أهل القرى ليسألهم : " هل كنتم صدقتم دعواه ، أو أنتم اعتقدتم ما صنعه وافتراه ؟ " . فلمّا سألهم قالوا : " حاشا لله . بل كان عندنا من الكاذبين . وكنا نعتقد أنه قد ارتدّ عن الدين . لكن لمّا بالغ في بذل المأكول والملبوس ، والناس أكثرهم عبيد ما يأكلون ويلبسون". حتى أنه قد نُقل عن ولدٍ مراهق قد قال لأبيه : " أبتي ، اليالوشي نبي هو ؟ " فقال أبوه : " يابني ألا ترى إلى كثرة [35] هذا الكباب . يابُني، إذا قيل نبي، فقُل نبي ونُص [36] . يابُني كُل من هذا الكباب وقُصّ حتى تغُص" . وقال : " يا بني ، إذا قالوا الناس إن العجل رب ، فنحن نأخذ الحشيش ونُطعمه . فليس علينا من كذب [.......] [37] . الدين له مَن يحفظه ويحميه ويُقيمه . والدين فضل من الله . والله يؤتي فضله مَن يشاء " انتهى .

فحينئذٍ قد رُدّت الناس إلى مأمنهم بعد خوفهم من برقوق وعساكره . وأمر الشيخ ضياء الدين أبن الشيخ الناس أن يردّوا إلى منازلهم . بعدما نصحهم ووعظهم . وصاروا مطمئنين على ما كانوا عليه من الدين لله رب العالمين .

هوامــش :

ـ بموازاة السطر الأول يمين الصفحة : مُلخّص ما ذُكر عنه .

---

(34) كلمة مشوشة .

(35) في الأصل : كثرت .

(36) أي : نصف في المحكيّة الشاميّة ، ومنها الدائرة في جبل عامل . وهذه إمارة واضحة على أن النص متصل بأصول محليّة عامليّة .

(37) عدّة كلمات مطموسة .

وجلس الشيخ ضياء الدين علي مدّة في السواحل ، لإرشادهم ووعظهم ودلالتهم على الدين ، كما هو شأن العلماء الأبرار الأكرمين الأخيار . والشيخ الشريف شمس الدين بن مكي في بلدة جزّين . والناس مُقبلة عليه ، والدرس في كل وقت وحين . حامدين شاكرين . برهة من الزمان ، مُستقرين آمنين ومُطمئنين .

فبينما هم في ذلك إذ قد خرج رجل اسمه يوسف بن يحي ، وارتدّ عن مذهب الإماميّة أيضا ، وصار عدواً للإماميّة . وشرع في التشنيع عليهم عموماً ، وعلى الشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكي خصوصاً . وأظهر بعض مصنّفاته ، ممّا يظهر منه تشيّعه ، كرسالة [5/ آ] المقدسيّة ، ورسالة الدرّة المُضيّة في الأحاديث المرويّة ، وكتاب جامع البين ، وغاية العالمين ، وغير ذلك من الأجزاء التي لم يُذكَر لها اسم . وكتب محضراً شنّع فيه عليه بأنه شيعي وعُمدة الشيعة ومرجعها والمُروّج مذهبها . وهذه

هوامــش :

ــ أعلى الصفحة : [ما] كان معه إلا ابن جماعة . فإنه دائماً عليه ، حسداً وبُغضاً . ولم يتم لهم المُراد . والله ولي العباد . وإن الله لا يحب الفساد .

ــ أعلى الصفحة أيضاً ، مع خط مُتصل بعبارة " لم يكن لها اسم " من المتن : وكانت كلها من مُصنّفاته . وله رسايل عديدة وكتُب أخر أشهر . لكنها قد رُميت بسبب المرتد المذكور . فإنها الذي سعى في اختفاء وذهاب كتبه .

ــ بموازاة السطر الثامن يمين الصفحة : قصدوا إحضاره في القدس لبُعده عن الشام وعن وطنه ، خوفاً من أن يظهر له ناصر أو أحد يشفع من عظماء الشام وكبارها ، لأن (كلمة مشوشة) كلهم .

ــ بموازاة السطر السابع يسار الصفحة : مدينة صيدا هي مدينة جبل عامل والقدس ، بينها وبين عاملة بلاد صفد وسفر أربعة أيام أو ستة . بيروت مدينة حسنة على شاطئ البحر قرب طرابلس .

الكتب بخطه وتشهد بذلك . وكتب معه ووافقه على الارتداد عن مذهب الإماميّة والخروج [عن] [38] طريق الحق سبعون رجلاً من الجبل ، ممّن كان يعتمدُ مذهب الإماميّة ويعتقده . وألفُ رجل من السواحل ، ممن كان ظاهرهم التسنّن ، بُغضاً وحسداً وعناداً للشهيد شمس الدين محمد بن مكي . حيث أنه آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر . وانه مرجع للخاصّة والعامّة . وكتبوا بخطوطهم ، وعرضوا ما كتبوه في ذلك على قاضي الشام ابن جماعة ، وقاضي صيدا ، وقاضي بعلبك ، وقاضي بيروت ، وقاضي القدس ، والخليل . وسعوا بأن يُحضر في القدس والخليل . فأُحضر فيه الشيخ شمس الدين محمد بن مكي ، وقُري عليه المحضر الذي كتبوه . فلمّا قُري عليه بمحضر جمع عظيم في القدس ، فأنكروا عليه أشدّ الإنكار . فقيل له : " كيف يكون منك هذه الأشياء التي قد سمعتها ، والكتب التي قد صنفتها؟ " فأنكر ذلك للتقيّة الواجبة ، ولزيادتهم في البهتان. فقيل: " ألا ترى إلى هذه الشهود ؟ " فقال:" سبحان الله. ماشاء الله. هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. فالله يجمع بيننا وبينكم وله الحكم وإليه ترجعون" .

ولمّا صار في هذا المحضر ما صار من المناظرة والمعارضة ما لا يمكن نشره ولا حصره ، وهو بإذن الله ومن جوده وكرمه مُسلّط العلم الشريف عليهم . ومع كثرتهم عليه وحسدهم له ، فله الخطر والعظمة لديهم .

ولمّا علم بذلك برقوق ، بعد إحضارهم لديه ومناظرتهم له ، وأن له عليهم الغلبة والقوّة الباهرة في علم المعقول وعلوم الآخرة ، فغضب على مَن سعى في ذلك . وأمر بردّه إلى الشام وإلى حيث شاء . ويكون مقـدّماً على الخاص والعام . فرجع إلى الشام لأمور اقتضت ذلك . وأضمروا له السوء القوم اللئام [39] . واضطرمت نار الحسـد في جلودهم . وأُغرقت في بحار الظلمة قلوبهم .

---

(38) زيادة لتصحيح السبك .

(39) في الأصل : الآم .

ولمّا رُدّ إلى الشام وأقام بها مدّة من الزمان ، والناس مُقبلة عليه للاستفادة كما كان، بين فايدة يُبديها، أو ضالّة يهديها. نهاره في التدريس والإفادة، وليله في التفكير في جنب الله سبحانه وتعالى والعبادة إلى يوم جمعة ، والناس تسعى إلى المسجد الجامع ، والناس يأتونه من كل جانب قريب وبعيد. وإذ قد دخله الشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكي للصلاة . وكان حينئذٍ ممن يترقّب وروده وقدومه ودخوله إلى المسجد المذكور من القوم الذين ضلّوا عن سماء الطريق . وقد كان كتب أسماء العشرة المُبشّرة ، ونوى أنه إذا دخل وضعها في حذائه. فإذا خرج من [5/ ب] المسجد يرميه بالزور والبهتان . ففعل ذلك . فلمّا خرج الشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكي أحضروا له الحذاء ، فسقطت منه الأوراق ، وهي عشرون ورقة ، في كل حذاء عشرة . فلمّا سقطت منه الأوراق المعهودة ، قرأوا ما فيها من الأسماء العشرة المُبشّرة ، فغضبوا لذلك . ونادوا بأعلى أصواتهم : " ألا ترون إلى الشيخ شمس الدين بن مكي ، الذي يُعظمه برقوق وغيره ، وهذا فعله . ألا ترون علامة رفضه ؟ " فبادرت الناس . واجتمع خلق كثير ينظرون . وهم ينظرون سوء فعلهم ، ويسمعون أكاذيبهم . والمُنادي ينادي بينهم في أسواق الشام : " مَن كان مسلماً فليساعد على إحراق ابن مكي " . فاجتمع من الخلق ما لا يُحصى . وتعصبوا على الباطل ، والمحب والصديق صار خايفاً ، وهو ساكت .

ولمّا اجتمع رأيهم على قتله من غير مراجعة أرباب الدول ، كبيدمر وغيره ، فقال أهل الشام : " نحن نجتمع على قتله قبل أن يعلم بيدمر فيأمر بإطلاقه كما سبق . وأمّا إذا فعلنا به المُراد فلا يخالف ما اجتمعنا عليه " . ولكن اختلفوا في صفة قتله . فمنهم مَن قال ، نُمثّل به . ومنهم مُن قال ، نحرقه . ومنهم مَن قال ، نضربه ضربةً واحدة بالسيف . فقال قايل : " نُحضر جملين ، ثم نربط يديه في أيديهما ، ورجليه في رجليهما ، ثم نضجّ بهما ، فيقوما بسرعة [40] فيُقطّع قطعاً . فلمّا أوثقوه وربطوا يديه

(40) عبارة " فيقوما بسرعة " وردت في الهامش مع إحالةٍ إلى موضعها من السياق .

ورجليه كما اختاروا ، ثم صاحوا بهما صيحةً عظيمةً ، فلم يقوما ، ولم يزولا عن مكانيهما . فتعجّب الحاضرون ، وتركوا قتله بهذه الصيغة . ونادوا ثانياً : " مَن كان مُسلماً فليساعد على إحراق ابن مكي " . فحينئذٍ قد اجتمع حطب كثير بالرحبة ، عند القلعة . وجاؤا بخشبة غليظة طولها اثنى عشر شبراً ، فأدخلوه فيها ، وألقوه في وسط الحطب . ثم أضرموا النار في الحطب . فاشتعلت واضطرمت النار وهاجت والتهبت ، حتى لهيبها علا على حايط القلعة . والناس ينظرون وينادون : " اللهم أحرِق الخشبة . اللهم أحرِق الخشبة " . فإذاً خمدت النار سريعاً بقدرة الله ، مع كثرة [41] الحطب . ولم تحترق الخشبة . ولا أضرّت بها النار . وذلك فضل من الله العزيز الجبّار . وخرج من الخشبة يُخاطب الجماعة التي لا تُحصى بالتوبيخ على سوء فعلهم ، في غير جرم يستوجب ذلك . والناس قد تعجّبت لذلك . وقالوا:" إن هذا ولي ذو جلال [42]، فلا تضرّه النار ، ولا تقوم به الجمال ". فحينئذٍ طلب دواةً وقرطاساً ، فجاؤا بهما إليه . فكتب على الورقة : " ألك رضىً[43] بأن عظمي تُخلّه . أم لك رضىً بأن دمي تُقلّه " . ثم رمى بها في الهوا [44] إلى جهة القبلة . فرجعت إليه والناس قد رأت رجوعها إليه وما كتب فيها.

هوامش :

ـ بموازاة السطر التاسع يمين الصفحة : ولكن اختلفوا في كيفيّة قتله كيف يقتلوه .

ـ بموازاة السطر السادس عشر يمين الصفحة : حتى الآن في الشام ، في بعض الطرق ، في بعض الأسواق ، إذا رأوا شيعياً قالوا : " اللهم أحرِق الخشبة . اللهم أحرِق الخشبة " .

---

(41) في الأصل : كثرت .

(42) " ذو جلال " وردت بين السطرين .

(43) في الأصل : رضا .

(44) في الأصل : الهوى .

فإذا في قفاها بخطٍ جلي :" فلي الأمر كلّه " . وفي روايةٍ عمّن كان حاضراً [45] أنه قد كتب في الورقة هكذا : " ربي إني مغلوب فانتصر " . ثم رمى بها في الهوا [46] نحو القبلة ، فرجعت إليه : " يا ابن مكي ، إن كنتَ عبدي فاصطبر " [6 / آ] . فسكت حينئذٍ وقال : " إنّا لله وإنّا إليه راجعون . وسيعلم الذين ظلموا أي مُنقلب ينقلبون " .

وكل ما فعلوا بالشيخ الشريف الشهيد والناس مع كثرتها ترى ما فُعل به ، وما ظهر منه من الكرامات ولا يرجعون ولا يندمون ، لِما رأوا ما يدلّ على فضله وجلالة قدره وعظم شأنه عند الله سبحانه وتعالى . بل قال ابن جماعة ومَن تابعه : " ابن مكي إن خرج من أيدينا [47] ولم نقتله فلا يُبقي منّا أحد إلا وقتله، وكل الناس تميل إليه زيادةً عمّا مضى" . لِما رأوا منه مارأوا من عدم حرقه بالخشبة ، وعدم قيام الجملين ، وما رجع إليه في الورقة على اختلاف الروايتين . فحينئذٍ بعد كتابة الورقة وسكوته وخوفهم بأن ينعكس عليهم السوء ، اتفق بن جماعة وقاضي المالكيّة على قتله بالسيف . ثم رُفع على خشبة قدر رُبع ساعة ، ثم نُودي على إحراقه بعدما أنزلوه من الخشبة . فاجتمع حطب كثير وأضرموه بالنار وشبّهوا للناس أنه أحرقوه بالنار إطفاءً للكرامة التي صارت له أولاً .

ولمّا أضرموا له ناراً عظيمة . قد كانوا وضعوه في مكان ودفنوه في عصريّة يوم الخميس تاسع جمادى الأولى سنة 1186 .

ولمّا فعلوا به ما ذُكر لم يكن بأمر برقوق ، ولا أُخبر بقتله قبل . لكن قد نقل الثقات من أهل القدس والخليل أن اليوم الذي قد قُتل فيه الشهيد شمس الدين محمد بن مكي بينما بيدمر في مجلسه بالقدس الشريف ، وعنده جمع في ديوانه قُرب ألف رجل وسيف ، إذ قد سقط بين يديه ورقة بسرعة لها دوي حال سقوطها . فتعجّب الجماعة

---

(45) في الأصل : حاظراً .

(46) في الأصل :الهوى .

(47) في الأصل : ايدنا .

وبادروا إلى النظر فيها ، فإذا فيها " واهاً ثم واهاً لقوم أمروا وباشروا واستحسنوا سفك دم شمس الدين . وويلاً ثم ويلاً على فرقة ارتكبت قتل ابن مكي البَرّ الأمين . وبُعداً وسحقاً لطائفة هذه طريقتهم ، وجرى على ذلك سمتهم " . فتعجّب القوم من ذلك .

وركب سريعاً مسافراً إلى الشام ، قايلاً لعلّ ابن مكي قد وقع به قد ظُنّ بأمري أو بعلمي . فلمّا دخل الشام ، فاتفق أنه قد مرّ على المكان الذي قُتل فيه الشيخ شمس الدين محمد بن مكي . فحينئذٍ قد عثر به جواده ، وقد سقط على وجهه مغشيّاً عليه . ثم أفاق فتشاءم وتطيّر من ذلك الحصان . فقيل له : " إن الفاضل البدل الشريف شمس الدين محمد بن مكي قد قُتل به وفُعل به ما فُعل في هذا المكان " . وغضب على مَن قد غضب عليه . وقد ضرب مَن قد ضربه منهم وصاروا في أقبح الحالات . فكما تدين تُدان . فسبحان الملك الديّان . فلحوم العلماء مسمومة ، وعواقب الظلم وخيمة مذمومة . وبقيت [48] الندامة والحسرة على أهل الشام وعلى الذي رضوا وسعوا من أولئك القوم اللئام [6 / ب] حتى قد وقع عليهم الخسران والمضرّات وأنواع المشقّات ، ما لو ذكرته لاجتمع في كراريس ، ولم يمكن شرحها في القراطيس .

هوامـش :

أدنى الصفحة من الجهة اليمنى :

والناس حال الكتابة يرونه . ولمّا رماها نحو القبلة أيضاً رأوه . وحال رجوعها إليه رأوا منه كرامة و منقبة وكرامة له و (كلمة مشوشة) .

أعلى الصفحة من الجهة اليسرى : واشتبه على قوم كثيرة صفة قتله ، لأن المُحب والصادق لم يرضَ فلم يحضر ذلك . خبرهم كاذب . بل إنهم قتلوه ولم يُحرقوه بل شُبهوا حرقه ، فتوهّم الأكثر ، فأخبر بما اعتقده .

---

(48) في الأصل : وبقية .

ثم أمر بيدمر بأن يُبنى عليه قبة عظيمة ويكون مزاراً مشهوراً ، وبالخير يكون دائماً مذكوراً . فبُني عليه قبة عظيمة . وما جرى عليه من الواشين والمُرتدّين فله أسوة بما قبله من الأيمّة المعصومين الأكرمين وبالأنبياء المرسلين . لأن مصايب الخلق على قدر منازلهم لديه ، وابتلاءهم بالنسبة إلى مراتبهم وإقبالهم عليه . لأن الله العالم بمصالحهم في أُولاهم وأُخراهم . والحمد لله وحده .

وقد ذكر الشيخ الفاضل الصالح الشيخ محمد بن علي بن الوحيد البتدّيني ، في مجموع له قد كتبه بخطّه ، جميع أحوال الشريف الشهيد شمس الدين محمد بن مكي ، من حين مولده إلى حين قتله في عصريّة يوم الخميس تاسع شهر جماد الأول 1186 ، على نحو ما ذكرنا إلا في يسير من بعض الألفاظ . وقد ذكرناها جميعاً من غير اختصار . كما ذكر في غير موضع بعض الأصحاب . وما ذكره الشيخ الافضل المجيد محمد بن علي بن الوحيد في مجموعه هكذا صورة ما ذكره : " لقد كان شيخنا الفاضل المحقّق المدقّق ، علاّمة دهره ووحيد عصره ، عديم النظير [49] في المشارق والمغارب . أقرّت لفضله الأعاجم والأعارب . ولقد جدّد شعاير سُنن الحنيفيّة ، وشيّد دين الفرقة الإثنعشريّة في جبل عاملة . وبه اقتدى بعده مَن رام تحصيل الفضايل .

هوامش :

ـ أعلى الصفحة من الجهة اليمنى : قد نُقل عن الثقات أنه مَن مرّ بذلك المكان لم تُقضَ له حاجة في ذلك اليوم قط ، مُجرّب . والآن لا يعلم هذا المكان إلا الخواصّ من الشيعة ، أنه المكان الذي قُتل فيه الشهيد . وأمّا السنّة وأكثر الناس يظنون أنه من شيوخ أهل السنّة والجماعة . كمحمد بن يعقوب في بغداد ، لا يعلمه إلا ما قلّ من الشيعة . والسنّة يعتقدون أنه من شيوخهم .

ـ بموازاة السطر السادس يسار الصفحة : بتدين قرية من قرى جبل عاملة تابع جزين .

---

49 . في الأصل : النضير .

وعلى طريقته جرى مَن تحلّى بالوصف الكامل . قد أمر ورغب في تعمير مساجد الله وشاد بُنيانها ، ورتّب وظايف [50] الطاعات فيها وعظّم شانها . ولولاه لارتدّت أهل جبل عاملة من أكاذيب المُدّعي الساحر اليالوشي . وارتدّ من أمثاله من كل جاهل واشي . فوالله لقد كان سبباً للخير في تلك الأرض ومفتاحاً للدين . ومن ظُلمة الجهل أخرجهم إلى النور المُبين . إلا الذين سبق في علم الله أنهم لم يزالوا في ضلال مُبين " .

" ولمّا قُتل اليالوشي ، فاجتمع أهل السواحل وغيرهم من الأمصار في البلاد الشاميّة ، فقال ، أيها الناس ، فلا يكن في صدوركم شئ على اليالوشي الساحر الكاذب المُرتدّ [عن] [51] طريق الحق . ولا يتوهمنّ أحد منكم أنه كان مُنفرداً بما كان يفعل من الخيالات بالسحر ، وما أظهر بالحركات السماويّة والشعبثيّة . بل يكون غيره أعظم شاناً في العلوم ، وأرفع منازل في ساير الفنون . ولكن لا يعمل ما رأيتم منه إلا المُستضعفين في الدين القويم ، والمّستخفّين بقول الرسول الكريم والأيمة الهُداة [7 / آ] إلى الصراط المستقيم . وإني لأعلم خمسة وعشرين علماً ، أدناها ما كان يستعظمه ويعمل به اليالوشي . وإن الله سبحانه لا يرضى بأن يعمل أحد إلا لدفع سحر ساحر ، أو ليدفع به دعوى مَن ادعى بهذه العلوم النبوّة . أو ادعى شيئاً لا يُجوّزه صاحب الشرع الشريف. صوناً للدين الحنيف ، وطاعةً لله رب العالمين وللنبي وآله الطاهرين ، وحفظ الأسرار

هوامـش :

ـ بموازاة السطر الخامس يسار الصفحة : البدل النحرير الفاضل ، صاحب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة والأحوال الفاخرة والأنوار الباهرة والمقامات العالية والمناقب السامية والمواهب الجليلة والأوصاف الجميلة .

---

(50) في الأصل : وضايف .

(51) زيادة اقتضاها تصحيح السبك .

من العالمين " [52].

ورُوي عن السيّد الجليل النبيل السيد محمد بن أحمد الموسوي البعلبكي ،قال: " كُنّا في بعض أسفارنا في بلاد العرب ، مع شيخنا العلاّمة النجيب الأصيل الشريف أبي عبد الله الشهيد شمس الدين محمد بن مكي المُطّلبي . وكنّا سايرين مع قافلة عظيمة قُرب ثلثماية نفس في بريّة واسعة ، في ليلة مُظلمة . وكانت ليلة تاسع والعشرين من شهر رجب ، قُرب الصبح 3 ساعات ونصف . بينما نحن سايرون في تلك الليلة إذ قد أرعدت وأبرقت ونزل المطر الغزير ، وضلّت [53] القافلة عن الطريق ، وضربها الريح لمكان سحيق . والناس سايرون وهم حايرون . والناس لا يدرون إلى أي جهة ينقلبون . وهم في شانهم مضطربون . فحينئذٍ أمر الشيخ شمس الدين محمد بن مكي أن القافلة تقف وتجتمع . ثم انه جدّد وضوءه وصلّى ركعتين ، ورفع يديه ودعا . فلم يكن إلا قدر طرفة عين إلا وقد سطع نور من السماء إلى جانب القافلة ، شبه عمود كالمنارة ، فأضاءت الدنيا واهتدوا إلى الطريق بقدرة الله الهادي إلى سواء الطريق " .

وذكر لي الصالح الزاهد العابد الشيخ حسين بن محمد الوحيدي البتديني ، قال : " بينما الشيخ الشريف شمس الدين يكتب ويؤلّف [54] كتاب الدروس ، وهو في

هوامش :

. بموازاة السطر الثاني عشر يسار الصفحة : وهذه قد اشتهرت حتى نقلها العلماء في بعض مجاميعه .

. بموازاة السطر الرابع عشر يسار الصفحة أيضا : بتدين من قرى عاملة المهمة من توابع جزين بلد الشهيد قُدّس سرّه .

---

(52) عبارة " وحفظ الأسرار من العالمين " وردت في الهامش .

(53) في الأصل : وظلت .   (54) في الأصل : ويألف .

مدرسته براس النبع ، وهي مدرسة عظيمة جداً و (...) [55] لمحضر الدرس [56] إذ قد دخل عليه رجل ذو هيبة ووقار (...) [57] أن تذهل لحُسن منظره وهيئته القلوب والأبصار [58] ، فأحسن الصحبة معه كثيراً ، وعظّمه تعظيماً جليلاً . وجرى بينهما من المسايل الفقهيّة والأحاديث المرويّة كثير. وممّا سُمع من الرجل ذي الهيبة والوقار يقول للشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكي ، إن هذه العبارة التي ذكرتها في كتابك الدروس ، ما قصدته من معناها والعمل بمقتضاها حق وصدق لكن الناس لا يفهمون قصدك ، ولا يبلغ فهمهم مقدار فهمك . ويقعون في الشطط والغلط ، إن أخذوا بظاهرها ، ينبغي أن تُغيّرها إلى كذا وكذا . ثم (... ...) [59] ستراً خفيفاً ، ونحن في جانب من المدرسة قريبهما . فأقبلتُ نحوهما ، فغاب عني ، ولم أره قط . فتعجّبتُ من ذالك .

فأقبلتُ على الشيخ ومَن كان حاضراً ، فقلتُ : " يا شيخنا ما هذا الرجل الذي ما رأيناه [7/ب] قبل هذا دخل إلى هذه المدرسة، ولا رأينا نظيراً ولا أعظم منه هيبة ووقارا ؟ " . فضحك الشيخ ، وكلّمنا بفايدةٍ أخرى بغير ما سألناه . فعلمنا أن الشيخ لا يُريد أن يُخبر به . فصار بعضنا يتكلّم مع بعض ، واتفق رأينا على أنه المهدي صلوات الله عليه وسلامه .

وذكر الشيخ الجليل الشيخ محمد بن الخازن الحايري أنه قد أجازه شيخه الفاضل المحقّق شمس الملّة والحق والدين محمد بن مكي بالأحاديث الأربعين المرويّة عن النبي صلّى الله عليه وسلّم في فضيلة العلم وحامليه . وهي من الأحاديث الغريبة التي تفرّد بروايتها الشهيد قدّس سرّه ، وهي عندي بخط الشهيد . قال : " أمّا رُوات هذه الأحاديث

---

(55) كلمة مشوشة .

(56) عبارة : " وهي مدرسة ..... الدرس " وردت بين السطرين .

(57) عدة كلمات مطموسة .

(58) عبارة : " القلوب والأبصار " وردت في الهامش ، مع إشارة إلى موضعها من السياق .

(59) كلمتان مشوشتان .

لا يخفى فضلهم على ذوي الأبصار ، ولا يُنكر جلال شأنهم أحد في الأعصار والأمصار" . فأمّا شيخنا وإمامنا العالم الفاضل الزاهد الشيخ الشريف شمس الدين محمد بن مكي المطلبي كان عالماً ماهراً فقيهاً مَحدّثاً مُدقّقاً مُتبحّراً كاملاً ، جامعاً للمعقول والمنقول ، زاهداً عابداً ورعاً [60] شاعراً ديُناً مُنشياً ، فريد دهره ، وحيد عصره ، بل عديم النظير [61]. إليه انتهت رياسة المذهب والملّة . وبه قامت قواطع البراهين والأدلّة . قد جمع فنون العلم ، فانعقد عليه الإجماع ، وتفرّد بصنوف الفضايل فبهر النواظر والأسماع . أرّجت أنفاس فوايده أرجاء الأقطار ، وأحيت كل أرض نزلت بها ، فكأنها لبقاع الأرض أمطار . تصانيفه في وجه الأيام غُرر . وكلامه في عقود السطور دُرر الخ. الخ.

وقال الشيخ الفاضل ، صاحب الهمّة العليّة ، والأوصاف السنيّة الشيخ محمد بن عبد العلي النجدي العاملي في مجموعته التي رواها عن شيخه بالقراءة والإجازة ، قال : " فضايل شيخنا وإمامنا المُحقّق والبدل النحرير المُدقّق ، الجامع بين منقبة العلم والسعادة ومرتبة العمل والشهادة، الإمام السعيد أبي عبد الله الشهيد شمس الدين محمد بن مكي المُطلبي أعلا الله درجته كما شرّف خاتمته ، فأكثر من أن تُحصى أو تُذكَر، وأعزّ من [أن] [62] توصف وتُسطر كان الإدراك عن كنهه قاصراً ، والعلم عن كفايته فاتراً . وهو كريم الأبوين ، عظيم القدر في الخافقين . فايق في العلم والحكمة والآداب . فاضل نحرير في مراسم السؤال والجواب . عالي الهمّة ، كبير النفس ، بعيد الغور ، قوي الحدس ، لطيف العبارة ، وجيز اللفظ ، دقيق الإشارة . ثابت الراي في البأساء والضرّاء . عادل في الخصومات . كامل في الأحكام والحكومات . عـارف بتصاريف

---

(60) في الأصل : ورعياً .

(61) في الأصل : النضير .

(62) زيادة لتصحيح السبك .

الأُمور . واقف على ضماير الجمهور . عذب الكلام . رحيب اليدين [8 / آ] في تحصيل المرام . كثير المناقب والكرامات . والي المناصب في جميع الأوقات . بريء من الأخلاق الذميمة (...) [63] لوحشة والنميمة . ناصح للملوك والسلاطين فيما يتعلّق بشأنهم ، مُعرضاً عمّا في أيديهم . شديد الأنفة في العار . مُعتقد الصالحين والأبرار . ليّن الحاشية في المعاشرة . سهل العريكة في المطالبة . مُقدّم أبناء جنسه . مُربّي نوع الإنسان . يؤثر [64] على نفسه إخوانه . حسن المُداراة . صدوق في الأقوال . مُصيب في الفراسة . مكارم أخلاقه في الآفاق مشهورة ، وطيب أعراقه في الدنيا مذكورة . وجلالة قدره كبُرت عن الذكر وتعالت . وسبق نعمائه وأياديه على علماء الدهر درّت وتوالت . وشرف ذاته ومحاسن وجوامع صفاته آية يقتدي بها المتخلّفون ، ويتحيّر بها الواصفون . وما من إنسان إلا وهو رطب اللسان بذكر ألطافه وإحسانه واتصافه . وهو غايص في أنواع العلوم وجوامع الكلِم . له اليد الطولى في أقسام الرياضيات على اختلافها ، والأحاديث والتفاسير والأنساب والتواريخ ، ومعرفة أسماء الرجال وأنسابها ، والأسانيد وأوصافها . فطِن للمعالي ، مُحسن للأعادي ، مُستفيد من العلويات ، مُدرك بالإشارات . دايم السرور بالله . وافر الأنس مع الطلاّب والأصحاب . كثير [65] الشفقة على الواحد والجمع . عالم بالحكمة الإلهيّة . حافظ الأسرار . مُبغض الأشرار . قوي في حلّ الرموز والبرهان . قد اطّلع على أحوال الماضية. له اليد العظمى في اللطايف الأدبيّة ، والدرجة العالية في المعارف اليقينيّة . مُظهر الرحمة والجُود . مَظهر المعدلة في الوجود. وشأنه إنك لعلى خُلُق عظيم . بيانه ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . قد استفدتُ من أنفاسه الشريفة من جميع العلوم ، المنثور منها والمنظوم . وعرضتُ [66] عليه بعضَ

---

(63) كلمة مشوشة .

(64) في الأصل : يأثر .

(65) في الأصل : كثيرا .

(66) في الأصل : وعرضة .

خيالاتي ، ونتايج أفكاري في خلواتي ، فاستحسنها وأجازني إجازةً شريفةً ، وشرّفني بكلمات لطيفة ، ورفع شاني بكلماته المنيفة " الخ . ما قاله . هذا موضع الحاجة في ذكر السعيد الشهيد شمس الدين محمد بن مكي . وذكر ترجمة أولاده الثلاثة . وذكر الإجازة التي كتب لهم مع أختهم فاطمة المدعوة بست المشايخ قدّس الله أرواحهم .

وقال الشيخ حسن بن سليمان الحلّي في آخر رسالة قد الّفها : " فإن جميع ما ذكرته في رسالتي هذه عن شيخي وأستاذي ومُعتمدي ، شمس العلوم والمعارف . الذي أشرقت بالفضل أقماره وشموسه ، وزخر بالعلم عبابه وقاموسه . فدوّخ صيته الأقطار ، وطار ذكره في مناكب الأرض واستطار . وتهادت أخباره الركبان . وظهر فضله في كل صقع وبان . قد علم من العلوم ما قام بها أحد مُضطلِع ، ولا ظهر على مكنونها مُطلع . استنزل عصم البلاغة من صياصيها ، واستغلّ [67] أصحاب البراعة فشفع بنواصيها . إن نثر فما اللؤلؤ المكنون انفصم نظامه ، أو نظم فما الدرّ المشهور فسُد نظامه . لم يزل مُدرّساً في مدرسة رأس النبع [8 / ب] ببلده جزين . ولم يزل مُجتلياً به وجوه (....) [68] مُجتنياً من رياضه أزهار المحاسن والاحسان ، إلى أن نكّد عليه المرتدّون والوشاة [69] من أبناء الزمان [70] بعد أن أصلح العباد ، وأحيى الدين في البلاد . حتى انصرمت من العيش مدته ، وتمّت من الحياة عدّته . وهو شهيد . والله على كل شئ شهيد " .

هوامش :

. بموازاة السطر الرابع عشر يسار الصفحة : ممّا قد نقلناه من المجموع للشيخ المذكور ، التي رواها عن شيخه. ثم ذكر فيها أحواله وخصايصه. وذكر ترجمة أولاده(كلمتان مشوشتان) .

---

(67) على شك في قراءة الكلمة .   (68) كلمتان أو أكثر مشوشة .

(69) و(70) في الأصل : المرتدين والوشات . وعبارة " من أبناء الزمان " وردت في الهامش .

وله أشعار لطيفة ، وقصايد شريفة . كلها مشحونة بالحكم . وقد رأيتُ مجموعة كُتبت عن خطه الشريف ، قرب أربعة آلاف بيت ، كلها ممّا تفرّد بها من نثره وأشعاره وخُطبه .

فمنها ما قاله بعد انتباهه بعد نوم غلبه عن قيام الليل في سفرٍ له ، وهو هذا :

عظُمت مصيبة عبدك المسكين في نومه عن مهر حور العين

الأولياء تمتعوا بك في الدجى بتهجُّد وتخشّع وحنين

فطردتني عن قرع بابك دونهم أترى لعظم جرائمي سبقوني

أوجدتهم لم يذنبوا فرحمتهم

أم أذنبوا فعفوتَ عنهم دوني

إن لم يكُن للعفو عندك موضعٌ

للمُذنبين فأين حُسن ظنوني

ومن أشعاره اللطيفة الشريفة . وهذا الشعر قد سمّطه [71] ولدُه . وأنا أذكر الأصلَ وتسميطَه . وهو هذا :

بنا قد سمت أوج الكمال جدودنا فنحن بدور لا تغيب سعودنا

وإذ قد أبت درك الهوان جدودُنا غنينا بنا عن كل مَن لا يريدنا

وإن كثرت أوصافه ونعوته

رعينا لمَن أصفى الهوى طيب خيمه وللود شدنا ما اعتفى من رسومه

ولم نبتدي بالعتب غير ملومه فمَن جاءنا [72] يا مرحباً بقدومه

يجد عندنا وداً صحيحاً ثبوته ومَن فاتنا يكفيه أنّا نفوتُه

(71) من التسميط . وهو أن يضمّ الشاعر لشعر غيره صدراً لعجز أو عجزاً لصدر .

(72) في الأصل : جاينا .

ومن شعره . قد كتب إلى ولده :

اصبر على حلو القضاء ومُــرّه واعلـم بأن الله بالغ أمـــره

فالصدر من يلقى الخطوب بصدره وبصبـره وبحمـده وبشـــكره

والحـُرُّ سـيف والدثور لصفـــوه صدأ وصيقله نوايب دهــره

اصبـر فكـم أهمّــك عســرة ليــــلاً فبشّرك الصبــاح بيســـره

وإذا أُصبتَ بما أُصبت فـلا تقُل أُوذيتُ من زيد الزمان وعمـره

وكم بعـد ياسٍ قد أتى فَرَج الفتى في سر غيب لا يمـــرّ بفكره

ومن قصيدةٍ له قد كتبها لأهل بيته وولده وهو في قلعة الشام مطلعها :

سلام على وُلدي وأهلي وأسرتي سلام مُحبّ والفؤاد مشوق

ومنها :

فأوصيكم بالصبر والخير والتقى وحُسن الثنا في العالمين يشوق

وبالإلف فيما بينكـم وبحفظكـم لأولادكم حفظاً عليه يفـــوق

ومنها :

فما الدهر إلا مثل يوم وليلــة تزولا سريعاً والجميل يروق

وما العمر إلا مثل أحلام نايـمٍ ومثل خيام [73]الظل حين يفوق

هوامـش :

ــ بموازاة السطر الثامن يمين الصفحة : قد سمّطه ولده الفاضل الكامل الشيخ ضياء الدين علي قدّس سرّه .

---

(73) كذا في الأصل . ونقترح قراءة الكلمة : خيال . فهو أنسب بالمعنى .

ومنها :

تسلّوا بما قد حلّ بالرسل قبلكم ففيه لمَن رام السلوّ طريـــق

فكم نالهم هـمّ وغـــمّ وكُربــة وقتل وسجن وابتلا ومضـيق

ونسأل رب العــرش تجميع شــملنا

فرحمــاه فينـــا عالـــم ورفيـــق

ويحرسكم من كل عيب يشينكم و (...) [74]حاسـد وفسـوق

ويجعل جنّات النعيم مقركـــم ففيها حياة [75] المكرمين تروق

وهي قصيدة طويلة (...) [74] حكم ونصايح مضمون آيات وأحاديث .

هوامــش :

ـ أدنى الصفحة من الجهة اليمنى : قد كُتبت عـن نسخة غير منقوطة ، بخط يصعب قراءته . فمن وقع نظره على خلل فليُصلحه أصلح الله حاله .

---

(74) كلمة مشوشة .

(75) في الأصل : حيات .

2 ــ رسالة ابن تيميّة إلى السلطان

بسم الله الرحمن الرحيم

سلطان المسلمين ، ومَن أيّد الله في دولته الدين . وقمع الكفار والمنافقين . أيّد الله به الإسلام . ونشر عدله في الأنام .

من الداعي أحمد بن تيميّة إلى سلطان المسلمين ، ومَن ايّد الله في دولته الدين ، واعزّ به عباده المؤمنين ، وقمع فيها الكفار والمنافقين والخوارج والمارقين . نصره الله ونصر به الإسلام ، وأصلح له وبه أمور الخاص والعام . وأحيى به معالم الإيمان . وأقام به شرائع القرآن . وأذلّ به أهل الكفر والفسوق والعصيان .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . وهو للحمد أهل. وهوعلى كل شئ قدير . ونسأله أن يُصلّي على خاتم النبيين وإمام المتقين محمد عبده ورسوله . صلّى الله عليه وآله وسلّم تسليما .

أمّا بعد. فقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده . وأنعم الله على السلطان وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تُعهد في القرون الخالية . وجدّد الإسلام في أيامه تجديداً بانت فضيلته على الدول الماضية . وتحقّق في ولايته خبر الصادق المصدوق ، أفضل الأولين والآخرين ، الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في روؤس المئين . والله تعالى يُوزعه والمسلمين شكر هذه النعم العظيمة في الدنيا والدين ، ويُتمّها بتمام النصر على سائر الأعداء المارقين .

ذلك أن السلطان ،أتمّ الله نعمته ، حصل للأمة بيُمن ولايته وحُسن نيّته ، وصحّة إسلامه وعقيدته ، وبركة إيمانه ومعرفته ، وفضل همّته وشجاعته ، وثمرة تعظيمه للدين وشرعته ، ونتيجة اتباعه لكتاب الله وحكمته ، ما هو شبيه بما كان يجري

في أيام الخلفاء الراشدين ، وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين من جهاد أعداء الله المارقين من الدين . وهم صنفان :

ــ أهل الفجور والطغيان، وذوو الغي والعدوان ، الخارجون عن شرائع الإيمان . طلباً للعلو في الأرض والفساد، وتركاً لسبيل الهدى والرشاد . وهؤلاء هم التتار ونحوهم ، من كل خارج عن شرائع الإسلام ، وإن تمسّك بالشهادتين أو ببعض سياسة الإسلام .

ــ والصنف الثاني : أهل البِدع المارقون ، وذوو الضلال المنافقون . الخارجون عن السنّة والجماعة . المفارقون للشرعة والطاعة . مثل هؤلاء الذين غُزوا بأمر السلطان من أهل الجبل والجُرد [1] والكسروان [2] . فإن ما منّ الله به من الفتح والنصر على هؤلاء الطغام هو من عزائم الأمور التي أنعم الله بها على السلطان وأهل الإسلام .

وذلك أن هؤلاء وجنسهم من أكابر المفسدين في أمر الدنيا والدين . فإن اعتقادهم أن أبا بكر وعمر وعثمان ، وأهل بدر وبيعة الرضوان ، وجمهور المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة الإسلام وعلمائهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ، ومشايخ الإسلام وعُبّادهم ، وملوك المسلمين وأجنادهم ، وعوامّ المسلمين وأفرادهم . كل هؤلاء عندهم كفار مُرتدّون ، أكفر من اليهود والنصارى . لأنهم مُرتدّون عندهم . والمُرتدّ شر من الكافر الأصلي . ولهذا السبب يُقدّمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان .

ولهذا لمّا قدم التتار إلى البلاد ، وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يُحصى من الفساد ، وأرسلوا إلى أهل قبرص [3] فملكوا بعض الساحل ، وحملوا راية الصليب ، وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يُحصي عدده إلا الله . وأقام سُوقهم بالساحل عشرين يوماً يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص . وفرحوا بمجئ التتار . هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون . مثل أهل جزين وما حواليها وجبل عامل ونواحيه .

ولمّا خرجت العساكر الإسلاميّة من الديار المصريّة ، ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم . ولمّا نصر الله الإسلام النُصرة العُظمى عند قُـــدوم

السلطان ، كان بينهم شبه العزاء .

كل هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة ، التي كانت من أعظم أسباب خروج جنكِسخان[4] إلى بلاد الإسلام . وفي استيلاء هولاكو على بغداد ، وفي قدومه إلى حلب ، وفي نهب الصالحيّة ، وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله . لأن عندهم أن كل مَن لا يوافقهم على ضلالهم فهو كافر مُرتدّ . ومن استحلّ الفُقّاع فهو كافر . ومَن مسح على الخفّين فهو عندهم كافر . ومَن حرّم المتعة فهو عندهم كافر . ومَن أحب أبا بكر أوعمر أو عثمان أو ترضّى عنهم ، أو عن جماهير الصحابة ، فهو عندهم كافر. ومَن لم يؤمن بمنتظرهم فهو عندهم كافر .

وهذا المُنتظَر صبي عمره سنتان أو ثلاث أو خمس . يزعمون أنه دخل السرداب بـ " سامرّا " ، من أكثر من أربعمائة سنة . وهو يعلم كل شئ . وهو حجّة الله على الأرض . فمَن لم يؤمن به فهو عندهم كافر . وهو شئ لا حقيقة له . ولم يكن هذا في الوجود قط .

وعندهم مَن قال ، إن الله يُرى في الآخرة فهو كافر . ومَن قال ، إن الله تكلّم بالقرآن حقيقة فهو كافر . ومن قال ، إن الله فوق السماوات فهو كافر . ومَن آمن بالقضاء والقدر ، وقال ، إن الله يهدي مَن يشاء ويُضلّ مَن يشاء ، وأن الله يُقلّب قلوب عباده ، وأن الله خالق كل شئ ، فهو عندهم كافر . وعندهم أن مَن آمن بحقيقة أسماء الله وصفاته ، التي أخبر بها في كتابه وعلى لسان رسوله ، فهو عندهم كافر .

وهذا هو المذهب الذي تُلقّنه لهم أئمتهم ، مثل بني العَود . فإنهم شيوخ أهل هذا الجبل . وهم الذين كانوا يأمرونهم بقتال المسلمين ، ويُفتونهم بهذه الأمور .

وقد حصل بأيدي المسلمين طائفة من كتبهم تصنيف ابن العَود وغيره . وفيها هذا وأعظم منه . وهم اعترفوا لنا بأنهم الذين علّموهم وأمروهم . لكنهم مع هذا يُظهرون التقيّة والنفاق . ويتقرّبون ببذل الأموال إلى مَن يقبلها منهم . وهكذا عادة هؤلاء الجبيليّة . فإنهم أقاموا بجبلهم لِما كانوا يُظهرونه من النفاق ، ويبذلونه من البِرطيل [5] لمَن يقصدهم.

والمكان الذي لهم في غاية الصعوبة . ذكر أهل الخبرة أنهم لم يروا مثله . ولهذا كثُر فسادهم . فقتلوا من النفوس ، وأخذوا من الأموال ، ما لا يعلمه إلا الله .

ولقد كان جيرانهم ، من أهل البقاع [6] وغيرها معهم في أمر لا يُضبط شرّه . كل ليلة تنزل عليهم منهم طائفة ، ويفعلون من الفساد ما لا يُحصيه إلا رب العباد . كانوا في قطع الطرقات ، وإخافة سكّان البيوتات على أقبح سيرة عُرفت من أهل الجنايات . يَرِد إليهم النصارى من أهل "قبرص" فيُضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين ، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين ، فإمّا أن يقتلوه أو يسلبوه . وقليل منهم مَن يفلت منهم بالحيلة .

فأعان الله ويسّر ، بحُسن نيّة السلطان وهمّته ، في إقامة شرائع الإسلام ، وعنايته بجهاد المارقين ، أن غُزوا غزوة شرعيّة ، كما أمر الله ورسوله . بعد أن كُشفت أحوالهم ، وأُزيحت عللهم ، وأُزيلت شُبهاتهم ، وبُذل لهم من العدل والإنصاف ما لم يكونوا يطمعون به . وبُيّن لهم أن غزوهم اقتداء بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قتال الحروريّة المارقين ، الذين تواتر عن النبي صلّى الله عليه وسلّم الأمرُ بقتالهم ونعتُ حالهم ، من وجوه مُتعدّدة . أخرج منها أصحاب الصحيح عشرة أوجه : من حديث علي بن أبي طالب ، وأبي سعيد الخدري ، وسهل بن حُنَيف ، وأبي ذر الغفاري ، ورافع بن عمرو ، وغيرهم من أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم . قال فيهم : " يَحقِر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم . يقرأون القرآن لا يُجاوز حناجرهم . يمرقون من الإسلام كما يمرُق السهم من الرّميّة . لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد . لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد صلّى الله عليه وسلّم لاتّكلوا عن العمل . يقتلون أهل الإسلام . ويدَعون أهل الأوثان . يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم. شرّ قتلى تحت أديم السماء. خير قتلى مَن قتلوه" .

وأول ما خرج من هؤلاء زمن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه . وكان لهم من الصلاة والصيام والقراءة والعبادة والزّهادة ما لم يكن لعموم الصحابة . لكن كانوا خارجين

عن سُنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعن جماعة المسلمين . وقتلوا من المسلمين رجلاً اسمه عبد الله بن خبّاب . وأغاروا على دوابّ المسلمين . وهؤلاء القوم كانوا أقلّ صلاةً وصياماً . ولم نجد في جبلهم مصحفاً ، ولا فيهم قارئاً للقرآن . وإنما عندهم عقائدهم التي خالفوا فيها الكتاب والسُنّة . وأباحوا دماء المسلمين . وهم مع هذا فقد سفكوا من الدماء ، وأخذوا من الأموال ، ما لا يُحصي عدده إلا الله تعالى .

فإذا كان علي بن أبي طالب قد أباح لعسكره أن ينهبوا ما في عسكر الخوارج ، مع أنه قتلهم جميعهم ، كان هؤلاء أحقّ بأخذ أموالهم . وليس هؤلاء بمنزلة المتأولين ، الذين نادى فيهم علي بن أبي طالب يوم الجمل ، أنه لا يُقتَل مُدبرهم ، ولا يُجهز على جريحهم ، ولا يُغنَم لهم مال ، ولا يُسبى لهم ذُريّة . لأن مثل أولئك لهم تأويل سائغ . وهؤلاء ليس لهم تأويل سائغ . ومثل أولئك إنما يكونون خارجين عن طاعة الإمام . وهؤلاء خرجوا عن شريعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسُنته . وهم شرّ من التتار من وجوه مُتعدّدة . لكن التّتر أكثر وأقوى . فلذلك يظهر كثرة شرّهم .

وكثير من فساد التتر هو لمُخالطة هؤلاء لهم . كما كان في زمن قازان و هولاكو وغيرهما . فإنهم أخذوا من أموال المسلمين أضعاف ما أخذوا من أموالهم . وأرضهم فيء لبيت المال .

وقد قال كثير من السلف أن الرافضة لا حق لهم في الفيء . لأن الله إنما جعل الفيء للمهاجرين والأنصار " وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ " . فمَن لم يكن قلبه سليماً لهم ، مستغفراً لهم ، لم يكن من هؤلاء .

وقُطعت أشجارهم لأن النبي صلّى الله عليه وسلّم لمّا حاصر بني النضير قطع أصحابُه نخلهم وحرّقوه . فقال اليهود : " هذا فساد وأنت يا محمد تنهى عن الفساد " . فأنزل الله : " مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ " .

وقد اتفق العلماء على جواز قطع الشجر ، وتخريب العامر ، عند الحاجة إليه . فليس ذلك بأولى من قتل النفوس . وما أمكن غير ذلك . فإن القوم لم يحضروا كلهم من الأماكن التي اختفوا فيها ، وأيسوا من المقام في الجبل ، إلا حين قُطعت أشجارهم . وإلا كانوا يختفون حيث لا يمكن العلم بهم . وما أمكن أن يسكن الجبل غيرهم . لأن التركمان إنما قصدهم الرعي . وقد صار لهم مرعى . وسائر الفلاحين لا يتركوا عمارة أرضهم ويجيئون إليه .

فالحمد لله الذي يسّر هذا الفتح في دولة السلطان ، بهمّته وعزمه وأمره ، وإخلاء الجبل منهم ، وإخراجهم من ديارهم . وهم يُشبهون ما ذكره الله في قوله : " هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ. وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ " .

وأيضاً فإنه بهذا قد انكسر من أهل البِدّع والنفاق بـ "الشام" و"مصر" و"الحجاز " و"اليمن " و " العراق " ما يرفع الله به درجات السلطان ، ويُعزّ به أهل الإيمان .

تمام هذا الفتح وبركته تقدّم مراسم السلطان بحسم مادة أهل الفساد ، وإقامة الشريعة في البلاد . فإن هؤلاء لهم من المشايخ والإخوان في قُرىً كثيرة مَن يقتدون بهم وينتصرون لهم . وفي قلوبهم غلّ عظيم . وإبطال مُعاداةٍ شديدة ، لا يؤمنون معها على ما يمكنهم . ولو انها مُباطنة العدو . فإذا أمسك روءوسهم الذي يُضلونهم ، مثل بني العَود ، زال بذلك من الشر ما لا يعلمه إلا الله .

ويتقدّم إلى قراهم ، وهي قرىً مُتعدّدة بأعمال " دمشق " و " صفد" و " طرابلس " و " حماة " و " حمص " و " حلب " بأن يُقام فيهم شرائع الإسلام والجمعة والجماعة

وقراءة القرآن . ويكون لهم خطباء ومؤذنون ، كسائر قرى المسلمين . وتُقرأ فيهم الأحاديث النبويّة ، وتُنشر فيهم المعالم الإسلاميّة . ويُعاقب مَن عُرف منهم بالبدعة والنفاق بما توجبه شرائع الإسلام . فإن هؤلاء من المحاربين وأمثالهم قالوا ، نحن قوم جبال . وهؤلاء كانوا يُعلّموننا ويقولون لنا ، أنتم إذا قاتلتم هؤلاء تكونون مجاهدين . ومَن قُتل منكم فهو شهيد .

وفي هؤلاء خلق كثير لا يُقرّون بصلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة ، ولا يُحرّمون الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولا يؤمنون بالجنّة والنار . من جنس الإسماعيليّة والنُصيريّة والحاكميّة [7] والباطنيّة . وهم أكفر من اليهود والنصارى بإجماع المسلمين .

فتقدّم المراسيم السلطانيّة بإقامة شعائر الإسلام ، من الجمعة والجماعة وقراءة القرآن وتبليغ أحاديث النبي صلّى الله عليه وسلّم في قرى هؤلاء من أعظم المصالح الإسلاميّة ، وأبلغ الجهاد في سبيل الله . وذلك سبب لانقماع مَن يُباطن العدو من هؤلاء ، ودخولهم في طاعة الله ورسوله وطاعة أولي الأمر من المسلمين . وهو من الأسباب التي يُعين الله بها على قمع الأعداء . فإن ما فعلوه بالمسلمين في أرض " سيس " نوع من غدرهم الذي ينصر الله المسلمين عليهم . وفي ذلك حكمةٌ عظيمة ، ونصرة للإسلام جسيمة . قال ابنُ عباس : " ما نقض قوم العهد إلا أُديل عليهم العدو " .

ولولا هذا وأمثاله ما حصل للمسلمين من العزم بقوّة الإيمان ، وللعدو من الخذلان ، ما ينصر الله به المؤمنين ، ويُذلّ به الكفار والمنافقين .

والله هو المسئول أن يُتمّ نعمته على سلطان الإسلام خاصة وعلى عباده المؤمنين عامة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والحمد لله وحده . وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيرا [8] .

---

(1) و (2) : في هذه العبارة خطأ واضح . لأنها من باب قسمة الشئ إلى نفسه وغيره . ممّا يدل على أن قائلها لم يكن يدري ما يقول . وهو الذي حشا كتابه بمختلف الدعاوى العريضة بمعرفته التفصيليّة بالمنطقة وأهلها . فـ " الجبل " ليس شيئاً غير "الجُرد" و "كسروان " (وليس

" الكسروان !") وغيرهما .

والمعروف أن " كسروان " كانت يومذاك تعني المنطقة الجبليّة الواقعة بموازاة الساحل اللبناني الممتد بين مصب " نهرالكلب " جنوباً ومصب " نهر إبراهيم " شمالاً . أمّا " الجُرد " فهو امتداده من هضاب قرية" فاريّا " وشرقاً . حيث " كسروان " يعني المنطقة المأهولة ، بما فيها من قرى ومزارع . أمّا "الجُرد" فهو خال إلا من القليل منها . ومن هنا جاء اسمه . أي من صفته بأنه أجرد لا شجر فيه . في حين أن" كسروان" منطقة غابات . وجُرد " كسروان " ينتهي عند قرية " كفرتى " . ولكن يُفهم من كلام ابن تيميّة أنه يعني عنده أيضاً جُرد " المتن " ، الذي ينتهي من الجهة الشرقيّة عند بلدة " مجدل ترشيش " .

(3) جزيرة في البحر المتوسط شرقاً ، غرب الساحل اللبناني السوري . قامت صِلات وثيقة بين أهلها وبين المسيحيين الموارنة ، منذ بداية الغزوات الصليبيّة . وكان منهم جالية كبيرة في الجزيرة ، ما تزال بقاياها حتى اليوم .

(4) يعني جنكيز خان ، سلطان التتر ومُنشئ الأمبراطورية المغوليّة (ت : 625 هـ / 1227 م) .

(5) يعني : الرشوة . والكلمة ما تزال مسموعة حتى اليوم في المحكيّة الشاميّة وأصلها من اللغة الآراميّة .

(6) يعني : " سهل البقاع "، وهو المُنخفَض الواقع بين سلسلتي الجبال الشرقيّة والغربيّة . شرقه مدينة " بعلبك " .

(7) نسبةً إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله . وابن تيميّة يعني بهم هنا الدروز .

(8) محمد بن أحمد بن عبد الهادي : العقود الدريّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة ، ط. القاهرة 1356 هـ / 1938 م / 182 ـ 194 .

3 ـ نسخة توقيع بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة والشيعة .

وهذه نسخة توقيع كريم بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالهما من اعتقاد الرافضة وردعهم والرجوع إلى السُنّة والجماعة . واعتقاد مذهب أهل الحق . ومنع أكابرهم من العقود الفاسدة والأنكحة الباطلة ، والتعرّض إلى أحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . وأن لايدَعوا سلوك أهل السَّنّة الواضحة ، ويمشوا في شرَك أهل الشك والضلال . وأن كل مَن تظاهر بشئ من بِدعهم قوبل بأشدّ عذاب وأتمّ نكال . وليُخمدْ نيران بِدعهم المُدلهمّة . وليُبادرْ إلى حسم فسادهم بكل همّة . وتصريفهم عن [ ][1] اعتبره . وتطهير بواطنهم من رذالة اعتقادهم الباطل ، إلى أن يُعلنوا جميعهم بالترضّي عن العشرة . وليحفظ أنسابهم بالعقود الصحيحة . وليداوموا على اعتقاد الحق والعمل بالسَّنّة الصريحة . في خامس عشرين جمادى الآخرة سنة أربع وستين وسبعمائة [17 أيّار 1362م] . وهي :

الحمد لله الذي شرع الحدود والأحكام . وجدع بالحق أنوف العوام الأغتام الطغام . وجمع الصلاح والنجاح والفلاح في الأخذ بسُنّة خير الخلق وسيّد الأنام . وقمع الزائغين عمّا عليه أهل السُنّة من الحق في كل نقض وإبرام .

نحمده على نعمه الجِسام ، ومننه التي تومض بروقها وتُشام . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . شهادة ليس لمَن تمسّك بعروتها الوثقى انفصال ولا انفصام . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى الملك العلاّم . والهادي إلى الحق بواضح الإرشاد والإعلام . صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم أئمة الإسلام ، وهُـداة

---

(1) بياض في الأصل .

الخلق إلى دار السلام . خصوصاً أبا بكر الصدّيق الذي سبق الناس بما وقر في صدره ، لا بمزيّة صلاةٍ ولا صيام . وعمر بن الخطّاب الذي كان له في إقامة الحق أعظم مقام ، ومن أهل الصلاح والفساد انتقاء وانتقام . وعثمان بن عفان الذي جمع القرآن ، فحصل لشمل سُوره وآياته بما فعل أحسن التيام . وأنفق ماله محتسباً لله تعالى فحاز من الثواب رتبة لا تُرام . وعلي بن أبي طالب الذي كان صهر النبي صلّى الله عليه وسلّم وابن عمّه ووارث علمه اللُهام ، والمُجادل عن دينه والمُجاهد بين يديه بالحسام . والباقين من العشرة الكرام . صلاةً تُستمدّ بركاتها وتُستدام ، وينمو فضلها بغير انقضاءٍ ولا انصرام .

وبعد ، فإن الله تعالى بعث محمداً صلّى الله عليه وسلّم بشرعه الذي ارتضاه ، ودينه الذي قضاه ، وحُكمه الذي أبرمه وأمضاه . فبلّغ الرسالة ، وأوضح الدلالة ، وأفصح المقالة . وجاهد في الله طوائف الأعداء . وأمال الله تعالى إلى قبول قوله وتصديقه مَن سبقت له العناية من الأودّاء . ونصره على مخالفيه من المشركين والحاسدين حتى مات كلٌ منهم بما في نفسه من الداء . وبيّن الطريق . وبرهن على التحقيق . فأعلن النذارة والبشارة . ومهّد قواعد الدين ، تارةً بالنص ، وتارةً بالإشارة . وتمّ الدين بإحكام أحكامه . وشُدّت قواعده بإعلاء أعلامه . وعمّت الدعوة وتمّت . وفشت الهدايةُ ونَمَت . ودخل الناس في الدين أرسالا . وبلغت نفوس المؤمنين من إعلاء كلمة التوحيد آمالا . وأصبحت الخيرات والبركات تتواتر وتتوالى . وخمدت نار الشّرك . وطُفئت مصابيح الضلالة . ووُحّد الله تبارك وتعالى .

فلمّا تكامل ما أراد الله تعالى من إظهاره في زمانه. وتمّ ما شاء إبرازه في إبّانه . وأُعلنت الهداية . ومُحيت الغواية . وقام عمود الين . ودحضت حُجّة الملحدين . واستوسق أمر الإسلام واستتبّ . وتبّت يدا مناوئه وتبّ . . اختار الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم جواره وقُربه . فقضى نحبه . ولقي ربّه . فقام خلفاؤه بعده بآثاره يقتدون ، وبهديه وإرشاده يهتدون ، ولأحكامه يتبعون ، ولأوامره يستمعون ، ولمعاني ما جاء بــه

يعون ، وإلى قضاياه يرجعون ، لايُغيّرون ولا يُبدّلون ، ولا يتعرّضون ولا يتأولون .
فقضى على ذلك الخلفاء الراشدون والأئمة المهديّون . لم يتبع أحدهم في زمانهم عقيدة فاسدة . ولم يُظهر أحد مقالةً عن سواء السبيل حائدة . ثم تفرّقت الآراء ، وتعدّدت الأهواء . واختلفت العقائد . وتباينت المقاصد . ووهت القواعد . وتصادمت الشواهد .
وتفرّقت الناس إلى مُقرّ بالحق وجاحد . وظهرت البِدَع في المقالات . وضلّ كثير في كثير من الحالات . وتهافت غالبهم في الضلالات. وقال كل قوم مقالةً تضمّنت أنواعاً من الجهالات. وكان من أسخفهم عقلاً ، وأضعفهم نقلاً ، وأوهنهم حُجّةً ، وأبعدهم من الرّشد مَحجّةً ، طائفة الرافضة الشيعة . لارتكابهم أموراً شنيعة ، وإظهارهم كل مقالة فظيعة ، وخرْقهم الإجماع ، وجمعهم قبيح الابتداع . فتبدّدوا فِرقا ، وسلكوا من فواحش الاعتقادات طُرُقا . وتنوّع ناسهم . وتعدّدت أجناسهم . وتجرّءوا على تبديل قواعد الدين .
وأقدموا على نبذ أقوال الأئمة المُرشدين . وقالوا ما لم يُسبقوا إليه . وأعظموا الفِرية فيما حملوا كلام الله ورسوله عليه السلام عليه . وباؤا بإثم كبير وزُور عظيم . وعرّجوا عن سواء السبيل ، فخرجوا عن الصراط المستقيم . وفاهوا بما لم يَفُه به قبلهم عاقل .
وانتحلوا مذاهب لا يساعدهم عليها نقل ناقل . وتخيّلوا أشياء فاسدة ، حالهم فيما نُخيّلها أسوأ من حال باقل . وتمسّكوا بآثارٍ موضوعة ، وحكايات إلى غير الثقات مرفوعة .
يُنقل عن أحدهم ما ينقله عن مجهول غير معروف . أو عمّن بالتدليس والكذب مشهور وموصوف . فأدّاهم ذلك إلى القول بأشياء ، منها ما يوجب الكفر الصُراح ، ويُبيح القتل الذي لاحرج عليه ولا جُناح . ومنها ما يقتضي الفسق إجماعاً ، ويقطع من المُتصف به عن العدالة أطماعاً . ومنها ما يوجب عظيم الزّجر والنكال . ومنها ما يُفضي بقائله إلى الويل والوبال . لعبَ الشيطان بعقولهم فأغواهم . وضمّهم إلى حزبه وآواهم. ووعدهم غروراً ومنّاهم . وتمنّوا مُغالبة الحق فلم يبلغوا مُناهم . مرقوا من الدين .
وخرقوا إجماع المسلمين . واستحلّوا المحارم . وارتكبوا العظائم . واكتسبوا الجرائم .
وعدلوا عن سواء السبيل. وتبوءوا من غضب الله شرّ مقيل . مذهبهم أضعف المذاهب .

وعقيدتهم مُخالفة للحق الغالب . وآراؤهم فاسدة . وقرائحهم جامدة . والنقول والعقول بتكذيب دعاويهم شاهدة . لايرجعون في مقالتهم إلى أدلّة سليمة . ولا يُعرّجون في استدلالهم على طُرُق مُستقيمة . يُعارضون النصوص القاطعة . ويُبطلون القواعد لمُجرّد المُنازعة والمُدافعة . ويُفسّرون كلام الله تعالى بخلاف مُراده منه . ويتجرءون على تأويله بما لم يُرِده الله ولم يرِد عنه . فهم أعظم الأمّة جهالةً ، وأشدّهم غوايةً وضلالةً . ليس لهم فيما يدّعونه مُستنَد صحيح ، ولا فيما ينقلونه نقلٌ صريح .

فلذاك كانوا أقلّ رُتبةً في المُناظرة ، وأسوأ الأمّة حالاً في الدنيا والآخرة ، وأحقر قدراً من الاحتجاج عليهم ، وأقلّ وضعاً من توجيه البحث إليهم . أكابرهم مُخلّطون ، وأصاغرهم مثلهم ، ومعظمهم مخبطون . بل كلهم ليس لأحد منهم حظّ في الجدال ، ولا قدَم في صحّة الاستدلال . ولو طولب أحدٌ منهم بصحّة دعواه لم يجد دليلا ، ولو حُقّق عليه بحثٌ لم يلقَ إلى الخلاص سبيلا . غايةُ مُتكلّمهم أن يروي عن مُنكَر من الرجال مجهول . ونهاية مُتعلّمهم أن يورد حديثاً هو عند العلماء موضوع أو معلول . يطعنون في أئمة الإسلام . ويسبّون أصحاب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام . ويدّعون انهم شيعة أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهو برئ منهم ، مُنزّه عمّا يصدر عنهم . فقدره أرفع عند الله والناس . ومحلّه أعلى بالنصّ وبالقياس . ويحرُم أن يُنسب إليه الرضى بهذه العقائد ، أو التقرير لهذه المفاسد . فإن طريقته هي المُثلى ، وسيرته هي العُليا . فالأخذ بالحق إليه يأول ، والصواب معه حيث يفعل أو يقول . ولا يصحّ نقل شئ من هذا عنه . ولا يحلّ نسبة شئ إليه منه . ومنصبه أجلّ من ذلك . ومكانه أعزّ ممّا هنالك .

غير أن هؤلاء يعرض لأحدهم في دينه شُبهة ، يُقلّد فيها مثله في الضلال وشبهه . ويتردّد في نفسه من الغمّ بُرهة لا يجد لخلاصه منها وجهة . ولا يُوجّه قلبه إلى طلب النجاة منها وجهه . ولا يقع نظرُ بصيرته على طريق الصواب ولا يُحقّق كنهه . فيرتكب خطراً يوجب توبيخه في القيامة وجَبْهه . ويُعدَم لتحيّره في الضلالة عقله وفهمه

وفقهه. قد صرفوا إلى الطعن في العلماء ومُخالفة رب الأرض والسماء همّهم وهممهم . وافتروا على الله كذباً فذمّهم وأباح دمهم. وقال لسان حال أمرهم: أرى قدمهم أراق دمهم ، وهان دمهم فها ندمهم .

وقد بلغنا أن جماعةً من أهل بيروت وضواحيها ، ومداها ونواحيها ، وأعمالها المُضافة إليها ، وجهاتها المحسوبة عليها ، ومزارع كلّ من الجهتين وضياعها ، وأصقاعها وبقاعها ، قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه ، وعملوا به وقرّروه ، وبثّوه في العامّة ونشروه . واتخذوه ديناً يعتقدونه وشرعاً يعتمدونه . وسلكوا منهاجه . وخاضوا لجاجه . وأصّلوه وفرّعوه . وتديّنوا به وشرعوه . وحصّلوه وفصّلوه . وبلّغوه إلى نفوس أتباعهم ووصّلوه . وعظّموا أحكامه . وقدّموا حُكّامه . وتمّموا تبجيله وإعظامه . فهم بباطله عاملون . وبمقتضاه يتعاملون . ولأعلام علمه حاملون . وللفساد قابلون . وبغير السّداد قائلون. وبحَرَم حرامه عائذون. وبحمى حمايته لائذون . وبكعبة ضلاله طائفون . وبسُدّة شدّته عاكفون . وأنهم يسبّون خير الخلق بعد الأنبياء والمُرسَلين . ويستحلّون دم أهل السُنّة من المسلمين . ويستبيحون نكاح المتعة ويرتكبونه . ويأكلون مال مُخالفهم وينتهبونه . ويجمعون بين الأختين في النكاح . ويتديّنون بالكفر الصّراح . إلى غير ذلك من فروع هذا الأصل الخبيث ، والمذهب الذي ساوى في البطلان مذهب التثليث . فأنكرنا ذلك غاية الإنكار ، وأكبرنا وقوعه أشدّ الإكبار . وغضِبنا لله تعالى أن يكون في هذه الدولة للكفر إذاعة ، وللمعصية إشادة وإشاعة ، وللطاعة إخافة وإضاعة ، وللإيمان أزجى بضاعة .

وأردنا أن نُجهّز طائفةً من عسكر الإسلام ، وفرقة من جُند الإمام ، تستأصل شأفة هذه العُصبة المُلحدة . وتُطهّر الأرض من رِجس هذه المفسدة . ثم رأينا أن نُقدّم الإنذار ، ونسبق إليهم بالإعذار . فكتبنا هذا الكتاب . ووجّهنا هذا الخطاب . ليُقرأ على كافّتهم ، ويُبلّغ إلى خاصتهم وعامتهم . يُعلمهم أن هذه الأمور التي فعلوها ، والمذاهب التي انتحلوها تُبيح دماءهم وأموالهم ، وتقتضي تعميمهم بالعذاب واستئصالهم . فإن مَن

استحلّ ما حرّم الله تعالى وعُرف ما كونه من الدين ضرورةً فقد كفر . وقد قال تعالى : " وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف " ، عطفاً على ما حكم بتحريمه ، وأطلق النصّ فتعيّن حمله على تعميمه . وقد انعقد على ذلك الإجماع ، وانقطعت عن مُخالفته الأطماع . ومُخالفة الإجماع حرام بقول مُن لم يزَل سميعاً بصيرا : " ومَن يُشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهُدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نُولِه ما تولّى ونُصلِه جهنم وساءت مصيرا " .

ونكاح المُتعة منسوخ ، وعقده في نفس الأمر مفسوخ . ومَن ارتكبه بعد علمه بتحريمه واشتهاره ، فقد خرج عن الدين ، بردّه الحق وإنكاره . وفاعله إن لم يتُب فهو مقتول ، وعذره فيما يأتيه من ذلك غير مقبول .

وسبّ الصحابة رضوان الله عليهم مُخالف لِما أمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من تعظيمهم ، ومُنابذ لتصريحه باحترامهم وتبجيلهم . ومُخالفته عليه السلام فيما شرعه من الأحكام موجبة للكفر عند كل قائل وإمام . ومُرتكب ذلك على العقوبة سائر ، وإلى الجحيم صائر.

ومَن قذف عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها ، بعدما برّأها الله تعالى ، فقد خالف كتابه العظيم ، واستحقّ من الله النّكال البليغ والعذاب الأليم . وعلى ذلك قامت واضحات الدلائل ، وبه أخذ الأواخر والأوائل . وهو المنهج القويم ، والصراط المستقيم . وما عدا ذلك فهو مَردود ، ومن الملّة غير معدود . وحادثٌ في الدين . وباعثٌ من الملحدين . وقد قال الصادق في كل مقالة ، والمُوضح في كل دلالة : " كلّ مُحدَثَة بدعة ، وكل بدعة ضلالة " .

فتوبوا إلى الله جميعا . وعودوا إلى الجماعة سريعاً . وفارقوا مذهب أهل الضلالة . وجانبوا عصبة الجهالة . واسمعوا مقالة الناصح لكم في دينكم وعوا . وعن الغي فارجعوا . وإلى الرشاد راجعوا . وإلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السماوات والأرض باتباع السّنّة بادروا وسارعوا .

ومَن كان عنده امرأة بنكاح متعة فلا يقربها ، وليحذر من غشيانها وليتجنبّها . ومَن نكح أختين في عقدين فليفارق الثانية منهما ، فإن عقدها هو الباطل . وإن كانتا في عقدٍ واحدٍ فليُخرجهما معاً عن حُبالته ولا يُماطل . فإن عذاب الله شديد ، ونكال المُجرمِ في الحميم كل يوم يزيد ، ودار غضب الله تُنادي بأعدائه هل من مَزيد . فلا طاقة لكم بعذابه. ولا قُدرة على أليم عقابه . ولا مفرّ للظالم منه ولا خلاص ، ولا ملجأ ولا مناص . فرحم الله تعالى امرءً نظر لنفسه ، واستعدّ لرمسه ، ومهّد لمصرعه ، ووطّأ لمضجعه . قبل فوات الفوْت ، وهجوم الموت ، واعتقال اللسان . قبل أن تُبذَل التوبة ولا تُقبَل ، وتُذرى الدموع وتُسبَل ، وتنقضي الآجال ، وينقطع الأمل ، ويمتنع العمل ، وتُزهَق من العبد نفسُه ، ويضمّه رمسه . ويرِد على ربه وهو عليه غضبان . وإن سخطه عليه بمخالفة أمره قد بان . ولا ينفعه حينئذٍ الندم . ولا تُقال عثرته إذا زلّت به القدم . وقد أعذر مَن أنذر . وأنصف مَن حذّر ، فإن حزب الله هم الغالبون . والذين كفروا سيُغلبون . وسيعلم الذين ظلموا أي مُنقلَب ينقلبون . ألهمنا وإيّاكم رُشدنا . ووفق إلى مراضيه قصدَنا . وجمعنا وإياكم على الطاعة . وأعاننا جميعاً على السُنّة والجماعة ، بمنّه وكرمه [2] .

---

(2) صُبح الأعشى : 13 / 13 ــ 20 .

4 . وصـايـا الشـهيد .

1 ــ في أسناد الوصايا .

رُويَت له (رضوان الله عليه) ثلاث وصايا :

ــ الأولى : أول مَن أشار إليها ، بمقدار ما أوصلنا إليه البحث ، عبد الله أفندي الإصفهاني الجيراني (ت : 1130هـ/ 1717م) في كتابه الذي علّق فيه على (أمل الآمل) للحرّ العاملي . ونُشر باسم (تعليقة أمل الآمل) . قائلاً ، في سياق تعداد مصنفات الشهيد : "وله أيضاً رسالة مختصرة في الوصيّة بأربع وعشرين خصلة . رأيتها بأردبيل وغيره " [1] . وكان أول مَن نشرها البحاثة الدكتور حسين محفوظ ، في كرّاس برأسه . صدّره بترجمة موجَزة للشهيد . ذكر في صدرها أنه نقلها من مجموعٍ مخطوطٍ لمؤلف إيراني . نقلها هذا عمّن نقلها من خط ابن صاحبها . ثم نُشرت في صحيفة (كيهان العربي) الإيرانيّة ، العدد 417 ، بتاريخ الثامن من جمادى الأولى سنة 1405 هـ . ثم ضمن (رسائل الشهيد الأول) / 289 . 91 . ثم في كتاب الشيخ المختاري : الشهيد الأول حياته وآثاره / 224 . 27 .

ــ الثانية : ذكر نصّها الجُباعي في مجموعه [2] . صدّرها بقوله : " وصيّة حسنة للإخوان بخط الشهيد شمس الدين بن مكّي . وهي له أو لغيره " . ونُشرت فـي مجلّـة

---

(1) تعليقة أمل الآمل . تحقيق أحمد الحسيني . ط . قم 1410 هـ / 79 .

(2) مجموعة الجباعي / 102 / ب .

(بيام حوزه) العدد / 3 . ثم ضمن (رسائل الشهيد الأول) / 297 ـ 300 . ثم في كتاب الشيخ المختاري نفسه / 297 ـ 98 .

ـ الثالثة : أورد نصّها السيّد محمد بن الحسن الحسيني (ح : 1080هـ /1669م) في كتابه (الإثنا عشريّة في المواعظ العدديّة) / 281 [3] صدّرها بقوله : " **وصيّة للشيخ الشهيد الكامل المحقّق العلامة شمس الدين محمد بن مكي رحمه الله لبعض إخوانه . منقولة من خط الشهيد الثاني الشيخ زين الدين** " . ثم أحمد بن محمد مهدي النراقي (ت : 1245 هـ/ 1829 م) في كتابه (الخزائن) / 441 [4] . ثم الشيخ المختاري في مقدمته لكتاب (غاية المُراد) للشهيد . كما نُشرت ضمن (رسائل الشهيد الأول) / 295 . 96 .

2 ـ في نقدها .

إن قراءةً نقديّةً دقيقة للوصايا الثلاث ، تترك القارئ على شِبه اليقين من أنها صدرت من ذهن واحد . هاهنا روح واحدة تنظمها جميعها . يمكن أن نقول أنها روح الأب ـ العارف ، المُعلّق القلب بقضية التسامي بنفوس مَن يخاطبهم بوصاياه ، إلى الدرجة التي تكون فيها حوافزهم ومُحرّكاتهم السلوكيّة ، فيما يفعلون ويتركون ، مُنحصرة بما يُرضي الله تعالى ، وحثّت عليه الشريعةُ المُطهّرة وآدابها . ورامية إلى كسْب رضاه بالدرجة الأولى . وعن هذا الطريق إلى بناء مُجتمع مرصوص ، تجمعه رابطة من الإخاء المتين العُرى . وعَبْر ذلك إلى بناء نمط مُنتمٍ من التقدّم .

(٣) ط. قم ، مكتبة المصطفوي لات .

(4) تحقيق حسن زاده الآملي وعلي الغفاري . ط . طهران 1380 هـ .

ممّا يجدُربنا مُلاحظته أن كاتب هذه الوصايا مُطّلع اطلاعاً دقيقاً وشاملاً على مُختلف الآداب الشرعيّة . ليس فيها شئ مُرتجَل على الإطلاق . إلى درجة أن من الممكن لباحث مُتطلّب أن يُرجع جميع عناصرها إلى أصولها في النصوص الشرعيّة الأصليّة ، من قرآن وحديث . كما أن ليس من العسير على الباحث نفسه أن يكتشف التقاطعات الكثيرة بين موادّها . ممّا يؤيّد الملاحظة التي بدأنا بها .

وعلى كل حال . فإن القارئ الحصيف الذي استوعب نهج الشهيد فيما حرّرناه أعلاه ، سيجد في موادّ هذه الوصايا الرجل نفسه . سواءٌ من حيث الهمّ ، أم القلق ، أم المنهج ، أم الغاية .

هذا فيما يرجع إلى الأمر الجامع بين الوصايا الثلاث .

على أن ذلك لا يُغنينا عن ملاحظة ما بينها من فروق . وهي ، فيما نحسب ، فروق في الشكل ، وليست في الأساس . نظن أنها نشأت من الظرف الذي كُتبت فيه كل واحدة منها . وخصوصاً أين كُتبت ، ومَن هو المُخاطَب فيها .

ما من ريب في أن الوصيّة الأولى هي أكمل الثلاث وأكثرها أهميّةً . ومن المُحتمَل ، استناداً إلى قوله في مطلعها : "كاتب هذه الأحرف " ، أنها جزء من إناء أكبر . والقارئ الذي يُحسِن التقاط لحن الكلام ، يحُسّ من ختامها أنها رسالة وداع . وخصوصاً من قوله في ختامها : "**والسلام عليهم جميعاً ورحمة الله وبركاته** " ، بما فيها من شحنة عاطفيّة جياشة. ممّا يحمل على الظن أنها كتبت أثناء حبسه في " دمشق " . هذه كلمات لا يقولها إلا إنسان بعيد الدار . ومن المعلوم من خواتيم نص (مُختصَر نسيم السّحَر) أنه كان يُراسل أسرته وهو في حبسه . الأمرُ الذي يُفسّر وصول نص هذه الوصيّة إلى أسرته ، على فرْض صحّة أنها كُتبت أثناء حبسه ، وبالتالي إلينا .

أمّا الوصيّة الثانية فهي كالأولى مُوجّهة توجيهاً عامّاً . لكن هذه تضمّنت نصاً صريحاً على أنها كُتبت في " دمشق " ، في الحبْس ولا ريب . فلماذا ، على كل حال ، يُوجّه رسالة مكتوبة إلى "الإخوان" لو كان في الوسع أن يُخاطبهم مُشافهةً ؟ . هذه حذلقة

نعرف جيّداً كم أن شخصيّة الشهيد الجادّة العمليّة البعيدة عن الاستعراض الذاتي بعيدة عنها .

هذا مع الإشارة إلى أن نصّ هذه الوصيّة تضمّن مادّة غريبة عن كل ما وجّه إليه العناية في كل وصاياه . هي في قوله : " **وأوصيهم أن لا يذكروا أحداً من المسلمين إلا بخير ، على ما يعتقد فيه من بِدعة أو شُبهة . ولا يفتحوا على أنفسهم باب التأويل للوقيعة بين المسلمين**" . هذا الكلام يطرح سؤالاً كبيراً ، لسنا نملك الآن عليه جوابا . ومع ذلك فإنني لا أستطيع أن أكتم شعوراً بأنه موجّه إلى السُلطة. على نحو (إياك أعني واسمعي يا جارة). ودائماً كانت رسائل مَن هم قيد السجن تخضع لشكلٍ أو غيره من أشكال المراقبة .

الوصيّة الثالثة هي الوحيدة الشخصيّة . أي المُوجّهة إلى شخص بعينه بشهادة الخطاب بـ "عليك . إياك . لاتترك ... الخ." . لا نعرف مَن كان . وكأنها كُتبت لمن قال : "أوصني" أو نحوه . ولكنني لا أشك في :

ــ أولاً ، أنه كان من تلاميذ الشهيد . بشهادة ما فيها من حثّ له على " **المُلازمَة في طلب العلم** " . و كلمة " المُلازمة " يُفهَم منها أنه كان قد بدأ ذلك بالفعل ، وها إن الوصيّة تحثّه على المتابعة والمثابرة . كما أنه كان ممّن يأتمنهم على سِرّه . بشهادة ما سنقرأه بعد قليل .

ــ ثانياً ، أنه كان يعيش في غير "جبل عامل" أو فلنقُل في مكان لا يملك فيه الحريّة التامّة لنفسه . ويستوجب التزام الحذر والدقة فيما يفعل . ولعلّه من أولئك الفقهاء الذين سبقت الإشارة إليهم وإلى انتشارهم بين الشيعة في المناطق الساحليّة ، حيث المخالفون والمُتسنّنون فضلاً عن الدولة وسُلطتها .

ذلك أن هذه الوصيّة تنفرد بإشارات غريبة ، لا تُفصح عن حقيقة مكنونها بسهولة ويُسر. بل لا بُدّ لفهمها من الاستيعاب التام او شبه التام لمُعطيات الظرف الذي اضطرب فيه الشهيد و تلاميذه .

تلك الإشارات نقرأها في العبارتين التاليتين :

ــ "وعليك بالمُلازمة في طلب العلم منذ كان (؟) . **ولا تتلوه على أحد . بل تستقبل من كل أحد** " .

ــ "وإذا زُرتَ أو دعوتَ **اذكرنا سِرّاً** . وادعُ لنا بخاتمة الخير وحُسْن التوفيق . وإن تمكّنتَ عقيبَ كل صلاة " .

العبارة الأولى تبدو لأول وهلة وكأنها تتعارض كُليّاً مع أخلاق العلم والتعليم . وذلك إذ توصي مَن وُجّه إليه الخطاب بأن يكتم علمه . ولكن الأمر، كما ألمحنا أعلاه ، يتصل بما هو ممكن ومأمون وحميد العواقب ، بحيث لا يعود على باذله بالضرر . إذن فكلمة " أحد " في النص ينبغي أن لا تُفهم على عمومها . بل على خصوص مَن سيكون ذلك " العلم " عنده مأخذاً . وهذه إشارة واضحة إلى أن هذا الموصى كان يعيش في بيئة لا ترتاح ، على الأقلّ ، إلى مذهبه .

العبارة الثانية تُشير ضمناً إلى جانب آخَر من صفات الظرف نفسه . يتصل بشخص الشهيد . حيث يوصي بأن يذكره في دعواته سِرّاً . وغني عن البيان ، أن المفهوم من هذا الطلب أن ذكره جهراً، حيث هذا المُوصى ، عمل غير مأمون العواقب . ولكنه ، في المُقابل ، يوصيه بأن " **تستقبل من كل أحد** " . وفي هذا دليل إجمالاً على ثقافة الانفتاح على الآخَر . إلا حيث يكون " **الآخَر** " وطريقة فهمه للأمور هو الحائل والمانع .

أمّا ما بقي من العبارة نفسها " **وادعُ لنا بخاتمة الخير وحُسْن التوفيق . وإن تمكّنت عقيبَ كل صلاة** " ، فإنه يحمل إشارة غير خفيّة إلى ما يشغل بال الشهيد : ما تحمله له الأيام الاتية شخصيّاً "**خاتمة الخير**" ، ولمستقبل مشروعه "**حُسْن التوفيق**" . الأمر الذي يدلّ على أنه كان يعي تماماً المخاطر المُحيقة بالاثنين . أي أنه سلك الطريق الصعب عن كامل استيعاب وإدراك وتصميم ، ورغم معرفته بالأخطار التي تنتظره .

الوصيّة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه وصيّة العبد الضعيف ، كاتب هذه الأحرُف ، محمد بن مكي . تاب الله عليه توبةً نصوحاً ، وكان عن هفواته وزلاّته صفوحاً ، إلى إخوانه في الله وأحبّائه لله . ويبدأ بنفسه ثم بهم . وهي مُشتملة على أمور :

أولها : تقوى الله تعالى فيما يأتون ويذرون ، ومُراقبته ومخافته ، والحياء منه في الخلوات .

وثانيها : ذكره بالقلب على كل حال ، وباللسان في معظم الأحوال .

وثالثها : التوكّل عليه ، وتفويض الأمور إليه ، والالتجاء عند كلّ مُهمّ إليه .

ورابعها : التمسّك بشرائع الدين . فلا يخرج عنها شعرة . لئلا تحصل الضلالة.

وخامسها : المباشَرة على الفرائض من الأفعال والتروك . بحسب ما جاءت به الشريعة المُطهّرة .

وسادسها : الاستكثار من النوافل ، بحسب الجُهد والطاقة والفراغ والصحّة . وخصوصاً الصلوات المندوبة ، فإنها خير موضوع . وما يُقرّب العبد إلى الله تعالى بعد المعرفة بأفضل منها . وخصوصاً الليليّة منها .

وسابعها : كفّ اللسان عن الهذر والغيبة والنميمة واللغو . وكفّ السّمع عن اللغو ، وعن سماع كل ما لا فائدة فيه ، دينيّة أو دنيويّة . وكفّ الأعضاء عن جميع ما يكرهه الله تعالى .

وثامنها : الزّهد في الدنيا بالمرّة . والاقتصار في البُلغة منها . والقوت من حِلّه . ومهما أمكن الاستغناء عن الناس فليفعل . فإن الحاجة إليهم الذلّ الحاضر .

وتاسعها : دوام ذكر الموت والاستعداد لنزوله . وليكُن في كل يوم عشرين مرّة ، حتى يصيرَ نصبَ العين .

وعاشرها : مُحاسبة النفس عند الصباح والمساء على ما سلف منها . فإن كان خيراً استكثر منه . وإن كان شراً رجع .

وحادي عشرها : دوام الاستغفار بالقلب وباللسان . وصورته : " الهم اغفر لي ، فإني أستغفرك وأتوب " . ومن وصيّة لقمان لابنه أن يُكثر من " اللهم اغفر لي" ، فإن لله أوقاتاً لا يرُدّ فيها سائلاً .

وثاني عشرها : الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر مهما استطاع ، على ما هو مُرتّب شرعاً .

وثالث عشرها : مساعدة الإخوان ، والتعرّض لحوائجهم بحسب الحاجة والمُكنة . وخصوصاً الذريّة العلويّة والسُلالة الفاطميّة .

ورابع عشرها : التعظيم لأمر الله تعالى . والتعظيم لعلماء الدين وأهل التقوى من المؤمنين .

وخامس عشرها : الرضى بالواقع . وأن لا يتمنّى ما لايدري أهو خير أو لا . ودوام الشكر على كل حال .

وسادس عشرها : الصبر في المواطن ، فإنه رأس الإيمان .

وسابع عشرها : دوام الدعاء بتعجيل الفرج ، فإنه من مُهمّات الدين .

وثامن عشرها : دوام دراسة العلم مُطالعةً وقراءةً وتدريساً وتعليماً وتعلّماً . ولا تأخذه فيه لومة لائم .

وتاسع عشرها : الإخلاص في الأعمال . فإنه لا يُقبل منه إلا ما كان خالصاً صافياً . والرياء في العبادة شِرك نعوذ بالله منه .

وعشرونها : صِلة الأرحام ، ولو بالسلام ، إن لم يكن بغيره .

وحادي عشرونها: زيارة الإخوان في الله تعالى . ومُذاكرتهم في أمور الآخرة .

وثاني عشرونها : أن لا يُكثروا في الرُخص والأخذ بها والتوسعة . ولا يُكثروا التشديد على أنفسهم في التكليف . بل يكون بين ذلك قواما .

وثالث عشرونها : أن لا يدع وقتا يمضي بغير فائدة دينيّة أو دنيويّة .

ورابع عشرونها : معاشرة الناس بما يعرفون ، والإعراض عمّا يُنكرون . وحُسن الخُلُق . وكظم الغيظ . والتواضع لهم . وسؤال الله تعالى أن يُصلحهم ويصلح لهم . وملاك هذه الأمور كلها تقوى الله ودوام مراقبته . والسلام عليهم جميعاً . والحمد لله وحده . وصلّى الله على محمد وآله أجمعين .

الوصيّة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

وأوصيهم ببذل المجهود في الجمع بين القلب واللسان في التلاوة ، وسائر الأذكار في الركوع والسجود وسائر الهيئات . لايقنع أحدهم أن يحضُر عند الله تعالى بقالبه دون قلبه . وعلى قدر ضبط الجوارح عن الفضول بين كل فريضتين يجد قلبه في الصلاة.

وأوصيهم بذكر الله عزوجل باللسان وبالقلب . فأمّا القلب ففي كل مجلس ومحفل وكل طريق يسلكونه . وعند الأكل والوضوء خاصة . فإن الذاكر على طعامه ووقت وضوئه يقلّ طروق الشيطان على قلبه ، وتقلّ وسوسته في الصلاة .

وأوصى الإخوان بالدوام على الطهارة . ينبغي للعبد أن لا يُحدِث إلا ويُجدّد الوضوء . فإنه سلاح المؤمن .

ومهما قدر أن لا يقعد إلا مُستقبلَ القبلة . وكل مجلس لا يكون فيه مٌستقبل القبلة يعتقدُ أن فاتته فضيلة . ويتصوّر في كل مجلس كأن رسول الله صلى الله عليه وآله حاضر ، حتى يتأدّب في قوله وفعله . ولا ينام إلا على طهارة مُستقبل القبلة .

ومن أنفع الوصايا القيام بالليل ، فإنه دأب الصالحين . فإنهم لا يدَع أحدهم أن ينقضي ليلة ولم تكن له فيها نافلة ، إمّا في أولها أو وسطها أو آخرها .

وأحبّ من إخواني أن لا يدَعوا يوماً بليلهِ لا يكونوا فيه بين يدي الله تعالى . مُتأسّفين على ما بدر منهم من أمر وفاتهم من عوالي الدرجات .

ومن العَوْن الحسن على حقائق العبوديّة ذكرُ الموت. وقد قيل: " يا رسول الله ، هل يُحشَر مع الشهداء ؟ " قا ل:" نعم! مَن يذكر الموت بين اليوم والليلة عشرين مرّة " . فذكر الموت يُقصّر الأمل ويُحسّن العمل .

وممّا انتفعتُ به في زماني وأوصي به إخواني البُكور إلى الجمعة . يجتهد أحدهم أن يُصلّي فريضة الصبح في الجامع ، ويشغل وقته بالصلاة والتلاوة وأنواع الذكر إلى أن

يؤدّي الفريضة . فيوم الجمعة يوم الآخرة، لا يشغل بشئ من أمور الدنيا . ويغتسل للجمعة قبل طلوع الشمس . فإن أمكنه الغُسل مع البكور إلى الجمعة قريب الصلاة فحسَن .

وأحبّ من الإخوان أن لا يدَعوا يوماً بلا صدقة . ولا يدَعوا أسبوعاً كاملاً بلا صوم . فيصوم الأثانين والأخمسة والجُمَع . وإلا فيومين منها .

وأوصيهم أن لا يذكروا أحداً من المسلمين إلا بخير ، على ما يَعتقدُ فيه من بِدعة أو شُبهة . ولا يفتحوا على أنفسهم باب التاويل للوقيعة في المسلمين .

وأحب من الإخوان ترْك الكلام في أمر الدنيا بعد صلاة الصبح إلى أن ترتفع الشمس قيد رُمح . ثم يختم المجلس بركعتين .

هذا ما حضرني في الوقت . وكتبته للإخوان بمدينة دمشق ، حماها الله . ووفقهم وإياي لِما يُحبّ ويرضى بحوله وكرمه . والحمد له وحده . وصلواته على سيدنا محمد وآله .

الوصيّة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

عليك بتقوى الله في السرّ والعلانية . واختيار الخير لكل مخلوق ولو أساء إليك . واحتمال الأذى ممّن كان من خلق الله . ولو شُتمتَ وأُهنتَ فلا تُقابِل الشاتم بكلمةٍ واحدة .

وإذا غضبتَ فإياك والكلام . ولكن تحوّل من مكانك ، وتشاغل بغيره يَزُل غضبك وغيظك .

وعليك بالفكر لآخرتك ودنياك .

وإياك والخلوّ من التوكل على الله في جميع أمورك . واثقاً به في مهماتك كلها .

وعليك بالشكر لمن أنعم عليك .

وإياك والضحك ، فإنه مُميت للقلب .

وإياك وتأخير الصلاة عن أول أوقاتها ، ولو كان لك شُغل ، أي شُغلٍ كان . ولا تترك القضاء لصلاةٍ عليك ولو يوماً واحداً . فإذا فرغت من الصلاة فصلّ النوافل .

وعليك بالملازمة في طلب العلم منذ كان . ولا تتلوه على كل أحد . بل تستقبل من كل أحد .

وإياك ومُنازعةَ مَن تقرأ عليه والردّ عليه . بل خُذ ما يُعطى بالقبول .

وإياك أن تترك النظر في الذي تقرأه ليلةً واحدة .

واجعل لك وِرداً من القرآن . وإن تمكّنت من حفظه فاحفظ . بل احفظه ما استطعت .

واجتهد أن يكون كل يوم خيراً من ماضيه ولو بقليل .

وإياك ان تسمع نميمة أحدٍ من خلق الله . فإنها نقمة لا تُعَدّ ولا تُحصى .

ولا تنقطع عن الزيارات .

وإياك أن تُحادث أحداً في غير العلم .

وإياك وكثرةَ الكلام ، ونقْل كلام أحد .

وإذا زُرتَ أو دعوتَ اذكرنا سراً . وادعُ لنا بخاتمة الخير وحُسْن التوفيق . وإن تمكنت عقيب كلّ صلاةٍ فافعل .

وعليك بالمواظبة في كل يوم بخمسٍ وعشرين مرّة " اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات " . فإن فيها ثواباً جزيلاً .

ولا تترك الاستغفار عقيب العصر سبعاً وسبعين مرّة .

وأكثِر من قراءة (إنّا أنزلناه) و (قُل هو الله أحد) .

---

5 . قصيدة للشهيد

يُخاطب بها الأمير بيدمُر نائب السلطنة في "دمشق" .

يا أيها الملك المنصور بيدمُر بكم خوارزم والأقطار تفتخـــر
إني أراعي لكم في كل آونـة وما جنيتُ لعَمري ، كيف أعتذر
لا تسمعنْ فيّ أقوال الوُشاة فقـد
باءوا بـزُورٍ وإفـكٍ ليـس ينحصـــر
والله والله إيمـانـاً مـؤكّـدةً إنّي بريءٌ مـن الإفك الذي ذكروا
عقيدتي مُخلصاً حُبّ النبي ومَـن
أحبّـه وصِحـابٍ كلّهـم غُـــرَر
يكفيك في فضل صِدّيق وصاحبه
فاروقِـه الحـقّ في أقوالـه عُـمَـــر
جوار أحمـد في دُنيا وآخـرةٍ وآية الغار للألبــــاب تُعتبَر
والخيرعثمان والمنعوت حيدرة وطلحة وزُبير فضلهم شُـــهروا
سـعداهم وابن عُوْفٍ ثم عاشرهم
أبو عُبيدة قـــوم بالتُقى فخروا [1]
الفقه والنحو والتفسير يعرفني ثم الأصـولان والقــرآن والأثر
فكُن كمنجك [2]بلّ الله أعظمـه وزادك الله عـــزّاً ليس ينحصـر
أتـى إليه رُواة السـؤ إذ أفكوا فحين حقـّق أرداهم بمـا ذكـروا
أمير حاجـب نجل العسكري له
من ذاك خبْـرٌ فسلْه يُعرف الخبر

---

(1)هذا البيت والأبيات الثلاثة السابقة مُضمّنة من قصيدةٍ للسيّد أحمد بن محمد الحافي. انظر : روضات الجنّات : 7 / 18 ـ 19 .

والله ما مسّني مـنـه مقابلـة بالسؤ كلاّ ولا خُسّرت ماخسروا

لأنني وإلـــهِ العرش مُفتقِـر إلى نقيـرٍ وقِطميرٍ لـــه خطـر

لا أســتغيثُ من الضرّاء يعلم ذا ربّي

وأســتارُ دار ظــلّ يـُذّكـــــر

فامنُــن أميري ومخدومي على رجـلٍ

واغنم دعائي سِــراراً بعد إذ جهروا

فــي كلّ عامٍ لنا حجٌ وكان لنـــــا

في خدمة النجل في ذا العام مُحتضَر

محمّدٌ شـــاه سـلطانِ الملوك بقي

مُمَتّعــاً بحِماكم عُمـرَه عمـــــروا

ثم الصلاة على المُختار سيّدنا والآل والصّحْب طُرّاً بعده زُمَر

(خدمة المملوك المظلوم والله محمد بن مكـّي الشامي) [3]

---

(2) هو الأمير سيف الدين منجَك ، نائب السلطنة في " الشام " 770 ـ 775 هـ / 1368 ـ 773 م .

(3) روضات الجنّات / نفسه .

6 ـ رسالة علي بن المُؤيّد الخراساني
إلى الشهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام كنَثْر العنبر المُتضــوّع   يُخلّف ريح المســك في كل موضع
سلام يُباهي البدر في كل منزل   سلام يُضاهي الشمس في كل مطلع
على شمس دين الحق دام ظلاله   بجِدّ سـعيــدٍ فـي نـعيــم مُمَتّــع

أدام اللهُ مجلسَ المولى الإمام، العالِم العامل، الفاضل الكامل ، السّالك الناسك . رضيّ الأخلاق ، وفيّ الأعراق ، علاّمة العالَم ، مُرشِد الطوائف والأُمم ، قدوة العلماء الراسخين ، أسوة الفضلاء المُحققين . مُفتي الفِرَق . الفاروق بالحق . حاوي فنون الفضائل والمعالي . حائز السبق في حَلبْة الأعاظم والأعالي . وارث علوم الأنبياء والمرسَلين . مُحيي مَرَاسم الأئمة الطاهرين . سرّ الله في العالمين . مولانا شمس الملّة والحق والدين . مدّ الله أطنابَ ظلاله بمحمّد وآله في دولة راسية الأوتاد ، ونعمة مُتّصلة الإمداد إلى يوم التناد .

وبعد ، فالمُحبّ المُشتاق مُشتاقٌ إلى كريم لقائه غاية الاشتياق ، وأن يتشرّف بعد البُعاد بقرُب التلاق .

حُرِم الطّرْفُ من مُحيّاك لكن   حظي القلبُ من حُميّاك رِيّا

يُنهي إلى ذلك الجناب ، لا زال مرجعاً لأولي الألباب ، أن شيعة خراسان ، صانها الله تعالى عن الحدَثان ، مُتعطّشون إلى زُلال وصاله ، والاغتراف من بحار فضله وأفضاله . وأفاضل هذه الديار قد مزّقت شملهم أيدي الأدوار ، وفرّقت جُلّهم بل كلهم صنوف صروف الليل والنهار . وقال أمير المؤمنين عليه ســلام ربّ العالمين :

" ثلمة الدين موت العلماء " . وإنّا لا نجد فينا مَن يوثق بعلمه في فُتياه ، أو يهتدي الناس برُشده وهُداه . فيسألون الله تعالى شرف حضوره ، والاستضاءة بأشعّة نوره ، والاقتداء بعلومه الشريفة ، والاهتداء برسومه المُنيفة . واليقين بكرمه العميم وفضله الجسيم أن لا يُخيّب رجاءهم ولا يرُدّ دعاءهم . ويُسعف مسؤولهم ، ويُنجح مأمولهم .

إذا كان الدعاء لمَحْض خيرٍ   على يدَي الكريم فلا يُرَدّ

امتثالاً لِما قال الله تعالى : " والذين يصِلون ما أمر الله به أن يُوصَل "

ولا شكّ أن أولى الأرحام بالصلة الرّحِم الإسلاميّة الروحانيّة . وأحرى القرابات بالرعاية القرابة الإيمانيّة ثم الجسمانيّة . فهما عُقدتان لا تحلّهما الأدوار والأطوار . بل شُعبتان لا يهدمهما إعصار الأعصار . ونحن نخاف غضب الله على هذه البلاد ، لفقدان المُرشِدِ وعدم الإرشاد .

والمسؤول من إنعامه العامّ ، وإكرامه التام ، أن يتفضّل علينا ويتوجّه إلينا . مُتوكّلاً على الله القدير . غير مُتعلّل بنوع من المعاذير . فإنّا بحمد الله نعرف قدْره ونستعظم أمره ، إن شاء الله تعالى .

والمُتوقّع من مكارم صفاته ومحاسِن ذاته إسبال ذيل العفو على هذا الهفو . والسلام على أهل الإسلام .

المُحبّ المُشتاق علي بن مُؤيّد[1]

---

(1) الشهيد الأول حياته وآثاره / 195 ـ 96 .

7 . آخِرُ سماع للشهيد من شيخه

تاج الدين بن مُعيّة

سمع هذه الأحاديث من لفظي ، مولانا الشيخ الإمام العالِم الفاضل شمس الملّة والحق والدين ، محمد بن مكّي، أدام الله فضائله ، في يوم السبت حادي عشر شوّال ، من سنة أربع وخمسين وسبعمائة . وأجَزْتُ له روايتها عنّي بالسند المُتقدّم وغيره من طرُقي إلى المشايخ الجلّة الذين رووها . وكذا أجَزْتُ له رواية جميع ما تصحّ روايته من سماعاتي وقراءاتي ومُستجازاتي ومناولاتي ومُصنفاتي ، وما قُلتُه وجمعته ونظمته ونثرته ، وأُجيز لي وكوتبتُ به ، وجميع ما ثبت عنده أنه داخل في روايتي .

وكتب محمد بن مُعيّة في التاريخ . والحمد لله . والسلام لأهله أجمعين [1] .

8 . إجازة فخر المُحققين للشهيد

قرأ عليّ مولانا الإمام العلاّمة الأعظم ، أفضل علماء العالَم ، سيّد فضلاء بني آدم ، مولانا شمس الحق والدين ، محمد بن مكّي بن محمد بن حامد ، أدام الله أيامه ، من هذا الكتاب [إيضاح الفوائد في شرح إشكالات القواعد] مُشكلاتِه ، وحقّقَ وأفاد كثيراً من المسائل المُشكِلة ، بفكره الصائب وذهنه الثاقب . وقد أجزتُ له روايته عنّي .

وأجزتُ جميع ما صنفته وألفته وقرأته ورويته . وأجزتُ له رواية جميع كُتُب والدي قدّس سرّه في المعقول والمنقول والفروع والأصول . وجميعَ ما صنفه أصحابنا المتقدّمون عنّي عن والدي عنهم ، بالطُرُق المذكورة لها . وقد ذكر والدي قدّس سرّه بعضَ تلك الطُرُق في كتاب خلاصة الأقوال في معرفة الرجال .

وكتب محمد بن الحسن بن يوسف بن المُطهّر في سادس شوّال سنة ستّ وخمسين وسبعمائة بالحلّة . والحمد لله وحده . وصلّى الله على سيدنا محمد وآله [2] .

---

(1) بحار الأنوار : 107 / 182 .

(2) نفسه / 177 ـ 78 .

9 . إجازة شمس الأئمة الكرماني للشهيد

بسم الله . والحمد لله . والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله .

وبعد فقد استجاز المولى الأعظم الأعلم ، إمام الأئمة ، صاحب الفضليَن ، مجمع المناقب والكمالات الفاخرة ، جامع علوم الدنيا والآخرة ، شمس الملّة والدين محمد ابن الشيخ العالِم جمال الدين بن مكّي ابن شمس الدين محمد الدمشقي . رزقه الله في أُولاه وأُخراه ما هو أولاه وأحراه ، رواية ما لي فيه حقّ الرواية. لا سيّما الكُتُب الثلاثة ، التي صنفها أستاذ الكلّ في الكلّ عضد الملّة والدين عبد الرحمن بن المولى السعيد زين الدين أحمد بن عماد الدين عبد الغفّار الأيجي ، روّح رمسه وقدّس نفسه : المواقف السُلطانيّة ، والفوائد الغياثيّة ، وشرح مُختصَر المُنتهى ، وشروح ثلاثها الثلاثة التي ألّفها ، خصوصاً هذا الكتاب المُسمّى بالكواشف في شرح المواقف .

فاستخرتُ الله وأجزت . على أنني ما كنتُ أهلاً لذلك . ولكن جرى عهد قديم لذلك لفظاً كتابةً لا كتابةً كتابة . فله أن يروي عنّي ما ثبت عنده أنه من مرويّاتي ، من صاعه ومُدّه ، أو من نتايج فكرٍ أنا أبو عذره . وإن كنتُ فيه مُزجاة البضاعة . على شرائطها المُعتبَرَة عند أهل الصناعة . والمأمول منه أن لا ينساني في دعواته عند مَظانّ إجاباته . بلّغه الله وإيّانا إلى المطالب . ورفع درجته إلى المراتب .

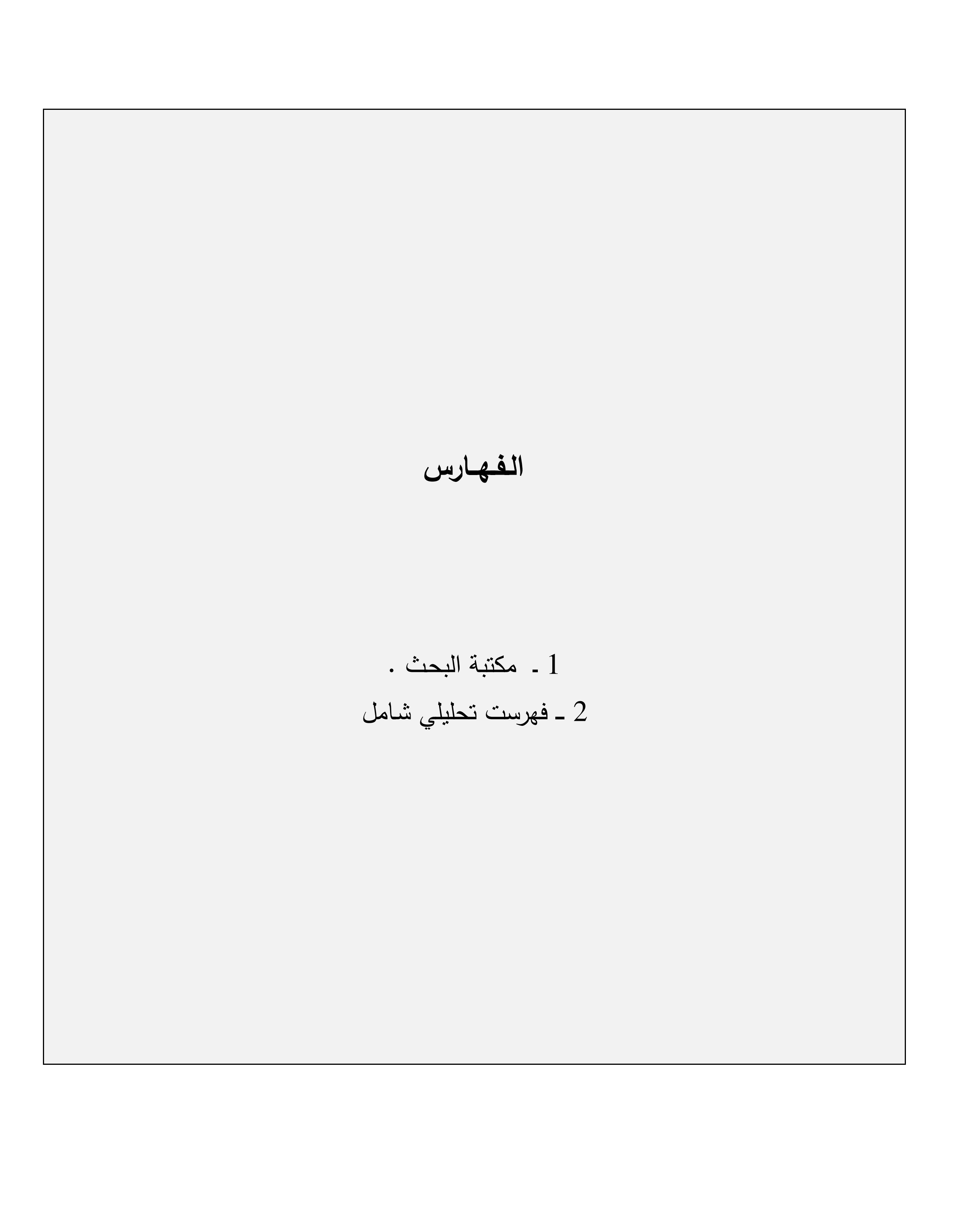
وإني أخذتُ العلوم النقليّة من والدي وشيخي ، المولى السعيد بهاء الدين يوسف ، أعلى الله مكانه ومكانته . والعلومَ العقليّة من صاحب الكتب الثلاثة قدّس الله نفسه . وعلمَ الأحاديث من مشايخ مصر والشام . كما أن أسماءهم وأنسابهم وأستاذيّتهم مذكورة في مشيختي .

نمّقه العبد الفقير إلى الله محمد بن يوسف بن علي بن محمد بن سعيد بن محمد القرشي أصلاً ، الشافعي مذهباً ، الكرماني مولداً ، المُلقّب بشمس الأئمة . آتاه الله خير الداريَن . ورفع منزله في المراتب . في أوائل جمادى الأولى لسنة ثمانٍ وخمسين

وسبعمائة ، بمدينة السلام بغداد ، بمنزلي المعهود في درب المسعود . حامدين لله . مُصلّين على محمد أفضلَ الصلاة والسلام[1] .

---

(1) أيضاً / 183 ـ 84 .



الفهارس

1 ـ مكتبة البحث .

2 ـ فهرست تحليلي شامل

مكتبة البحث

(المطبوعا ت)

آغا (آقا) بُزُرك ، محمد محسن الطهراني الرازي :

ــ " الذريعة إلى تصانيف الشيعة " ط . بيروت دار الأضواء لات .

ــ " طبقات أعلام الشيعة " ط . قم مؤسسة إسماعيليان لات .

إلياس البيطار (محقق الكتاب . المؤلف مجهول) :

ــ " قواعد الآداب حفظ الأنساب " منشورات الجامعة اللبنانيّة لات .

أنيس فريحة :

ــ " معجم أسماء المدن والقرى اللبنانيّة " ط . بيروت 1992 م .

جعفر المهاجر :

ــ " التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريّة " ط . بيروت دار الملاك 1413 هـ / 1992 م .

ــ " جبل عامل بين الشهيدين " ط . دمشق 2005 م .

ــ "جبل عامل تحت الاحتلال الصليبي" ط . بيروت دار الحق 1421هـ/2001م .

ــ "ستة فقهاء أبطال" ط . مركز الدراسات والتوثيق والنشر 1415 هـ / 1994 م .

ــ " الهجرة العامليّة إلى إيران في العصر الصفوي . أسبابها التاريخيّة ونتائجها الثقافيّة والسياسيّة " ط . بيروت دار الروضة 1410 هـ / 1989 م .

جوزيف إليان :

ــ " بنو سيفا ولاة طرابلس " ط . بيروت 1987 م

ابن حجر العسقلاني ، أحمد :

ــ " إنباء الغمر بأنباء العمر". تحقيق حسن حبشي ، ط . القاهرة 1389 هـ / 1969 م .

ــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " ط . مصر دار الكتب الحديثة لات .

ــ " لسان الميزان " ط . بيروت 1390 هـ / 1971 م .

الحُرّ العاملي ، محمد بن الحسن :

ــ "أمل الامل في علماء جبل عامل" . تحقيق أحمد الحسيني ، ط . النجف 1385 هـ

حسن الصدر:

ــ " تكملة أمل الآمل " . تحقيق أحمد الحسيني ، ط . قم 1406 هـ .

حسين النوري الطبرسي :

ــ " مُستدرَك الوسائل " ط . طهران المكتبة الإسلاميّة لات .

خليل بن أيبك الصفدي :

ــ " أعيان العصر وأعوان النصر " . تحقيق علي أبو زيد وآخرون ، ط . دار الفكر 1418 هـ / 1998 م .

ــ " لبنان في عهد الأمير فخر الدين " . تحقيق أسد رستم وفؤاد البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانيّة 1969 م .

خواند أمير ، غياث الدين بن همام الدين الحسيني :

ــ " حبيب السّيَر في أخبار أفراد بشر" (بالفارسيّة) ط . طهران 1333 هـ . ش .

الذهبي ، محمد بن أحمد :

ــ " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام " . تحقيق عمر تدمري ، ط . بيروت دار الكتاب العربي 1420 هـ / 1999 م .

رضا المختاري :

ــ " الشهيد الأول حياته وآثاره " ط . قم ، مركز العلوم والثقافة الإسلاميّة 1426 هـ / 1384 هـ .

سبط ابن الجوزي ، يوسف بن قز أوغلي :

ــ " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " . تحقيق إحسان عباس ، ط . بيروت دار الشروق 1405 هـ / 1985 م .

أبو شامة المقدسي ، عبد الرحمان بن إسماعيل :

ــ " الذيل على الروضتين " ط . بيروت دار الجيل لا ت .

الشريف الإدريسي :

ــ" نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " ط . بيروت عالـَم الكتب لات .

الشهيد الأول ، محمد بن مكيّ الجزيني :
ــ "الأربعون حديثاً " ط . قم بالأوفست عن طبعة حجريّة بطهران 1318 هـ .
ــ " رسائل الشهيد الأول " ط . قم 1423 هـ .
ــ " الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة " ط . قم مؤسسة النشر الإسلامي 1412 هـ .
ــ " اللمعة الدمشقيّة في فقه الإماميّة " ط . بيروت 1410 هـ / 1990 م
الشهيد الثاني ، زين الدين بن علي الجباعي :
ــ " الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة " ط . بيروت لات.
شيخ الربوة ، محمد بن أبي طالب الأنصاري :
ــ " نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر " ط . بيروت 1408 هـ / 1988 م .
صالح أحمد العلي :
ــ " امتداد العرب في صدر الإسلام " ط. بيروت، مؤسّسة الرسالة 1403 هـ / 1983 م .
صالح بن يحيى :
ــ " تاريخ بيروت " ط . بيروت 1990 م .
الطوسي ، محمد بن الحسن :
ــ" النهاية في مُجرّد الفقه والفتاوى " ط . بيروت 1390 هت / 1970 م
ابن طولون الصالحي ، شمس الدين محمد :
ــ " إعلام الورى بمَن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى " . تحقيق محمد أحمد دهمان ، ط . دمشق 1383 هت / 1964 م .
ــ " الثغر البسّام في ذكر مَن ولي قضاء الشام " طُبع باسم " قُضاة دمشق " . تحقيق صلاح الدين المنجّد ، ط . دمشق 1956 م
طوني مفرج :
. " قُرى ومُدُن لبنان " (ضمن " الموسوعة اللبنانيّة ") ط . نوبيليس للنشر 2008 .
عباس القمّي :
ــ " فوائد الرضويّة في أحوال علماء المذهب الجعفريّة " ط .إيران، كتابفروشي مركزي لات .
عبد الحسين حائري :
ــ " فهرست كتابخانه مجلس شوراي إسلامي " ط . طهران ، 1347 هـ . ش .

عبد الله أفندي الجيراني الأصفهاني :
ــ "رياض العلماء وحِياض الفضلاء" . تحقيق أحمد الحسيني ، ط . قم 1401 هـ .
ابن عربشاه الدمشقي ، أحمد بن محمد :
ــ " عجائب المقدور في أخبار تيمور " ط . مصر 1305 هـ / 1981 م .
عصام شبارو :
ــ " تاريخ بيروت " ط . بيروت 1987 م .
ابن العماد الحنبلي ، عبد الحيّ :
ــ " شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب " ط . بيروت ، المكتب التجاري لات .
عُمَر كحّالة :
ــ " معجم المؤلفين " ط . بيروت لات .
ابن فضل الله العُمَري ، أحمد بن يحيى :
ــ " التعريف بالمُصطلَح الشريف " تحقيق محمد حسين شمس الدين ، ط . بيروت ، دار الكتب العلميّة 1408 هـ / 1988 م .
ابن قاضي شُهبَة ، أحمد الأسدي :
ــ " تاريخ ابن قاضي شُهبَة " تحقيق عدنان درويش ، ط . دمشق 1977 م .
القلقشندي ، أحمد بن علي :
ــ " صُبح الأعشى في صناعة الإنشا " ط . القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي لات.
كامل مصطفى الشَيبي :
ــ " الفكر الشيعي والنزعات الصوفيّة حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري " ط . بغداد 1386 هـ / 1966 م .
كمال صليبا :
ــ " تاريخ لبنان الحديث " ط . بيروت 1979 م .
ابن ماكولا ، علي بن هبة الله :
ــ " الإكمال في رفْع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب " ط . حيدر آباد لا ت .

المجلسي ، محمد باقر :
ـ "بحارالأنوارالجامعة لدُرَر أخبارالأئمة الأطهار" ط . بيروت 1403هـ/1983م .
المُحبّي ، محمد بن فضل الله :
ـ " خُلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر " ط . بيروت ، دار صادر لا ت .
محسن الأمين :
ـ " أعيان الشيعة " ط . بيروت ، دار التعارف 1403 هـ / 1983 م .
ـ " خِطط جبل عامل " ط . بيروت 1380 هـ / 1961 م .
المُحقّق الحلّي ، جعفر بن الحسن بن سعيد :
ـ " شرائع الإسلام في معرفة الحلال والحرام" ط . بيروت 1409 هـ / 1988 م .
محمد بن أحمد بن عبد الهادي :
ـ "العقود الدريّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد ابن تيميّة" ط . القاهرة ، مطبعة حجازي 1356 هـ / 1938 م .
محمد بن أحمد المقدسي :
ـ " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " ط . ليدن ، مطبعة بريل لا ت .
محمد باقر الخونسار ي :
ـ " روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات " ط . قم 1392 هـ .
محمد تقي دانِش بزو :
. " فهرست كتابخانه مركزي تهران " ط . طهران 1340 هـ . ش .
محمد رضا شمس الدين :
ـ " حياة الإمام الشهيد الأول " (طُبع ضمن مجموع باسم " بهجة الراغبين في مؤلفات الشيخ محمد رضا شمس الدين") ط . بيروت ، دار المحجة البيضاء 1424 هـ / 2003 م .
محمد بن محمد الجزري :
ـ "غاية النهاية في طبقات القُرّاء" . تحقيق برجستراشر ، ط . مر ، مكتبة الخانجي 1352 هـ / 1933 م .
محمد مكّي بن محمد :
ـ " مُختصر نسيم السّحَر " نشرتنا المُلحقة بالكتاب .

المقريزي ، أحمد بن علي :
ــ " السلوك لمعرفة دُول الملوك " ط . بيروت دار الكتب العلميّة 1418 هـ / 1988م.
موسى بن محمد اليونيني :
ــ " ذيل مرآة الزمان " ط . حيدر آباد لا ت .
نايل أبو شقرا :
ــ " تاريخ لبنان أزمة نصّ ومُصطلَح وهُويّة " ط . بيروت 2004 م .
هويدا الحارثي (مُحقق النص) :
ـ " وقف السلطان الناصر حسن بن قلاوون على مدرسته بالرميلة " ط. بيروت 2001م .
وجيه كوثراني :
ــ " الاتجاهات الاجتماعيّة السياسيّة في جبل لبنان والمشرق العربي " ط . بيروت 1987 م .
اليعقوبي ، أحمد بن واضح :
ـ " البلدان " ط . بيروت 1408 هـ / 1988 م .
يوسف البحراني :
ـ " أنيس المسافر " (طُبع باسم " كشكول البحراني ") ط . بيروت 1986 م .
ـ " لؤلؤتي البحرين في الإجازة لقرّتي العين " ط . النجف 1386 هـ / 1966 م .

(المخطوطات)

الشهيد الأول ، محمد بن مكيّ الجزيني :
ـ "إيضاح الفوائد" مخطوطة المكتبة المركزيّة بجامعة طهران . رقم 706 .
محمد بن علي الجباعي :
ـ " مجموعة الجباعي" . مخطوطة كتابخانه ملِك في طهران . رقم 604 .
موسى بن محمد اليونيني :
ـ " ذيل مرآة الزمان " . مخطوطتنا . وهي صورة عن مخطوطة "سوهاج " المحفوظ أصلها في "معهد المخطوطات" التابع لجامعة الدول العربيّة " بالقاهرة .

(الدوريّات)

ـ مجلّة " تُراثُنا " العدد 23 .

ـ صحيفة " السفير " البنانيّة ، العدد الصادر بتاريخ 25 أيلول 1988 م .

ـ فصليّة " شؤون الأوسط " اللبنانيّة ، العدد 103 .

ـ مجلّة " الفكر الإسلامي " اللبنانيّة الصادرة عن دار الفتوى . العدد 6 من السنة السابعة . شهر حزيران 1987 .

فهرست تحليلي شامل

للأعلام عموماً من أشخاص وأُسرات وفِرق وجماعات وطوائف ومعالم جغرافية وطوبوغرافية .
وأسماء الأعلام منسوقة أبتثيّاً (أ ، ب ، ت ، ث . . . . الخ.)
وقد اعتمدنا الكنية أو اللقب إن كانا أشهر، وإلا فالاسم .